

حنفي المحلاوي



دالناصر وأم كلثوم

علاقة
خاصة جداً



Bibliotheca Alexandrina



عبدالناصر و أم كلثوم
علاقة
خاصة جدًا

الطبعة الأولى

١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

رقم الإيداع ٩٦٩٢ لسنة ١٩٩١

الناشر

مركز الثقافة للكتاب والنشر
تليفون : ٧٣٥٦٥٥

الملكية الأدبية والفنية وجميع الحقوق المتعلقة بالكتاب محفوظة للناشر

ويحظر بصورة مطلقة ، وتحت طائلة المسؤولية القانونية ، أى اقتباس

أو نقل أو استعمال مضمون هذا الكتاب . أو أى جزء من الكتاب ، أو

أى جزء من المضمون ، بأية وسيلة كتابية أو طباعية أو سمعية أو بصرية أو مصورة ، بدون

موافقة الناشر الخطية المسبقة .



٢٠١٥

حنف الحلاوي



عبد الناصر وأم كلثوم

علاوة
الهبة العامة لكتبة الأمانة
خاصة جداً



مركز الفاعل للكتاب والنشر



رسالة من الناشر

يقول الله تعالى في كتابه الكريم : ﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ
① خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِي
عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤ ﴾

« صدق الله العظيم » .

إعمالاً لغاية عزيزة ، هي خدمة القارئ في مصر والعالم العربي ، بتوفير أهم
منابع الفكر والثقافة ممثلة في إصدارات من الكتب القيمة في مختلف المجالات
« علمية ، ثقافية ، دينية ، أدبية ، فنية » ، نهض مركز القادة للكتاب والنشر
على عاتق مجموعة من المشتغلين بالفكر والثقافة ليضطلع بهذا الدور الحيوي عن
قناعة به وبأهميته لمجتمعاتنا العربية وهي في سبيلها للحاق بركب الحضارة والتقدم .

لقد أثبتت الدورات الطبيعية للحياة أن سباقاً قائماً منذ القدم منشوده
الحضارة والتحضر ، وأن الوسيلة العملية والواقعية لبلوغ الأمم غاياتها من الاستباق
كانت وستظل المنهج العلمي وإحراز ثقافات راقية بمستوى العصر ، تتفاعل مع
متطلبات المنافسة العصرية ، وتقدم أدواتها من نتاج فكرها ، ومن ثم فلا عجب في
أن نرصد فارقاً زمنياً يساوي عشرات السنين بقياس التحضر بين أمة وأخرى
تعيشان الزمن الواحد ، فغياب المنهجين العلمي والثقافي لدى أمة يخلق فراغات
من الجهل والحمول تبتلعها فتغييها عن المنافسة وتستيقها عند زمن فالت ! .

فإن كان شمال العالم قد سبق جنوبه بعشرات من سنين الحضارة والتقدم
العلمي والتكنولوجي ، فإن ذلك قد حدث من استيعاب أهل الشمال لتجربة
الجنوب القديمة الذي سبقهم أخذاً بالمنهج العلمي وحقق التقدم عليهم ولم يكن

محض استيعاب ، وإعمالاً لهذا الفهم تم السطو من قِبَلِهِمْ على علوم الجنوب وثقافته ونقلها إلى الشمال حتى تقلَّص الدور الحضارى لأهل الجنوب أمام إزدهار أهل الشمال واستمساكهم بموقع الصدارة والسيادة .

إن نهب وإحراق مكتبة الإسكندرية قديماً إنما هو إبراز لهذا الفهم الشمالى لخطورة العلم والوعى والثقافة إذا ما ظل ينهل منها أهل الجنوب « أصحابها » ! .. ولكننا لم نفق على هذه الحقيقة إلا بعد أن تمت دورة انتقال التقدم والسبق إليهم . غير أن هذا لا يعنى بأى حال أن تنمَّ دورة الحياة قد حدثت ، فمازال ركب الحياة يستوعب ويرحب بالمتنافسين على إحراز أدوات الرقى ، ومن ثم التقدم والتحضر ، ومازالت الصورة الحضارية تترك مساحة واضحة يشغلها عرى من أهل الجنوب يطالع كتاباً فى وسيلة انتقاله من مكان لآخر كنظيره الفرنسى أو الألماني ، ومازال أهل الشمال بكل وسائلهم الاستعمارية عاجزين عن أن يمنحوا جنوبياً واحداً عن النهل من علومه القديمة وعلومهم الحديثة ، فالأمر معلق بالإرادة وحدها .

من هذا المنظور إجتزنا تيار الرغبة فى تقديم عمل نافع من خلال مركز القادة للكتاب والنشر . حقيقة أننا لا نفعل عامل استثمار المال ، ولكننا نوازن قدر استطاعتنا بين استثمار المال للقيام مشروعاتنا وبين استثمار الفكر لصالح أبناء أمتنا والأجيال القادمة ، ذلك من خلال العناية بإبداع الكاتب وحرية الفكر والتعبير عن الرأى ، ومن ثم معالجة الموضوعات الحيوية الهامة بصورة إيجابية واقعية وبرؤية تنسم بالعمق والوضوح ، كذا الاعتناء بإخراج الكتاب مادة وطباعة وإخراجاً .

﴿ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

• صدق الله العظيم •

والله ولى التوفيق

الناشر

المحتويات

** قبل أن تقرأ : ٩

** الفصل الأول : ١٥

- بين عبد الناصر وأم كلثوم ١٥
- ولد بعدها ومات قبلها ١٥
- لحظة ميلاد فنانة ١٧
- حين ولد الناصر الصغير ٢٠
- أوجه التشابه والاختلاف ٢٢
- تواريخ في حياة الزعيمين ٢٦

** الفصل الثاني : ٣٧

● بعد حصار القالوجا ٣٧

- كان هذا اللقاء ٣٧
- من أوراق قائد ميداني ٤٠
- من الضباط المحاصرين إلى أم كلثوم ٤٣
- كلمات على جدران فيلا الذكريات ٤٨

** الفصل الثالث : ٥١

● من الاسكندرية إلى مجلس قيادة الثورة ٥١

- الثورة في عيون هؤلاء ٥٤
- هل غنت أم كلثوم بأمر عبد الناصر عام ١٩٥٤ ٥٨
- لم يجد أمامه سوى فيلا أم كلثوم لحماية أسرته عام ١٩٥٦ ٦٦

**** الفصل الرابع : ٧٥**

● القول والكورة وأم كلثوم والاقتراب من عام ١٩٦٧ ٧٥

- أوسمة ونياشين بالجملة ٨٢
- الثورة بين العدالة الاجتماعية .. وعدالة أهل الفن ٨٥
- أم كلثوم تتوسط لدى عبد الناصر من أجل مصطفى أمين ٩٢
- كلمات على هامش هزيمة ١٩٦٧ ٩٧

**** الفصل الخامس : ١٠١**

● يوم أن رحل الزعيم ١٠١

- حفلات خاصة من أجل المجهود الحرنى ١٠٥
- الأيام الأخيرة في حياة عبد الناصر ١١١

**** الفصل السادس : ١٢١**

● ماين صاحبة العصمة والسيدة الأولى ١٢١

- صاحبة العصمة عام ٤٠ والسيدة الأولى عام ٧٠ ١٢٤
- الرصيد الفنى والاجتماعى لأم كلثوم قبل سنوات الرحيل ٢٩
- على هامش علاقة أم كلثوم بالرئيس السادات ١٣١
- جيهان السادات .. السيدة الأولى في كل المجالات ١٣٣
- دار أم كلثوم للخير ومصير مشروع الوفاء والأمل ١٣٦

**** الفصل السابع : ١٤١**

● ويوم أن رحلت كوكب الشرق ١٤١

- أم كلثوم .. في رحلة المرض الطويلة ١٤٣
- مليون مصرى .. في الوداع الأخير ١٤٦
- وفاة أم كلثوم في اذاعات العالم ١٥٠
- ** ألبوم خاص بكل القصائد والاغانى .. لأم كلثوم ١٥٥**
- من عام ١٩٢٤ - ١٩٧٢**

**** ألبوم صور يضم أم كلثوم وعبد الناصر ١٧١**

قبل أن تقرأ

قد نتفق أو نختلف على مفهوم الزعامة ، مثلما اختلف واتفق غيرنا من العلماء والمفكرين .. هذا الاختلاف لا يقلل من قيمة حديثنا القادم ، وإنما وكما قال غيرنا : « إن الاختلاف في الرأي لا يفسد قضايا الفكر ، بل هو طريق تعميق هذه القضايا ، لأن الاختلاف يؤدي إلى المزيد من البحث ، أملا في الوصول إلى الحقيقة ، أو الرأي الأصوب » ..

وحين نعود لحديث الزعامة ومدلولاتها اللغوية .. نجد أن إحدى الصفات المشتركة لمفهوم الزعامة ، والتي لا يمكن أن يختلف عليها اثنان .. هي صفة قوة التأثير في الجماهير .. أو بمعنى آخر هي امكانيات القبول والتأثير المباشر التي يملكها هذا الشخص أو ذاك فيمن حوله ..

وقد يتدرج هذا المفهوم وفقا للمحيط الذي يتعامل من خلاله هذا الشخص أو ذاك .. معنى ذلك أن كل شخص ما يستطيع أن يكون زعيما في مجال عمله .. فقط يمتلك أولا صفة القبول والتأثير فيمن حوله .. وأعيد وأكرر أن هذه ليست الصفة الوحيدة ، بل هناك العديد من الصفات والمكونات الشخصية التي يتفق ويختلف حولها المفكرون والمهتمون بقضايا الإنسان ..

ونتساءل قبل أن يتساءل غيرنا .. لماذا هذا الحديث .. عن الزعامة وضرورة البحث عن مفهومها الصحيح ؟ ..

نقول .. إننا بصدد الحديث عن زعيمين مصريين وعربيين ، يختلفان كل الاختلاف في الطبع والمهمة التكوينية ، بل وحتى نوع الجنس .. وقد يترك حديثنا القادم نوع من التأثير الغريب على كل من يقرأه .. بل نتوقع أنه سوف يثير غضب البعض .. ولكن من المؤكد أنه سوف يثير تأييد قطاع عريض من المهتمين بسير الزعماء ، خاصة ونحن لا نتحدث عن زعامات هشة .. بل زعامات أدت دورها بكل شرف وأعطت للجماهير

كل الحب .. إن حديث الزعامة القادم هو حديث من القلب إلى ذكرى الزعيمين ..
عبد الناصر وأم كلثوم ..

* * *

وحين تصدينا لحديث هذا الموضوع الجديد والغريب .. كان علينا أن نستعرض
بعض المفاهيم .. ونعيش بعض اللقطات ونقربها للقارئ العزيز قبل أن يبدأ معنا رحلة
البحث في حياة الزعيم الراحل جمال عبد الناصر قائد ثورة يوليو أو انقلاب يوليو ..

وفي حياة زعيمة الغناء العربى السيدة أم كلثوم .. وكما سبق أن أوضحنا ،
وستكون آخر مرة نشير فيها إلى ما سوف نقوله الآن .. إن الزعامة التى نتحدث عنها
هنا هى زعامة التأثير فى الجماهير .. لذا نعتبر أن كل من عبد الناصر وأم كلثوم زعيمين
مصريين وعربيين كبيرين ..

وقد نضطر إلى أن نبدأ الحديث القادم بأم كلثوم .. لعدة اعتبارات أولها .. أنتى
من جيل أم كلثوم وجيل الثورة .. وحين نفوس إلى أعماق الزمان .. هناك فى البلد
الحبيب الذى ولدنا على أرضه فى رحاب الجامع الحنفى .. نجد أننا قد فتحنا عيون
المشاعر والحب والعاطفة على صوت أم كلثوم .. وكلمات تدخل من الأذن وتعيش
داخل القلب أياما وشهورا طويلة .. نحاول أن نبحث عن نبع هذا الحب الذى طويلا ما
حدثنا عنه أم كلثوم وغنت وشدت ، وملأت أسماع الليل البارد والساخن .. وقولها
« الحب كده » ..

ونحن كذلك من جيل الثورة ، ولكن لم نفطن إلى ذلك إلا ونحن شبابا .. حين
أخذوا يعايروننا بأنه لولا ما فعلته الثورة لما دخل العديد من شباب جيلنا المدارس أو
الجامعات « ونحن هنا أيضا لسنا فى مجال مناقشة هذا الرأى لمعرفة خطأه من صوابه » ..
على أية حال .. إن الرأى عندنا إننا وشباب كثيرون بالفعل من جيل أم كلثوم .. لأنه
حقيقة غير قابلة للمجدل .. أما جيل الثورة فما زال الكلام عنه لم ينته بعد ..

* * *

لقد جرننا حديث الزعامة إلى البحث فى قواميس اللغة العربية ودوائر المعارف عن

مفهوم لفظ الزعامة ومدلولاته .. ومعانيه .. حتى يكون الحديث به بعض حالات التوثيق .. والحقيقة أننا بحثنا عن معنى الزعامة في دوائر المعارف وقواميس اللغة لم يسعفنا كثيرا .. وإنما وجدنا ضالتنا في بعض الكتب ولكنها للأسف لا تحدثنا عن الزعامة بالمفهوم العام .. بل وجدنا حديثا هاما عن الزعامة السياسية بمفاهيمها المختلفة التي أشرنا من قبل إلى اختلاف واتفاق المشتغلين بالعلوم الاجتماعية حولها .. إنه مفهوم قوة التأثير في الجماهير .. ومع ذلك وجدنا من باب العلم بالشئ أن نورد هذه المعاني لغويا .. ومنقولة حرفيا من معجم « المتجد » الذي يقول واضعه تحت حرف « ز » :

• تزعم القوم : صار لهم زعيما ..

• الزعيم : جمع زعماء أى السيد أو الرئيس ..

• الزعامة : الشرف أو الرئاسة ..

• الزعم والزعامة : اسم منه – أزعم المال : كفله به ..

• تزاعم القوم على الأمر : تضافروا عليه ..

• الزعيم جمع زعماء : الكفيل ..

ومن أجل تأكيد صفة البحث عن هذه المدلولات اللغوية .. لجأنا إلى القاموس

المحيط .. وتحت حرف « ز » جاء به فيما يخص لفظ الزعيم :

• زعيم يزعم (زعما) الحركات الثلاث على زأى المصدر أى قال ..

• زعم به : كفل وبابه نصر ..

• الزعيم : الكفيل والزعامة أيضا السيادة : وزعيم القوم سيدهم ..

وكان بحثنا التالى قد اتجه إلى دوائر المعارف من أجل الوقوف على المعنى المتعارف

عليه في حياتنا السياسية أو الاجتماعية .. ولكننا لم نعر عليه ، واكتفينا من أجل ذلك بما

استراحت له النفس من الأخذ بالتعريف ، الذى اقتصر على قوة التأثير في الجماهير ، لأنه

يناسب تماما حديث الزعيم سواء بالنسبة لجمال عبد الناصر صاحب السحر والتأثير

الجنون فيمن يسمعون .. أو بالنسبة للسيدة أم كلثوم صاحبة الصوت الذى كان ولا

يزال يجمع العرب من المحيط إلى الخليج .. إتنا بالفعل أمام حياة حافلة بالأحداث والمعاني

المشتركة بين عبد الناصر وأم كلثوم ..

مع الفارق الزمني الكبير نظهر كل من عبد الناصر وأم كلثوم .. إلا أنهما قد وجدا في مكان وزمان مشترك .. كان لهما فيه الأثر العظيم ليس فقط هنا في مصر ، بل وفي العالم العربى والخارجى .. وسوف نعرف فيما بعد أن الزعيمان عبد الناصر ، وأم كلثوم ، كان لهما عمل مشترك وضعتهما العديد من الأحداث السياسية المصرية والعربية والمشاركة على طريق واحد . وكان لكل منهما دوره البارز في هذه الأحداث ..

بل وسوف نعرف أيضا أن أم كلثوم كانت البلسم الشافى والصدر الحنون الذى كان يلقي فوقه عبد الناصر هموم مصر وهموم منزله .. وكثيرا ما كان يلجأ إليها ويحذنها في أى وقت يشاء .. وكانت علاقتهما كما أكد لنا الكاتب الكبير مصطفى أمين كانت علاقة خارج المكاتب ، ولا يعرف بها سوى أسرة أم كلثوم ، وأسرة عبد الناصر فقط ..

هذه العلاقة الخاصة بين الزعيمين .. جعلتنا نعتقد أن أم كلثوم قد لعبت دورا هاما في تاريخ مصر الحديث .. ليس بمنجرتها فقط كمغنية أو مطربة ، بل بأعمالها التى قامت بها حبا في مصر ، وفي جمال عبد الناصر ، والأمر الذى يؤكد لدينا هذا الاعتقاد أن الأستاذ مصطفى أمين قال لنا : أن أم كلثوم قررت اعتزال الغناء فور موت جمال عبد الناصر .. رغم أن العلاقة بين الزعيمين قد بدأت بعد ثورة يوليو .. أو قبلها بقليل حين التقى عبد الناصر بأم كلثوم ، في فيلتها الخاصة بالزمالك بعد رجوعه من حصار الفالوجا .. ولم يكن في حسابان كل من عبد الناصر ، وأم كلثوم أن هذه العلاقة التى بدأت على مائدة الطرب قد تمتد طوال العمر .. ويظل الزعيمان جنبا إلى جنب ليشهدا فترات هامة من تاريخ مصر السياسى والاجتماعى ، حين قامت الثورة وسارعت أم كلثوم لتأييدها ومن بعدها كان ما كان من شأن استمرار هذه العلاقة حتى فرق بينهما الموت ، ورحلا عن عالمنا ، ولم يبق لهما في داخلنا سوى الذكريات .. والكلمات والآهات وآلاف الشرائط والتسجيلات .. ومسجد عبد الناصر في كوبرى القبة ..

★ ★ ★

ورغم أن جمال عبد الناصر زعيم سياسى سطر بأعماله العديد من التواريخ المضيفة في حياة مصر والعالم بصرف النظر عن أخطائه .. إلا أن أم كلثوم ، وهى زعيمة من نوع آخر .. زعيمة الطرب والغناء المصرى والعربى قد تعادله فيما قدمت من أعمال فنية

في مجالها كزعيمة للغناء والطرب ، إذا ما قيست بغيرها في هذا الميدان ، ومدى ارتباط هذه الأعمال الفنية بخدمة وطنها المصرى والعربى .. مثلها في ذلك مثل عبد الناصر الذى من الصعب الآن ولفترات تاريخية طويلة أن نجد من يقف معه في صف واحد من أجل المقارنة ..

ولكن يبقى سؤالاً يتعلق بتأثير عبد الناصر كزعيم سياسى في رواج الأعمال الفنية للزعيمة الغنائية أم كلثوم .. هذا السؤال يدور حول ما قدمه جمال عبد الناصر ، وليست الثورة لانتشار أم كلثوم عربيا وعالميا ..

ولا شك أن جمال عبد الناصر له الفضل العظيم في انتقال أم كلثوم وفنها من مصر إلى أنحاء العالم العربى .. وهذا الدور يجزئنا بالتالى للحديث عما قدمه جمال عبد الناصر لمصر والعالم العربى ، حتى يصل تأثيره الجماهيرى عليهم مذاه السحرى ، الذى كنا ولازلنا نعرفه ، حين كان أكثر من مائة مليون عربى ينتظرون كلمات عبد الناصر في المناسبات القومية ، ويلتفون حول الراديو انتظارا لانطلاق صوت جمال عبد الناصر ..

ولا نغالى حين نقول أن هذا الأنتظار قد انتقل إلى أم كلثوم .. حيث بات الشعب العربى كله ينتظر ليلة الخميس .. وآخر كلمات أم كلثوم ..

إنه تأثير جمال عبد الناصر الزعيم السياسى .. قد انتقل بأفعاله من داخل مصر إلى خارجها .. حيث يعتبر رائد التحرر من سيطرة الاستعمار .. وصاحب ضربة البداية التى أذنت برحيل كل الدول التى كانت تحتل الدول العربية ، وكان بذلك صاحب الفضل الأول في تحرير البلاد العربية ، وعودة أراضيها إلى أهلها ..

هذه الأعمال التى ولدت في نفوس الشعب العربى حبا عظيما لجمال عبد الناصر .. هذا الحب قد انتقل بشكل تلقائى أو ان شئت قل انقسم القلب العربى بين حب عبد الناصر وحب أم كلثوم ..

من هنا نرى أن عبد الناصر الزعيم السياسى هو الذى فتح الباب على مصراعيه كى تغزو أم كلثوم قلوب كل العرب وتترعب على عرش الزعامة الغنائية .. رغم أن أم كلثوم وكما سنرى بعد قليل كانت قبل ظهور جمال عبد الناصر وقبل قيام ثورة يوليو ، فنانة مصرية مشهورة تجالس الملوك ويطلبها للغناء الأمراء في منازلهم وفي حفلاتهم العامة ..

وأن جمال عبد الناصر وزملاءه كانوا من محبي الاستطلاع لفن وطرب أم
كلثوم ..

والدليل لدينا .. الطلب الغريب الذى حرص على تلبية بعض الضباط المحاصرون
بالفالوجا بعد عودتهم .. حيث حرصوا على الحضور إلى فيلا كوكب الشرق أم
كلثوم .. وكان منهم الزعيم جمال عبد الناصر .. ورفاق حصار معركة الفالوجا ..

الفصل الأول

بين عبد الناصر ... وأم كلثوم ولد بعدها ... ومات قبلها

المصادفة وحدها ... لعبت الدور الكبير في الحصول على هذه المعلومات .. لقد شغلنا إحساس عام بضرورة البحث عن شهادة ميلاد عبد الناصر وأم كلثوم .. من أجل التعرف على خيوط حديث هذا الفصل ، والبحث عن مدخل يليق بمقام وأعمال وحياة هذين الزعيمين .. والا كيف نتحدث عن هذين الهرمين الشاخصين دون أن نضع أيدينا وقلوبنا على البداية .. أين كانت ؟ ومتى ؟ وعلى أى أرض وجدت ؟ .. تلك هى حكاية عبد الناصر وأم كلثوم من واقع بيانات شهادات الميلاد ..

وكأنما حصلنا على كنز سليمان حين وقعت فى أيدينا هذه الشهادات .. وقرأنا ما بها من بيانات .. لأننا نعتقد أن الحديث عن الزعماء من واقع أوراق رسمية يعدنا عن الشك ويساعدنا على قول الحقيقة ..

وكم كلفنا الحصول على هذه الأوراق ، من مشاق تمثلت فى قطع مسافات طويلة بالكيلومترات ذهابا وإيابا .. من القاهرة إلى مدينة السنبلوين ، التابع لها قرية « طماى الزهايرة » التى ولدت بها أم كلثوم .. ثم إلى مدينة الاسكندرية حيث ولد جمال عبد الناصر .. وأخذنا فى البحث هنا وهناك ، فى الدفاتر الرسمية وغير الرسمية أملا فى

الوصول إلى تواريخ ميلاد الزعيمين من واقع الأوراق الرسمية ، وبالفعل نجحنا في الحصول على شهادتي ميلاد الطفلين .. أم كلثوم .. وجمال عبد الناصر ..

تقول البيانات الرسمية الموجودة في شهادة ميلاد أم كلثوم الصادرة عن وزارة الداخلية ومديرية أمن محافظة الدقهلية أن :

اسم المولود بالكامل : أم كلثوم ابراهيم البلتاجي ..

اسم الأب بالكامل : ابراهيم السيد البلتاجي ..

اسم الأم بالكامل : (غير موجود بالبطاقة ولكننا استطعنا أن نعرفه وسوف نضعه هنا من أجل استكمال معلومة ناقصة) فاطمة الطنجي ..

تاريخ الميلاد : ٤ من مايو عام ١٩٠٤ ..

جهة الميلاد : طماي الزهارة ..

تحريرا في : ١٩٠٥/٣/٤ ..

وحتى لا نغفل ذكر أى صاحب فضل في العثور على هذه الشهادة .. فقد عثرنا عليها في متحف أم كلثوم الذى أقيم بأسمها في مدينة السنبلاوين - محافظة الدقهلية ..

★ ★ ★

وحين نترك وسط الدلتا .. أرض البطولات والانتصارات التاريخية في العصور الوسطى ، مدينة المنصورة التى شاء الله أن تكون آخر معاقل هزيمة قوم الفرنجة وأسر ملكهم لويس التاسع ، كى نتجه في الطريق المعاكس إلى مدينة أخرى شهدت أيضا أحداثا تاريخية عظيمة وعديدة .. كان آخرها أيام الصمود ضد قوات الاحتلال البريطانى منذ أكثر من مائة عام .. إنها مدينة الاسكندرية .. من أجل المزيد من البحث عن شهادة ميلاد الطفل الزعيم جمال عبد الناصر ..

هناك في مكتب سجل مدنى الرمل بمدينة الاسكندرية .. عثرنا على المطلوب .. إنها شهادة ميلاد جمال عبد الناصر التى تقول بياناتها :

اسم المولود بالكامل : جمال عبد الناصر حسين ..

اسم الأب : عبد الناصر حسين ..

اسم الأم : (وأيضاً لم نجد أسم الأم بشهادة الميلاد .. وقد بحثنا طويلاً عنه .. وأخيراً عثرنا عليه) .. فاطمة محمد حماد ..

تاريخ الميلاد : ١٥ يناير عام ١٩١٨ ..

جهة الميلاد : الاسكندرية ..

تحريراً في : ٢٠ يناير ١٩١٨ ..

وهكذا كان لزاماً علينا أن نبدأ الطريق من علامات مضيق به .. حتى لا نضل .. وكان دافعنا إلى ذلك أن تكون سيرة الزعيمان ماثلة أمامنا بكل تفاصيلها . دون أن نترك صغيرة أو كبيرة ، لم نوردها أو نذكرها ، لو كلفنا ذلك المشاق والصعاب .. إذن لم أكن مغالياً حين ذكرت من لحظات أننا بعثورنا على هذه الأوراق الرسمية .. وكأنما قد عثرنا على كنز سليمان .. بل وأكثر ..

● لحظة ميلاد فنانة :

ذكرنا في البداية أننا قد نضطر في الكثير من الأحوال أن نبدأ حديث هذا الكتاب بالزعيم الأولى .. زعيمة الطرب والفن المصري والعربي .. أم كلثوم ولم نوضح السبب .. لكننا الآن .. لا بد من القول أن دافعنا إلى ذلك هو الترتيب الزمني من حيث المولد .. فقد عرفنا أن أم كلثوم قد ولدت قبل جمال عبد الناصر بأربعة عشر عاماً .. وبالتالي سيكون الحديث عنها أولاً .. ثم نعقب ذلك بحديث عبد الناصر .. هذا التنويه رأيت من واجبي الإفصاح عنه ، حتى لا يكون هذا الحديث عرضة لنقد أو هجوم .. لأننا نعلم جميعاً مدى قيمة وعظمة جمال عبد الناصر في المجال السياسي .. كفائد ثورة يوليو وأشياء وصفات كثيرة قلناها عنه وسوف نذكرها أكثر .. ولكن حين نتحدث بالانصاف .. نجد أن أم كلثوم أيضاً .. زعيمة عظيمة .. لها نفس ما لجمال عبد الناصر .. مع فارق المجال والتخصص ، ولكن في النهاية كل منهما زعيم ..

★ ★ ★

الآن نقف على أبواب قرية طماى الزهايرة .. كى نشهد ميلاد هذه الطفلة
الفنانة ، التى أعطت للناس من عمرها وفنها أكثر من ستين عاما من العطاء والحب
والآهات .. واسألوا أيام وليالى الخميس من كل شهر ..

وخلال رحلة بحثنا الطويلة عن كلمات تصلح لتصوير هذا المشهد الذى انتظره
الملايين خارج القرية ، لم نجد سوى كلمات المهندس محمد الدسوق ابن أخت الفنانة أم
كلثوم .. الذى نقل لنا من خلالها مشهدا عظيما لخروج الطفلة أم كلثوم إلى الحياة ..

ولدت كوكب الشرق وسيدة الغناء العربى بقرية « طماى الزهايرة » التى تبعد
حوالى ٢ كيلو متر عن مركز السنبلادين بمحافظة الدقهلية .. أبوها الشيخ إبراهيم السيد
البلتاچى ، منشد القصائد والتواشيح الدينية ، ومؤذن مسجد القرية ..

والدتها السيدة فاطمة المليجي ، وكثيرا ما كان الوالد وزوجته يجلسان إلى أم كلثوم
فى طفولتها يحدثانها عن الأحداث التى جرت يوم مولدها ..

ويقول أهالى القرية الذين عاشوا هذه الليلة ، وشهدوا مع أسرة الشيخ إبراهيم
وقائعها .. أنه كماداته فى مثل هذه الليلة ، يعتكف فى الجامع بعد صلاة العشاء كى يخلوا
إلى ربه متعبدا ، وقارئا للقرآن الكريم حتى مطلع الفجر .. فقد كانت الليلة هى ليلة
السابع والعشرين من رمضان المعروفة بليلة القدر ..

فى تلك الليلة تخلص الشيخ إبراهيم من كل هموم الدنيا ، وصفت روحه لمولاه إذ نسى
أنه قد ترك فى منزله زوجته تعاني من آلام الوضع .. وقبل الفجر بقليل أخذته « سنة »
من النوم ، دون أن يشعر ، فرأى فى المنام سيدة ترتدى الملابس البيضاء .. تقدمت
منه ، مدت يدها إليه بلقافة خضراء .. فراجع فى بادئ الأمر من تناولها ، فلما أصرت
وألحت عليه .. أخذها ، فوجد بداخلها شيئا له يريق يشبه لمبة « البطارية » ..

وتملك الخوف الشيخ إبراهيم البلتاچى ، وسأل السيدة ذات الوشاح الأبيض .. عمن
تكون ، وما سر هذا الشيء الموجود فى اللقافة ؟ ..

أجابت : أنها جوهره .. وستكون « وش السعد » .. وهمت ذات الوشاح الأبيض

بالانصراف .. فألح الشيخ إبراهيم من أجل أن يعرف من هى هذه السيدة ذات الوشاح الأبيض .. وأمام إصراره على معرفة شخصيتها .. أفصحت له بقولها : أنها أم كلثوم ابنة النبى محمد صلى الله عليه وسلم .. عندئذ اختفت من أمامه ، فاستيقظ بعدها مباشرة على دقات باب الجامع ، فلما فتح الباب وجد نفسه أمام أخيه الشيخ « عبد النبى أبو السيد » الذى أنبأه بقدم مولودة صغيرة وجميلة .. عندئذ لم تحدر الدموع من وجه الشيخ إبراهيم وتذكر الحلم الذى عاشه منذ لحظات ، وأصر على عدم الرجوع إلى المنزل إلا بعد صلاة الفجر ، حيث صعد إلى المأذنه ..

ويقول الذين سمعوه يؤذن هذه الليلة .. « إن صوته كان أحلى من الكروان »..

وبعد الصلاة جلس الشيخ إبراهيم والد الطفلة المولودة .. يقرأ القرآن بين المصلين كعادته .. ولما طال غيابه بالمسجد ، انطلق إليه أخوه الثانى « الشيخ على » من أبيه ، حيث اعتقد أن الشيخ إبراهيم يرفض العودة إلى منزله فور علمه بالمولودة الأنثى وأن أخيه الشيخ عبد النبى يحاول إقناعه ولكن ما حدث أن الشيخ إبراهيم حين مال على أخيه وأفهمه بضرورة الاسراع .. فض القرآن واستأذن المصلين .. وهو على الباب .. سمع أخيه الشيخ على يعتب عليه .. ظنا من زوجته أم خالد « والدة أم كلثوم » أنه يرفض الرجوع إلى المنزل لأن المولود أنثى وليس ذكراً ..

وهو فى الطريق حكى لهما قصة الرؤيا ، فسمعها أهل القرية المصاحبين له حين علموا بأمر المولودة ، وأخذوا يحكونها طويلا حتى أصبحت إحدى حواديت القرية التى تروى فى كل ليلة .. ومن يومها .. اختار الشيخ إبراهيم لمولودته الصغيرة اسم « أم كلثوم » .. وبالفعل كانت بداية السعادة له .. فمند مولدها وكنوز الدنيا فتحت بين يديه ، حيث ذاع صيته كمقرئ ، ومنشد خلال العام الأول والثانى من مولد أم كلثوم .. وازداد إirاده حتى أصبح فى مقدوره أن يبنى بيتا ملكا له بشارع « دابر الناحية » بالقرية .. ويعيش فيه مع أسرته الصغيرة .. وولديه خالد وأم كلثوم .. وازداد تعلق الشيخ بالطفلة الوليدة ..

وهى فى سن الخامسة من عمرها اكتشفت أمها موهبتها الصغيرة الوليدة .. حيث

كانت أم كلثوم تحفظ بعض التواشيح التي كان يرددها والدها الشيخ إبراهيم وأخبرت الأم زوجها بموهبة الطفلة حيث طلب منها تشجيعها على الاستمرار ..

و ذات يوم .. تسلل الشيخ إبراهيم إلى منزله .. وأختبأ في مكان قريب ، وشاءت الظروف أن يكون مكان إختبائه قريب من وجود الطفلة التي وقفت تقلده بالصوت والحركة ، وهي تردد بعض أجزاء من التواشيح التي حفظتها عنه .. عندئذ أحس الوالد أن في صوت طفلته شيئاً جديداً ، لم يتعوده ، فيه عذوبة .. وحلاوة .. وكان ذلك إيذاناً بمولد كوكب الشرق « أم كلثوم » .. وهي ما تزال طفلة صغيرة^(١) ..

● حين ولد الشاعر الصغير :

بداية نسجل ملحوظة لا بد من ذكرها .. تتعلق بوصفنا الروائي لميلاد أى من الزعيمين .. جمال عبد الناصر أو أم كلثوم .. لأن نقلنا لهذا الوصف قد تم بعد الاطلاع على أكثر من مصدر .. وختار الأقرب في التصوير .. وعادة ما نلجأ إلى أصدق الروايات .. لأن كل ما يقال عن لحظة الميلاد هي كلمات منقولة أو متخيلة .. فمن منا يتصور مثلاً أنه يستطيع أن ينقل الوصف التفصيلي للميلاد حتى ولو كان هذا الوصف لابنك أو ابني .. ولك .. ماهناك أنها حكايات تروى عن سماع من هنا وهناك .. ولكنها على أية حال طريقة طيبة تنقل لنا إحساس الأهل والأصدقاء والمقربين ومدى سعادتهم وفرحتهم بإستقبال المولود الجديد ..

وها نحن أمام ميلاد الزعيم جمال عبد الناصر .. بحثنا طويلاً عن وصف جيد للحظة الميلاد .. وبالفعل لم نجدها إلا عند الكاتب عبد المنعم شمس الذي وصف لنا ميلاد جمال عبد الناصر في كتابه « جمال عبد الناصر » بقوله : « ولد .. ولسد » ..

ثم أشرقت ابتسامة حلوة على شفתי السيد عبد الناصر ، وخرج من الغرفة يردد كلمة واحدة ..

— الحمد لله .. الحمد لله ..

(١) المذكرات الخاصة لأم كلثوم .. المهندس محمد الدسوقي (نشرت بجريدة الجمهورية فى حلقات ابتداء من

.. ١٩٧٠/١/١

وتلقاه أصحابه بالتهنئة على ما رزقه الله من ولد ، فجلس بينهم هادئا وادعا يردد آيات الله ، ثم امتد بروحه إلى عالم علوى شفاف يرى فيه نورانية مشرقة ، ويصير خلالها ألوانا من الجمال ، وأطيافا من الرحمة ، ولم يلبث الرجل أن اتخذ له مكانا في الغرفة بسط فيه سجاداته للصلاة ، وصلى لربه شاكرا مامتعه به من ولد هو قرعة عينه ، وبعد أن فرغ من صلاته قال لبعض أهله وأصحابه :

– هل وجدتم إسما للوليد ؟..

وانطلقت شفاههم بأسماء مختلفة ، لعل السيد عبد الناصر قد سمع بعضا منهم ، ولعله لم يسمعها ، فقد عاد إلى زوجته حانيا عطوفا ، وجعل يتأمل ولده في حب يشد قلبه إليه ويتقرب بنفسه عنه ، ثم قال للأم :

– سوف اسميه « جمالا » ..

وقالت الأم في حنو شديد وتساؤل :

– جمال .. جمال .. !!!؟ .

فقال الأب :

نعم جمال .. والجمال صفة من صفات الله ، وما أحسب هذا الوليد إلا نعمة من نعم الله جلّت قدرته ..

ومنذ تلك اللحظة فتح القدر أبوابه للطفل الوليد جمال عبد الناصر حسين .. وكان القدر واقفا في ذلك اليوم الخامس عشر من شهر يناير عام ١٩١٨ على أبواب مدينة الاسكندرية يستقبل نسمة جديدة يفتح لها أبواب الحياة ..

كان جمال في تلك اللحظات يتسم في وجه والدته ، وكانت هي تنظر إليه في لطف وعطف ، ولم يلبث القدر أن أمسك حياة هذا الطفل بكلتا يديه وجذب خيوطها جذبا شديدا ، وكأنه يريد أن يقترب بصاحبها إلى الشاطئ الناثر ذى الأمواج المتلاطمة ، ثم هبت عواصف شديدة زادت القدر تمسكا بخيوط هذه الحياة الجديدة التي انبعثت في طفل ولد لرجل من الشعب .. وكانت خيوط هذه الحياة الجديدة التي انبعثت في هذا الطفل عجيبة وغريبة تمتد إلى بعيد في أقصى الصعيد ، حيث نشأت أسرة السيد عبد الناصر حسين في بلدة بنى مر من مركز أسيوط ..

ثم انتقل الوالد إلى الاسكندرية بحكم عمله الرسمى ، كى ينجب ولده البكر فى المكان الذى بدأت قدم الاحتلال البريطانى آنذاك ترسو فيه .. ومضت حياة هذه الأسرة المصرية ، كما تمضى حياة عشرات الأسر من طبقات الشعب فى عناء وعسر ويسر ومشقة .. ولم تكد شهور تمضى على حياة جمال عبد الناصر الطفل حتى اندلعت نيران الثورة فى كل مكان .. وهب الشعب المصرى يطلب حقه فى الحياة وكانت طلقات المدافع والرشاشات هى الصوت الذى تعودہ أطفال جيل جمال عبد الناصر فى ظل ثورة ١٩١٩^(١) .

وقد أنجب عبد الناصر حسين ولده الأول جمال عبد الناصر بعد زواجه بعام واحد .. حيث تزوج من السيدة فاطمة ابنة تاجر الفحم محمد حماد عام ١٩١٧ فى الاسكندرية .. وكان يعمل موظفا بالبريد .. وكانت طبيعة عمله تتطلب أن ينتقل الأب وعائلته بين ربوع مصر .. وفى عام ١٩٢١ أى بعد ثلاث سنوات من ميلاد جمال ، وصل عبد الناصر مع عائلته إلى قرية مصرية بالقرب من السويس ، ثم إلى قرية الخطاطبة التى تبعد ٤٠ كيلو مترا عن القاهرة ثم إلى دمنهور والأسكندرية وأخيراً إلى القاهرة^(٢) ..

وظل جمال ينتقل من مدرسة إلى أخرى كلما انتقل أبوه إلى مدينة أو قرية .. ويذكر التاريخ أن آخر مدرسة أولية التحق بها كانت فى بلدة الخطاطبة حيث كان والده يعمل مديراً لمكتب البريد هناك .. ثم بدأ دراسته الابتدائية فى مدرسة النحاسين فى القاهرة ..

* * *

● أوجه التشابه والاختلاف :

حين نتحدث عن عظيم أو كريم أو زعيم .. وندخله فى حساب المقارنات بين الآخرين .. نتوقف .. ينبض القلب خوفاً .. فلا مجال هنا للمقارنة .. ولكن حين نتصدى لحديث الزعامة بالمقارنة بزعيم آخر .. يحق لنا أن نتوقف .. وأن نجسبها بالكلمة ، بل وبالحرَف .. فالمقارنة قائمة ومطلوبة .. وما دما قد اتفقنا منذ بداية اللقاء

(١) جمال عبد الناصر - عبد المنعم شمس ..

(٢) ثورة الضباط الأحرار فى مصر - تأليف كوهنوفيتش .. - مؤلف روسى

على وجود زعيمين هنا بين أوراق هذا الكتاب .. ولا حديث لنا عن غيرهما .. فقد آثرت أن أسوق بعض أوجه الاختلاف والشبه بين أم كلثوم وعبد الناصر ..

هذه الملامح والأوجه جمعنا خيوطها من واقع تتبعنا للسيرة الذاتية لكل من الزعيمين .. أملاً في الوصول إلى سمات مشتركة بينهما .. وكثيراً من الزعماء ما يتشابهون ليس في الشكل وفي الأعمال وإنما في التكوين .. إن بداية الحديث ستكون هذه المرة بجمال عبد الناصر .. ذلك الفتى الصعبدى الذى ينحدر من عائلة اشتغل أغلب أفرادها بالفلاحة هناك في صعيد مصر .. حيث محافظة أسيوط .. وقرية بنى مر ، تلك القرية التى تعد مسقط رأس أسرة وعائلة جمال عبد الناصر ..

وإذا كان جمال عبد الناصر قد امتدت جذوره هناك في أقاصى الصعيد .. وولد في مدينة ساحلية هى مدينة الاسكندرية التى شهدت العديد من الأحداث التاريخية المصرية ، فإن أم كلثوم الشابة الفلاحة التى نشأت في أسرة يعمل عائلتها منشداً ومقرناً دينياً .. قد ولدت هى الأخرى بالقرب من مدينة شهدت أعنف معارك العصور الوسطى ، حيث حرب الصليبيين .. إنها مدينة المنصورة التى من الصعب تحديد الأماكن التى جرت فيها معارك زمان .. فربما تكون قد اقتربت هذه المعارك أو بعدت عن مدينة السنبلوين وقرية « طماى الزهراية » ..

وكل من عبد الناصر وأم كلثوم قد نشأ في أسرة متوسطة الحال .. فكما عرفنا أن والد أم كلثوم الشيخ إبراهيم البلتاجى كان يعمل منشداً دينياً وخادم مسجد القرية .. وكان مصدر رزقه ينحصر في هذا العمل .. ولم يكن يملك من حطام الدنيا كما يقولون سوى المنزل الذى استطاع أن يقيمه في حى « دابر الناحية » بالقرية .. أما جمال عبد الناصر فإن والده ، وكما نعرف جميعاً كان يعمل في هيئة البريد .. موزع خطابات ثم مديراً لإحدى مكاتب البريد .. وكان لا يملك سوى راتبه الشهري الذى كاد أن يكفى تكاليف معيشة أولاده ..

وحين ندقق في أوجه الشبه والاختلاف الأخرى لا ننسى أبداً .. التكوين العضوى لكل من الزعيمين .. فإذا كان جمال عبد الناصر قد ولد ذكراً واستبشر والده خيراً بقدمه .. فإن أم كلثوم ولدت أنثى ، وأيضاً كانت بشير خير لوالدها الشيخ إبراهيم .. وإذا كان والد جمال قد اختار إحدى صفات الله كى تكون اسماً لابنه .. فإن الشيخ

إبراهيم البلتاجي ، قد اختار لابنته أحد أسماء بنات النبي صلى الله عليه وسلم وهي السيدة أم كلثوم ..

أما من حيث التكوين العام والتكوين الفسيولوجي للجسم .. يتضح من النظرة الأولى ، أن كل من الزعيمين على درجة كبيرة من الشبه وحاول أن تنظر في صورة كل منهما ، تجد الطول الفارع والوجه الممتلئ .. والصوت الجميل وكلها مظاهر نستطيع ملاحظتها دون اللجوء إلى المعامل والمقاييس الطبية .. هذه الصفات التي قد تكون مشتركة نشأت لدى الطفلين ، رغم تباعد أماكن المولد لكل منهما ، فهناك مسافة طويلة تعد بمئات الكيلومترات بين محافظة الدقهلية في قلب الدلتا .. ومحافظة الاسكندرية على الساحل الشمالى ..

وكما سبق واتضح لنا أن جمال عبد الناصر ، وأم كلثوم قد تنسما رياح الثورة والكفاح .. رغم أن هذه الرياح لم تؤثر إيجابيا في حياة أم كلثوم ، ولم يكن لها رد فعل عملي في حياتها ، وإن كان هناك تأثير واضح على حياتها في إحدى الفترات ، ونعرف ذلك من خلال تتبعنا للقصاصد الوطنية العديدة التي غنتها .. أما بالنسبة لجمال عبد الناصر .. فإن الأمر قد يختلف كثيرا حيث عاش جمال عبد الناصر حياة الكفاح ، وعرف بها ، وتأثر من خلالها .. فقد ولد قبل ثورة عام ١٩١٩ بشهور قليلة ، وظل ينتقل مع والده في محافظات مصر التي شهدت العديد من حركات الكفاح ضد الاستعمار بكافة أنواعه سواء المتمثل في أولاد وأسرة محمد علي ، أو في هموم الاحتلال الإنجليزي ..

ولا نريد أن نؤكد على تأثير أم كلثوم بالجو العام من الكفاح ، الذي عاشت بجواره في مدينة المنصورة .. حيث لم يتضح ذلك التأثير إلا مؤخراً حين لجأت إلى غناء بعض القصائد التي تتغنى بمصر ومحبة مصر ، وكأنما كان كل منهما في ذلك الوقت ، يبحث عن الآخر حتى يحدث التكامل بين الثورة والعنف الذي يتمثل في إرادة جمال عبد الناصر ، وكان كفاح الشعب المصرى هو محركه الأول نحو قيادة الثورة .. وبين أم كلثوم .. سيدة الغناء العربى التي كانت تمثل الروح والطرب والوطنية وكلمات « مصر التى فى خاطرى وفى دمي » .. و « طوف وشوف » .. و « يا جمال يا مثال الوطنية » ..

وهناك جانب آخر من جوانب التشابه والاختلاف .. يتمثل في المسيرة التعليمية

لكل من الزعيمين .. فإذا كان جمال عبد الناصر قد استطاع أن يواصل حياة الكفاح وهو طفلا وشابا .. تلميذا في المدرسة الابتدائية والثانوية ثم الجامعة حيث التحق بكلية الحقوق وتركها إلى الجيش .. فإن أم كلثوم لم تواصل تعليمها واكتفت بما حصلت عليه من علوم القرآن في كتاب القرية ، إذ تمكنت من حفظ القرآن الكريم .. ثم واصلت رحلة كفاح الطرب مع والدها محبوب قرى ونجوع ومدن مصر من أقصاها إلى أقصاها ..

وربما كان دافعها إلى ذلك لقمة العيش .. ثم الموهبة وقلة ذات اليد وهو ماتغلب عليه السيد عبد الناصر حسين ، حيث كان همه الأول هو تعليم الابن .. وربما كان لديه الإحساس بضرورة أن يخرج هذا الطفل إلى الدنيا قائدا يحمل العلم في ذهنه والثورة في قلبه .. مما أدى إلى أن يحرص على تعليم ابنه جمال حتى آخر مراحل التعليم .. ولم يمانع أبدا في تحقيق رغبة الابن حين عرف برغبته في الالتحاق بالكلية الحربية ، التي فشل في الالتحاق بها من أول مرة .. ثم نجح مرة ثانية ..

ولانسى ونحن نعقد هذه المقارنة .. القول بأن الزعيمين كان موعد لقاءهما هنا في القاهرة .. تلك المدينة العظيمة التي يطلق عليها أبناء مصر جميعا .. لفظ « مصر » ، هنا في مصر يلتقى عبد الناصر ، وأم كلثوم دون أن يكون بينهما موعد سابق للقاء ..

لقد جاءت أم كلثوم القاهرة عام ١٩٢٥ ، تبحث عن حياة جديدة في عالم الطرب والغناء ، بينما جاءها جمال عبد الناصر طالبا العلم والمعرفة عام ١٩٣٣ .. وقد ألتقيا في عام ١٩٤٨ في فيلا أم كلثوم .. دون أن يعرف أحدهما الآخر لقاء حب وإعجاب من جانب جمال عبد الناصر أحد « سميرة » أم كلثوم .. مثل غيره من ملايين المصريين آنذاك الذين كانوا ينتظرون بفارغ الصبر ليلة الخميس من كل شهر .. ربما لم يكن الشاب جمال وحده .. بل قد يكون مشاركا له في هذا الحب أبوه السيد - عبد الناصر .. وبقية أفراد أسرته وعائلته .. المهم حدث اللقاء وحضر عبد الناصر أول حفلة خاصة غنت فيها كوكب الشرق للضباط المصريين العائدين من حصار الفولوجا ..

هل حدث بينهما لقاء روى أو تعارف خفى ؟.. ربما .. وهل عرف بدوام هذا اللقاء بعد هذه الحفلة بأكثر من أربع سنوات ؟.. ربما .. وهل كان كل منهما يتخيل في تلك اللحظة أنهما سيكونا زعيما وسيكون بينهما لقاءات وتعارف وحياة مشتركة .. ربما ؟. إن الزمان قد أكد صدق هذه الأحاسيس .. وألتقت أم كلثوم بجمال عبد الناصر

قائد ثورة يوليو .. ودام اللقاء حتى الموت الذى فرق بينهما .. فقد رحل عبد الناصر أولا .. رغم أنه ولد قبل أم كلثوم التى لحقت به بعد خمس سنوات ..

* * *

● تواريخ فى حياة الزعيمين :

علينا منذ هذه اللحظة أن نتظر استكمال قصة حياة .. بدأت وانتهت نعرف بعضها ونجهل البعض الآخر .. المهم أن نلقى بأنفسنا فى أحضان الأوراق من أجل التعرف على قصة حياة أم كلثوم وعبد الناصر واستجلاء بقية أوجه التشابه والاختلاف وحتما سوف نتوقف ولكن أين وكيف ؟.. أسألو القلم الذى يكتب بطريقة لم أعهد لها فيه من قبل .. وحتما لسيرة الزعماء طعم خاص .. إن لأم كلثوم ، وعبد الناصر قصص وحكايات بدأت هناك فى أحضان الريف والبحر الأعظم .. واستكملت هنا فى القاهرة ، ولم يكن موعد اللقاء معروفا لأحدهما ..

وقبل أن تصل معنا أم كلثوم إلى القاهرة علينا أن نصحبها من هناك من خلف عيdan الذرة وسنابل القمح الصفراء .. ونركب معها آلة الزمن .. ثم تركها تحكى بقية المشوار :

كان الشيخ البلتاجى قد اعتاد اصطحاب ابنه البكر خالد إلى الاحتفالات الدينية لصوته العذب .. وكان الابن خالد هو عالم الشيخ ابراهيم البلتاجى الصغير ، لكن هذا العالم سرعان ما اتسع حين إستمع الأب إلى صوت أم كلثوم ولم يكن الصوت وحده هو اللافت للأنظار .. بل كانت هناك أيضا القدرة على الإنشاد ⁽¹⁾.

وتحكى لنا أم كلثوم فى مذكراتها بداية موافقة والدها الشيخ ابراهيم على اصطحابها معه إلى الأفراح والموائد حيث تقول : بعد أن سمع والدى صوتى خلصة وأنا فى هذه السن الصغيرة ، وبعد أن أصابنى الخوف من هول الموقف .. فوجئت به يقول لى :- أنا عايز أقولك يا أم كلثوم .. خليك على طول وقلدينى فى كل وقت وأنا النهارده

(1) Oum Kalsoum - ysabelsaiah.

بعد ما سمعتك راح أحفظك التواشيح والقصائد كلها .. وحاخدك معايا الموالد والليالي ..

ومنذ ذلك اليوم اتجه نظر الشيخ ابراهيم واهتمامه إلى ابنته أم كلثوم ، ففي بداية الأسبوع أخذها إلى كتاب الشيخ عبد العزيز بالقرية ، كي تتعلم القراءة والكتابة وكانت تذهب يوميا مع أخيها خالد الذي كان قد سبقها إلى الكتاب منذ ثلاثة شهور .

وفي فترة قصيرة .. كانت الطفلة أم كلثوم تقرأ وتكتب ، فأثارت لانتباه الشيخ عبد العزيز « شيخ الكتاب » فازداد اهتمامه بها ورعايته لها خاصة وأنها ابنة « الشيخ إبراهيم » صديق عمره .. ولم يطل الوقت بالشيخ عبد العزيز حتى توفي ، قبل أن تحفظ أم كلثوم جزء عم من القرآن الكريم ..

لقد حزنّت أم كلثوم حزنا شديدا على وفاة هذا الشيخ الجليل وتقول على لسانها :
- « حزنّت حزنا شديدا على سيدنا الشيخ .. بكيت كواحدة من أهله ، فكرت أن مافيش سيدنا تاني غيره في الدنيا وأننى لم أكمل المشوار .. وقعدنا أياما في البيت حتى دبر لنا والدى كتاب آخر في بلد مجاورة لنا أسمها « عزبة الحوال » كنت بأمشي أنا وأخويا خالد حوالى ثلاثة كيلو .. وفي ثلاثة سنوات وشهور حفظت أغلب أجزاء المصحف الشريف .. كان عمرى في الوقت ده ثمانى سنوات ونصف^(١) » ..

ولا شك أنه كان عملا من أعمال الجرأة .. لقد كانت أم كلثوم لم تتجاوز السادسة من عمرها عندما اصططحبها والدها إلى بيت العمدة كى تنشد للجمع المحتشد هناك .. وكان الشيخ البلتاجى غير واثق من النتيجة .. ولكنه كان يعرفها مسبقا حين اصططحب ابنته أم كلثوم إلى بيت يوسف بك صديق عمدة السنبلوين .. وهناك حصلت أم كلثوم على أجرها ، عشرة قروش وسرعان ما تضاعفت إلى جنيه كامل ..

ولم تكن أم كلثوم قد إلتقت بعد بالفونوغراف .. لكنها كانت قد التقت بمئات المستمعين الذين هتفوا إعجابا لها وبها .. للدرجة أن عمدة السنبلوين عرض عليها الزواج و ٥٠ فدانا على أن تترك الغناء فرفضت ، لعلها كانت الموهبة المتأصلة أو

(١) المذكرات الخاصة لأم كلثوم - المصدر السابق ..

الاحساس بالقدرة ، أو لعله كان الشيخ أبو العلا محمد وزياد زكريا أحمد اللذان أعطياها دفعة قوية للأمام عندما استمعا إليها وطلبا إليها الحضور إلى القاهرة^(١) ..

لقد تعرف الشيخ زكريا أحمد ، على أم كلثوم في عام ١٩١٩ وهي لا تزال طفلة ، عندما كان يحى شهر رمضان عند على أفندى أبو العينين في مدينة السنبلاوين .. ولاحظ الشيخ زكريا .. خلال ليالى الشهر أن هناك آنسة صغيرة تنصت إليه باهتمام شديد وتسمعه بشغف وحين سأل عنها قالوا له أنها الفتاة أم كلثوم ابنة الشيخ إبراهيم البلتاجي .. وفي نفس العام التقى الشيخ زكريا أحمد بالآنسة أم كلثوم في منزلها حيث استمع إلى صوتها .. وانتهت الزيارة بأن لحن لها الشيخ زكريا قطعة غنائية مقابل العزومة .. من هذا اليوم توطدت المعرفة بين الشيخ زكريا وبين أم كلثوم ..

وفي عام ١٩٢٣ ، عرفت القاهرة الفتاة الريفية أم كلثوم ، بعد أن غطت شهرتها أقاليم الوجه البحرى كله .. حتى أن أحد أصدقاء الوجه « عز الدين يكن بك » قد أشار عليه بإحضارها لإحياء ليلة في قصره بخلوان .. وكانت تلك هى الفرصة التى تنتظرها أم كلثوم .. حيث كانت تريد الغناء في مصر في حفلة كبيرة يحضرها الأعيان والأكابر ...

وعلى الفور ألغت أم كلثوم اتفاقا لإحياء أحد الأفراح بمدينة المنصورة كما رفضت تحديد أجرها مقابل السفر إلى القاهرة .. وهناك على باب المحطة كان ينتظرها حنطور البية .. وبمجرد أن وصلت القصر ورآها عز الدين وعائلته في هذا الزى البسيط حتى ثار في وجه أصدقاءه ورفض أن تغنى هذه الليلة .. وفشلت كل المحاولات .. وكانت هذه أولى زياراتها إلى القاهرة .. وعادت أم كلثوم إلى قريتها من جديد « طماى الزهايرة » إلا أن الشيخ أبو العلا محمد لم يتركها ، بل سعى ليوقع عقداً باسمها .. وفي هذا الوقت كان سعد زغول قد عاد من المنفى وكانت أم كلثوم تعشق الزعيم سعد زغول من خلال أغاني سيد درويش التى كانت ترددها ..

وفي مطلع عام ١٩٢٤ يعود الشاعر الشاب أحمد رامى من باريس .. وعند وصوله سمع بقصة هذه المطربة الجديدة التى انتارت رؤوس الجميع في مسرح

(١) المصدر السابق باللغة الفرنسية ..

البوسفور .. وتم التعارف بينهما ، وطلبت منه كتابة بعض القصائد من تأليفه لكى تغنيها
في حفلاتها العامة ..

وفي عام ١٩٢٦ واللقاء الثانى هنا فى القاهرة .. كانت المدينة عندما بدأنا نستقر
فيها كالمرج .. كل شئ نكتشفه لأول مرة .. فى الريف كان صاحب الفرح يأتى إلينا
مباشرة - إلى أوى - للاتفاق على الغناء .. ولكنه فى القاهرة لابد من وجود متعهد
حفلات^(١) ..

وفي عام ١٩٢٩ ارتدت أم كلثوم للمرة الأولى ثيابا عصرية أمام الجمهور ، وكانت
تغنى بمصاحبة فرقة صغيرة كونها محمد القصبجى .. وقد أصيبت لحظة بتوتر أمسكت
على أثره بمنديل صار فيما بعد عادة ملازمة لها ..

فى تلك الآونة ظهر المطرب الشاب محمد عبد الوهاب ، وتآلق فى فرقة « منيرة
المهدية » .. وعرفت أم كلثوم معنى المنافسة ، ولعبت الصحافة آنذاك دوراً خطيراً فى
إشعال هذه المنافسة ..

وفي عام ١٩٣٢ ، عقد المؤتمر الأول للموسيقى العربية ، وكانت أم كلثوم هى نجمة
الموجة الجديدة ، والتي مصرت الأغنية فى مصر بعد أن كانت تركية خالصة ..

وكانت السينما بانتظارها عندما طلب إليها المخرج محمد كريم بعد نجاح فيلم « زينب »
أن تشارك عبد الوهاب بطولة فيلم « الوردة البيضاء » فرفضت لأنها قصة تدور حول
رجل .. ولا يبرز دور المرأة فيها ..

فى نفس الوقت بدأ اهتمام أم كلثوم بالإذاعة ، وكانت محطة مصر الإذاعية فى سبيلها
إلى بدء إرسالها ، وعن طريق الإذاعة تحولت أم كلثوم إلى موضوع يومي تماماً مثل
السياسة والسلطة .. فعدت بهجة أحاديث تلك الأيام ..

وعندما صارت نجمة ، قرر والدها الخروج من حياة الضجيج إلى سكoon قرية طماى
الزهايرة من جديد ..

وفي عام ١٩٣٦ طلب المخرج الألماني فويتز كرامب إلى أم كلثوم أن تكون بطلة فيلم

(١) أم كلثوم التى لا يعرفها أحد .. تأليف محمود عوض .

« وداد » عن قصة لأحمد رامى كتبها أثناء وجوده فى فرنسا ..

وفى ابريل ١٩٣٦ صعد الملك فاروق إلى عرش مصر ، وصعد معه حلم مصر فى التغيير وغنت أم كلثوم تحية له ..

وجاءت الأربعينات لتحمل الأحزان إلى قلب أم كلثوم حيث أصاب عنها مرض بسبب بكائها المستمر والتكرار على رحيل أمها .. عندئذ توقفت أم كلثوم عن الغناء ، ولم تجد لها صديقا تثق به سوى الشاعر أحمد رامى الذى كانت تتصل به فى اليوم عشرات المرات ..

وارتدت أم كلثوم النظارة السوداء الشهيرة ، وفى أمريكا اكتشفوا أنها مصابة بالغدة الدرقية ، وكان لابد من إجراء جراحة فى مكان قريب من الحنجرة ، ولكن الأمور انتهت إلى خير ، ورجعت إلى مصر بعد شفائها ..

وفى صيف ١٩٥٢ ذهبت أم كلثوم إلى الاسكندرية لتقضى بها أجازة الصيف ، حيث لم تكن تقيم حفلاتها الشهرية خلال الأجازة .. وأثناء وجودها فى الاسكندرية علمت عن طريق الإذاعة أن الضباط الأحرار أعلنوا ثورة يوليو .. وعادت أم كلثوم للقاهرة فوراً لتعاصر أحداث الثورة ، وتعلن تأييدها لها .. وقد كان .. حيث بدأت تعد أم كلثوم أغاني جديدة للثورة ..

وبعد الثورة بشهور عادت أم كلثوم إلى الولايات المتحدة الأمريكية لإجراء فحوص فى عينيها والغدة الدرقية .. وهناك علمت نبأ وفاة أخوها الكبير خالد مما زاد من أحزانها وآلامها .

وفى عام ١٩٥٥ تزوجت من الدكتور حسن الحفناوى أبرز أطباء الأمراض الجلدية ، بعد رجوعها من رحلة علاجها الأخيرة فى الولايات المتحدة الأمريكية ، ويبدو أن هناك خلافاً حول تاريخ زواج أم كلثوم .. حيث تقول الكاتبة الجزائرية « ايزابيل صباح » فى كتابها الذى صدر باللغة الفرنسية بعنوان « أم كلثوم » .. أنها تزوجت فى شهر يونيو عام ١٩٥٣ ، بينما يؤكد الكاتب محمود عوض فى كتابه « أم كلثوم التى لا يعرفها أحد » أن زواجها تم عام ١٩٥٥ ويؤكد ذلك فى قوله ..

- والدكتور حسن الحفناوى من « سميرة » أم كلثوم .. هكذا بدأت علاقتهما ..

مستمع ومطربة . ولكن أم كلثوم كانت تتردد عليه للعلاج في عام ١٩٥٤ علاقة عادية مجرد : طبيب .. ومريض .. وتطورت هذه العلاقة العادية إلى اتفاق عاطفى .. ثم إلى الزواج .. وتم الزواج بعد عودة أم كلثوم من رحلتها إلى أمريكا للعلاج .. في عام ١٩٥٥ ، وقد شاركت أم كلثوم بعد ثورة يوليو في العديد من المناسبات السياسية .. وفي عام ١٩٦٤ ، وتلبية لرغبة جمال عبد الناصر تم تنفيذ عمل مشترك بين أم كلثوم وعبد الوهاب حيث أغنية « أنت عمرى » ..

وهناك كذلك خلاف حول بداية التعاون الفنى بين أم كلثوم وعبد الوهاب .. وهل هذه الأغنية هى بداية التعاون ؟ ويجب على هذا التساؤل أيضا الكاتب محمود عوض .. حيث يقول : ليس صحيحا أن أغنية « أنت عمرى » كانت أول لقاء فنى بين أم كلثوم وعبد الوهاب .. صحيح أن هذه الأغنية قد أذيعت في ٦ مارس عام ١٩٦٤ .. ولكن أم كلثوم وعبد الوهاب قد اشتركا معا في عمل فنى قبل ذلك بـ ٣٧ عاما .. بل أن محمد عبد الوهاب لحن أغنية أخرى غنتها أم كلثوم قبل أغنية « أنت عمرى » بعشرين عاما ..

لقد كان أول لقاء بين المطربة زائعة الصيت أم كلثوم وبين المطرب الشاب محمد عبد الوهاب ، قد تم في منزل والد المهندس أبو بكر خيرت .. لقد كان صاحب المنزل من هواة الموسيقى والغناء ، وكان بيته مقرا دائما لندوات أهل الفن .. وفي إحدى تلك السهرات تصادف وجود أم كلثوم وعبد الوهاب .. وغنيا معا ، غنيا مونولوجا مشهورا وقتها من أوبريت « العشرة الطيبة » التى وضع ألحانها الموسيقار سيد درويش ، وكان المونولوج من تأليف بديع خيرى ..

وفي عام ١٩٤٤ غنت أم كلثوم من تلحين محمد عبد الوهاب ، لقد تمت هذه المحاولة في سهرة ضمت : توفيق الحكيم ، وفكرى أباطة ، وأم كلثوم ، وعبد الوهاب ، وآخرين . بالإضافة إلى الشاعر كامل الشناوى ، الذى كتب كلمات أغنية أبدت أم كلثوم استعدادها من أجل غنائها بشرط أن يلحنها محمد عبد الوهاب .. وبالفعل أمسك عبد الوهاب العود ولحن الكلمات ، التى ظلت أم كلثوم تغنيها للحاضرين .. رغم أن هذه المحاولة لم تخرج أيضا إلى دائرة الضوء ..

وبعد هذه المحاولات .. كانت أم كلثوم تقول : إن عبد الوهاب يكتفى بأن يلحن علي صفحات الجرايد ..

ويقول عبد الوهاب : إننى أعتقد أن أم كلثوم لا تريد أن ألحن لها فلم يكن أيهما
يثق فى الآخر لإنتاج عمل غنائى مشترك ..

★ ★ ★

بدأ عام ١٩٦٥ يحمل لأم كلثوم الأسمى والحزن .. أصيب محمد القصبجى
بشلل ..

وفى يونيو عام ١٩٦٧ .. قامت إسرائيل بالهجوم على مصر .. وكانت أم كلثوم
تتابع مثل كل مصرى وكل عربى الاذاعة لتعرف آخر أخبار القوات المسلحة ، ولكن
بعد ستة أيام عرفت أن مصر قد فقدت الآلاف من رجالها ، وأن الطيران المصرى دمر على
الأرض . عندئذ شعرت أم كلثوم باليأس بعد إحساسها بمرارة هذه الهزيمة ، وفرضت
على نفسها عزلة ، وبدأت تشعر بالمرض والإرهاق وعدم القدرة على الخروج من
منزلها ، وبدأت الصحف تكتب عن مرضها وعزلتها بعد الهزيمة ، لكنها قررت عدم
الاستسلام للمرض واشتركت مع مجموعة من نساء مصر من أجل تقديم خدماتهن
للجنود وأهالى الضحايا . وقد استطاعت أن تجمع حوالى خمسة عشر ألف من الجنينيات
وتقدمها إلى وزارة الشؤون الاجتماعية ، كما قررت أن تقوم بجولة فى العالم العربى من أجل
المجهود الحربى ..

وظلت أم كلثوم فى عطاء دائم .. وفى عام ١٩٧٠ فقدت مصر جمال عبد
الناصر .. ومن بعدها بدأ العد التنازلى لحياة أم كلثوم فى الحياة الفنية والحياة بشكل عام
حتى رحلت عن عالمنا بعد وفاة جمال عبد الناصر بخمس سنوات أى فى عام ١٩٧٥ ..

وكما تتبعنا حياة الزعيم ، والمغنية ورائدة الفن العظيم السيدة كوكب الشرق أم
كلثوم .. وحاولنا أن نجعل من تواريخ فى حياتها محطات نقف فوق أرصفتها كى نستعيد
ذكريات ونسجل لقطات ، قد نعرفها وقد لا نعرفها .. فهكذا حياة الزعماء .. كل يوم
.. علينا أن نسجله ونعرف ماذا حدث فيه .. وإذا ما كنا قد سجلنا حياة أم
كلثوم .. وبدأنا بها حديث هذه التواريخ .. فإننا الآن على عتبات سيرة الزعيم الآخر عبد
ناصر ، نحاول أن نستكشف ما فى حياته من تواريخ لها قيمة ومعنى ، ولا يكون دافعنا
إلى ذلك سوى الرغبة فى تقريب المسافات بين حياة الزعيمين أم كلثوم ، وعبد
ناصر .. وعلى من يقرأ من بعدنا أن يعيش مدلولات هذه التواريخ لأنها خطوات فى

حياة الإنسان .. كل خطوة وكل يوم أو كل شهر أو سنة فيه جديد .. وما علينا من هذه اللحظة إلا أن نسجل فقط ..

★ ★ ★

لم يلبث الطفل جمال أن ألتحق بمدرسة العطارين الابتدائية بالاسكندرية حيث نقل إليها أبوه حديثا .. ثم عاد مرة ثانية إلى مدرسة النحاسين وظل بها حتى نال شهادة إتمام الدراسة الابتدائية^(١) ..

وهذه النقطة كانت محل خلاف بين بعض الكتاب العرب والأجانب حيث يقول الكاتب الروسى « كوفتوفيتش » : لقد ألتحق جمال عبد الناصر بالمدرسة الابتدائية بمدينة أسبوط ، ثم بمدرسة السكك الحديدية عامى ١٩٢٣ - ١٩٢٤ بقرية الخطاطبة .. حيث كان يعمل أبوه .. ثم أرسله والده .. للإقامة بالقاهرة مع عمه خليل حسين .. وهناك ألتحق بمدرسة النحاسين الابتدائية .. وكان جمال عبد الناصر يقضى أجازته المدرسية عادة عند والديه فى الخطاطبة .. وفى عام ١٩٢٦ توفيت والدته .. وكان شديد التعلق بها ، ولم ينقطع عن مراسلتها ..

وكان عم جمال بطبيعة عمله كموظف بوزارة الأوقاف ، يتغيب كثيرا عن القاهرة ، لذا عاد جمال عبد الناصر إلى الاسكندرية للإقامة عند جده لأمه^(٢) ..

وأحسن السيد/ عبد الناصر حسين بكثرة تنقلات ابنه جمال ، فأراد أن يريجه من تكرار الترحال والتنقل معه فى أرجاء البلاد فألحقه بمدرسة حلوان الثانوية بالقسم الداخلى حيث مكث بها عاما واحدا ..

وفى عام ١٩٣٠ التحق بمدرسة رأس التين الثانوية بالاسكندرية .. وفى عام ١٩٣٣ انتقل أبوه للعمل بالقاهرة ، والتحق جمال بمدرسة النهضة التى درس بها ستين .. وفى هذا العام بدأ عبد الناصر يشارك فى المظاهرات ، وبدأ يفاضل بين الأساليب المختلفة للنضال والثورة ..

(١) عبد المنعم شمس - المصدر السابق ..

(٢) ثورة الضباط الأحرار فى مصر - المصدر السابق ..

وقبل أن ينهى دراسته الثانوية كان قد تعرف على الواقع السياسى فى مصر وعلى نشاط الأحزاب آنذاك .. كما ولع أثناء دراسته بالقراءة والمطالعة واستهوته بشكل خاص قراءة التاريخ العربى والإسلامى والصحافة الوطنية العربية .. كما قرأ وهو ما زال تلميذا مؤلفات شكسبير وفولتير وهوجو ..

وفى عام ١٩٣٦ نال جمال عبد الناصر شهادة الدراسة الثانوية فى يونيو من هذا العام من مدرسة النهضة الثانوية .. ورغب جمال عبد الناصر فى الالتحاق بالكلية الحربية ولكن طلبه آنذاك لم يقبل ، فالتحق بكلية الحقوق بجامعة القاهرة فى أكتوبر عام ١٩٣٦ ، ومكث بها خمسة أشهر ، وعلى أثر إعلان الكلية الحربية عن حاجتها إلى طلبة جدد قدم طلبه فقبل مع أربعين طالبا آخرين .. وكان ذلك فى شهر مارس عام ١٩٣٧ .. وكان عمره آنذاك ١٨ سنة ..

ومكث جمال بالكلية الحربية ستة عشر شهرا تخرج بعدها برتبة الملازم ثان فى أول يونيو عام ١٩٣٨ ..

ومما يدل على النبوغ المبكر لميول الثورة داخل نفس عبد الناصر .. تلك الرسائل التى كان يبعث بها لأصدقائه وزملائه معبرا فيها عن الأوضاع السياسية والاجتماعية التى كانت سيطرة آنذاك .. وفى رسالة بعث بها جمال عبد الناصر بتاريخ ٢ ديسمبر عام ١٩٣٥ ، وهو فى سن السابعة عشرة ذكر فيها : أخى على .. خاطبت والدك يوم ٣٠ أغسطس فى التليفون ، وقد سألته عنك فأخبرنى أنك موجود بالمدرسة ، ولذلك عولت على أن أكتب إليك ما كنت سأكلمك فيه تليفونيا ، أن الموقف اليوم دقيق فى مصر ، ونحن فى موقف أدق .. إننا نكاد نودع الحياة ونصافح الموت ، فإن اليأس عظيم الأركان .. فأين من يهدم هذا البناء .. ؟!

ولقد أنهى جمال عبد الناصر دراسته فى الكلية الحربية ، ومنح رتبة ملازم ثان .. وأرسل للخدمة فى فرقة مشاة متعباد التابعة لمديرية أسبوط فى جنوب الصعيد .. ثم نقل إلى الاسكندرية عام ١٩٣٩ ، ثم إلى السودان حيث أمضى هناك سنتان ..

* * *

ان جمال عبد الناصر طوال فترة دراسته هنا وهناك ، لم يكن بعيدا عن أحداث مصر .. فكما سبق وأن ذكرنا أنه قد بدأ ينخرط فى صفوف المتظاهرين ضد الاحتلال

الانجليزى آنذاك .. وفى عام ١٩٣٥ ، أصبح زعيما للطلبة فى مدرسة النهضة فقاد مظهارة خرج فيها طلبة المدرسة بالقاهرة فى نوفمبر من نفس العام ، عقب تصريحات وزير خارجية بريطانيا آنذاك ، والذى كان يعارض فى عودة دستور ١٩٢٣ لمصر ، وأصيب جمال خلال هذه المظهارة التى قامت فيها اثنان من الطلبة حيث تعقبه جندى من البوليس وضربه بعصاه .. وكانت جبهته لا تزال تحمل أثر هذه الإصابة .. ولما سال دمه من أثر الضربة لجأ إلى إحدى دور الصحف هربا واستغاثة ، ونشرت تلك الصحيفة اسمه فى اليوم التالى بين أسماء المكافحين الثائرين .. وكانت هذه أول مرة ينشر فيها اسم جمال عبد الناصر فى الصحف ..

وحين عاد إلى المدرسة علم أنه فصل منها ، فأضرب زملاؤه عن تلقى الدروس تضامنا مع زعيمهم جمال المقصول .. حتى يعود ، فعاد إلى المدرسة ومن يومها صمم جمال على أن يفرغ من دراسته أولا ، ثم يبدأ كفاحه الحقيقى فى سبيل بلده ..

* * *

وحين نعود إلى قصة التواريخ فى حياة جمال عبد الناصر .. نجد أن جمال عبد الناصر وهو فى منقباد فى عام ١٩٣٨ قد تعرف على العديد من زملائه فى الجيش ارتبط بأغلبهم حتى قيام الثورة .. لقد كان فى منقباد يفكر فى المستقبل .. ويبدوا أن مصر آنذاك قد ضاقت بجمال عبد الناصر ، وهو لا يزال فى مطلع حياته العسكرية فأراد أن ينفس عن آلامه بعيد عن الوطن ، فلم تكد إدارة الجيش تعلن عن طلب ضباط يسافرون إلى السودان ، حتى سارع إلى طلب نقله ، فألتحق بالكتيبة المشاة الثالثة فى شهر ديسمبر عام ١٩٣٩ .. وهناك تعرف بصديقه عبد الحكيم عامر .. ومن قبل فى منقباد تعرف على كل من أنور السادات وخالد محيى الدين ..

ومن السودان رحل إلى الصحراء الغربية .. ثم عاد إلى القاهرة مرة أخرى حيث عمل مدرسا بالكلية الحربية فى أوائل عام ١٩٤٢ ، وكان آنذاك قد وصل إلى رتبة اليوزباشى .. ومن الأحداث التاريخية التى عاصرها عبد الناصر آنذاك حادث ٤ فبراير حين حاصرت الدبابات قصر عابدين ، فى هذه الفترة ظلت الثورة تشتد فى داخل جمال عبد الناصر ، حتى أبعدوه عن القاهرة . أرسلوه مع القوة المصرية التى كانت ترأب الموقف الحربى فى منطقة العلمين ، أثناء الحرب العالمية الثانية ..

وعاد جمال إلى الجيش قوياً ظافراً وانصرف إلى دراسته العسكرية العالية في كلية أركان الحرب مع زميله عبد الحكيم عامر .. وتخرج منها يوم ١٢ مايو ١٩٤٨ ، فالتحق بالكتيبة المشاة السادسة بفلسطين في اليوم التالي لتخرجه ..

ومع بداية حرب فلسطين حصل جمال عبد الناصر ، على ترقية ، وأُرسل إلى جبهة القتال .. وهناك أصيب إصابة شديدة في معارك حصار الفالوجا وعراق المنشية ، وبعد هزيمة الجيوش العربية في حرب فلسطين رجع جمال عبد الناصر إلى القاهرة ، وبدأ يعد للقيام بثورة يوليو .. حيث شكل في نهاية عام ١٩٤٨ لجنة تنفيذية للضباط الأحرار شارك فيها العديد من رفاق الثورة .. إلا أن بعض المصادر تؤكد أن بداية تنظيم الضباط الأحرار كان عام ١٩٤١ ، وأن المرحلة الثانية لعمل هؤلاء الضباط بقيادة جمال عبد الناصر قد بدأت في الفترة من ١٩٤٥ ومايو ١٩٤٨ ، وأن الحركة في هذه الفترة قد أخذت طابعاً تنظيمياً ، وكونوا مجموعة كبيرة ..

أما المرحلة الثالثة فقد استمرت حتى عام ١٩٥٢ وكانت هي المرحلة الحاسمة ، إذ تطورت الحركة واتضح أمامها الطريقة لتنفيذ خطة الثورة في شهر يوليو .

ومن قبل وفي يناير عام ١٩٥٠ اختارت اللجنة التنفيذية للضباط الأحرار جمال عبد الناصر رئيساً لها ، وفي يناير ١٩٥١ أعيد انتخابه لنفس المنصب وظل فيه حتى قيام الثورة في الثالث والعشرين من يوليو عام ١٩٥٢ ، وظل من بعدها في صراع مع زملاء حركة الضباط الأحرار .. حيث ظلت الحركة تأكل نفسها .. وبدأت معركة التصفية حتى أصبح جمال عبد الناصر رئيس مجلس قيادة الثورة ، ثم رئيس الجمهورية ، ورئيس الوزراء ..

وظلت التواريخ بعد ذلك تلعب دورها في حياة جمال عبد الناصر ، وحياة التاريخ المصري .. لأن كل ما كان يقوم به سواء من حسنات أو أخطاء كانت تنعكس فعلاً على الشعب المصري .. بدءاً من حرب عام ١٩٥٦ التي أعقبت تأميم قناة السويس ، ثم هزيمة عام ١٩٦٧ .. وأخيراً الرحيل الأخير .. حيث فارق جمال عبد الناصر الحياة عام ١٩٧٠ ..

الفصل الثانى

بعد حصار الفالوجا .. كان هذا اللقاء

لا نعرف على وجه التجديد .. أهى المصادفة .. التى كانت وراء تدبير أول لقاء بين جمال عبد الناصر ، وأم كلثوم .. أم القدر الذى لا نعرف حدوده .. من أين يبدأ أو كيف ينتهى ؟ أم هما معا ؟ المصادفة والقدر .. حين يلتقيان ينصهر كل منهما فى الآخر ويصيرا شىء واحد .. هذا الشىء كان يعلوه القدر وتحركه المصادفة .. وكان اللقاء الأول .. دون سابق معرفة .. المكان فى فيلا أم كلثوم بحى الزمالك ، والزمان فى فبراير عام ١٩٤٩ ..

ويبدو أن هذا اللقاء .. كان مجرد إعداد للقاءات عديدة .. سوف تكون بين أم كلثوم ، وعبد الناصر .. فقط أنها مجرد أيام أو سنوات تمر فى حياة كل منهما .. وفرصة للاعداد .. لقد كان جمال عبد الناصر بالفعل يعد نفسه من أجل أن يقود الشعب المصرى فى مجال العمل السياسى .. وكذلك أم كلثوم التى كانت تؤهل حياتها من أجل أن تقود أيضا الانسان المصرى نحو أحاسيسه وأبعاده .. وتغزو قلبه وعقله .. وكان كل منهما يخطط خطوات محسوبة على هذا الطريق أو ذاك .. وان كانت أم كلثوم قد سبقته بمراحل بحكم مولدها أولا قبل جمال عبد الناصر بإحدى عشر عاما .. هذا التوقيت المبكر فى رؤية الحياة جعلها تأخذ فرصتها أكثر فى مجالها الذى بدأته ، وكما تقول سيرتها التاريخية منذ كانت تبلغ من العمر خمس سنوات ..

ففى الوقت الذى كان فيه جمال عبد الناصر يبحث فيما حوله .. ويدقق الاختيار من أجل المهمة الانتحارية التى سوف يقدم عليها .. ولم يكن يعلم مصيره ومصيرها إلا الله .. وفى الوقت الذى كان فيه إيمانه يزداد يقينا بضرورة القيام بمثل هذا العمل الثورى .. هو ورفاقه هنا وهناك .. كانت أم كلثوم تملأ أسماع الدنيا بصوتها .. وينتظر حفلاتها الشهيرة كل مصرى .. وربما كان هذا الصوت هو البلسم الشافى لهذا الشعب من جروح وآلام الاحتلال البريطانى آنذاك .. قبل سقوط الملك فاروق فى أخطائه العديدة التى عجلت برحيله على يد جمال عبد الناصر ..

* * *

ومن أجل التعرف على طبيعة هذا اللقاء وبدايته كان لنا أن نفحص فى الأوراق الصفراء .. ونعد أنفسنا لإجراء لقاءات حيوية مع بعض الشخصيات المصرية التى عاصرت هذا اللقاء الغريب واكتشفنا أن كل التفاصيل لم نثر عليها فى الأوراق .. وإنما كان دليلنا إلى معرفة الحكاية بدقة .. لقاء الكاتب الصحفى مصطفى أمين الذى حضر حفل التكريم الذى أقامته أم كلثوم فى عام ١٩٤٩ تكريما لنضباط الأحرار المصريين العائدين من حصار القلوجا .. وكان يحضره أيضا الضابط الجريح جمال عبد الناصر ..

هذا التقييم .. أو هذا البحث .. يلقى بنا فى أحضان تاريخ حقبة هامة من حياتنا كانت أم كلثوم ، أحد أضلاع مثلث هذه الحقبة .. حيث الملك والإنجليز .. وهما الضلعان الآخران ..

ونقول أن أم كلثوم .. كانت بمثابة أحد أضلاع هذا المثلث لأنه فى هذه الفترة ، قد ذاع صيتها فى مجال فنها .. واشتهرت كمطربة مصرية يرق لها الوجدان .. وكان الأعيان والأمراء والباشوات يسارعون إلى حضور حفلاتها والتقرب منها ، ولم يتوقف هذا التكريم وهذه الشهرة عند حدود عامة الشعب وبعض الأمراء والباشوات .. بل استطاعت أم كلثوم أن تدبر أكبر رأس فى بلدنا آنذاك .. وهو الملك فاروق الذى كان يحرص هو الآخر على حضور حفلاتها هو وضيوفه الأجانب ..

ومن شدة إعجابه بفنها .. منحها وسام الكمال للفنون عام ١٩٤٦ .. وأصبحت منذ ذلك التاريخ صاحبة العصمة ..

ويقول الكاتب الصحفي مصطفى أمين في لقاء شخصي معنا عن هذه الفترة ، وعن علاقة أم كلثوم المبكرة ردا على ما أشيع في المجالس الخاصة من توسطه لدى الملك فاروق من أجل منح أم كلثوم هذا الوسام .. أنه لم يحدث أن توسط أحد لأم كلثوم لدى الملك فاروق .. فقد كانت شهرتها آنذاك تجوب الآفاق ، وليست في حاجة إلى وسيط يقدمها إلى ملك البلاد .. وكل ما حدث أنه في أحد ليالي الخميس كانت أم كلثوم تحيي حفلا خاصاً بأحد نوادي القاهرة .. وفوجئنا بمقدم حاشية فاروق الذين أعلنوا أن الملك سوف يحضر هذا الحفل .. وبالفعل فوجئنا بمقدم الملك فاروق عندئذ ارتبتكت أم كلثوم .. ولكنني طمأنتها .. وبالفعل واصلت الغناء .. وكانت تغني « يا ليلة العيد أنستينا » .. وفي هذه الليلة أبدعت وذكرت اسم الملك في الأغنية .. وبعد انتهاء الوصلة الغنائية .. ناداني الملك كي أعلن على الحاضرين منحها وسام الكمال لأم كلثوم ..

* * *

لقد كانت أم كلثوم في فترة من فترات حياتها هي كل شيء .. واسألوا جمهورها في كل مكان .. هذا الجمهور الذي انتقل انفعاله بصوتها كما يقول الكاتب محمود عوض من جيل إلى جيل .. ويكفي أن نقرأ ما كتبه أحد الصحفيين في عام ١٩٢٦ ، يقول :

— وكانت الأنسة أم كلثوم ، وما زالت إلى اليوم ، موضع إعجاب الناس من الفنانين والموسيقيين وأصحاب الأذواق السليمة .. وكانت لا تحيي ليلة تنشد فيها إلا ويمتلئ المكان .. وذاع اسمها فانتشر صيتها وعتافت الأمراء والأعيان على الإستمتاع بصوتها المطرب في حفلاتهم .. لقد كان الجمهور المصري يقبل من أم كلثوم ما لا يقبله من غيرها .. لقد نجحت أم كلثوم آنذاك في تحويل الحب إلى ملكية عامة .. هذا الحب الذي يجعل النهار أطول ، والليل أقصر ، والقمر يسطع ، والنجوم تصبح أجمل ..

* * *

ولا يزال السؤال يدور ويلف في عقولنا .. يدق بعنف من أجل بصيص من الإجابة تروى ظمأ حروفه الحائرة .. والسؤال يردد بصوت مرتفع : وأين كان عبد الناصر قبل لقاء الفالوجا ؟ ونحن بدورنا نضم صوتنا إلى هذا السؤال .. ونحاول أن نجيب عليه ..

يقول الكاتب عبد المنعم شمس : لقد كان جمال عبد الناصر دارسا في كلية أركان

الحرب مع زميله عبد الحكيم عامر ، وتخرج منها يوم ١٢ مايو ١٩٤٨ ، فألحق بالكتيبة المشاة السادسة بفلسطين في اليوم الثاني من تخرجه ، وكانت أول كتيبة تدخل حرب فلسطين في ١٥ مايو عام ١٩٤٨ ..

كان دور جمال عبد الناصر آنذاك دورا منقطع النظير .. فقد انطلق قبل أن تدخل مصر حرب فلسطين يريد أن يحمل السلاح في سبيل تحرير الأرض المقدسة من الصهيونية ..

وقدم جمال عبد الناصر استقالته من الجيش كى يتطوع في هذه الحرب فرفض رئيس الوزراء آنذاك المرحوم النقراشي .. وغضب جمال لهذا الرفض فذهب إلى مفتى فلسطين أمين الحسيني وطلب إليه أن يتحدث مع رئيس الوزراء من أجل أن يقبل استقالته حتى يتسنى له التطوع للدفاع عن فلسطين فرفض رئيس الوزراء الطلب من جديد . وتحقق لجمال ما أراد من جهاد .. فكان أول المسافرين إلى فلسطين حين أعلنت مصر الحرب في ١٥ مايو ١٩٤٨ ..

وهناك حارب مع جنوده ورفاقه حتى أصيب في الحرب في صدره ونقل للعلاج في مستشفى غرة وعولج من الإصابة .. وعاد من جديد إلى المعركة حتى حوصر في الفالوجا واستمر حصاره هناك حتى فبراير عام ١٩٤٩ .. وحين عاد أنعم الملك بنوط الشجاعة هو وزملاء الحصار وعلى رأسهم الضيق الأسود السيد طه ..

ومعركة الفالوجا وعراق المنشية تجربنا إلى الحديث والألم والشجن حديث أول حرب خاضتها مصر والعرب ضد اسرائيل ، قبل أن نعيش لحظات اللقاء بين جمال عبد الناصر وأم كلثوم حين عاد من هذا الحصار ..

★ ★ ★ .

● من أوراق قائد ميداني :

لو حصرنا كم الكتب الهائل التي تحدثت عن حرب فلسطين لوجدناها تتعدى الآلاف .. سواء باللغة العربية أو غيرها من اللغات .. ونفس هذا الحصر ينطبق على معركة الفالوجا وحضارها الذى دام عدة أشهر .. ولكن في سعينا نحو تحرى الحقيقة المحايدة عثرنا على

كلمات هامة من كتاب أحد رجال العسكرية المصرية الذين غاصروا كل حروب مصر .. إنه اللواء عبد المنعم خليل الذى يحدثنا عن هذه الحرب بكل ما لها وما عليها بقوله فى منتصف ليلة ١٤/١٥ مايو عام ١٩٤٨ أصدر مجلس الوزراء المصرى البلاغ الرسمى التالى :

— صدرت التعليمات إلى قوات من الجيش المصرى بدخول فلسطين لإعادة الأمن والنظام فيها ، ولإيقاف المذابح التى تقتربها العصابات الإرهابية الصهيونية ضد العرب وضد الإنسانية ..

ثم صدر البلاغ العسكرى المصرى رقم (١) وأعقبه بلاغات أخرى عربية ومصرية متعددة^(١) ..

ثم بدأت الرحلة إلى فلسطين من محطة القاهرة إلى العريش .. حيث دفعت بريطانيا الجيوش العربية إلى دخول فلسطين فى ١٥ مايو ١٩٤٨ ، وهى غير مستعدة ، ولذا سُمى عام ١٩٤٨ بعام النكبة الكبرى .. حيث اغتصبت اسرائيل فلسطين ..

وفى يوم الجمعة ١٤ مايو ١٩٤٨ أعلنت الأحكام العرفية فى القطر المصرى استعدادا لحماية ظهر الجيش عند دخول فلسطين ، وبعد منتصف ليلة ١٤/١٥ مايو دخلت القوات المصرية الحدود الفلسطينية عند رفح فى عربات نقل متعهد فلسطينى ، وكانت الخطة التى وضعتها انجلترا لمصر آنذاك لدخول فلسطين هى أن تحشد القوات المصرية فى منطقة العريش — رفح بهدف التحرك إلى غزة يوم ١٥ مايو ، وتقوم البحرية الملكية بمراقبة النشاط اليهودى فى منطقة غزة — رفح وفرض الحصار عليها بالاشتراك مع القوات الجوية المصرية ..

اجتازت القوات المصرية الحدود عند رفح قبل فجر ١٥ مايو ١٩٤٨ بهدف الوصول إلى غزة بأسرع ما يمكن .. وقد نجحت هذه القوات فى دخول غزة عصر يوم ١٥ مايو .. وفى ١٦ مايو حاولت القوات المصرية الاستيلاء على مستعمرة بيروت اسحق بالقرب من غزة .. واستمر الجيش المصرى فى التقدم إلى بقية فلسطين ..

(١) حروب مصر المعاصرة — لواء عبد المنعم خليل ..

وفي ١٧ مايو صدرت الأوامر إلى قوات المتطوعين بقيادة أحمد عبد العزيز بالتقدم إلى
بئر سبع عن طريق غزة ..

وفي يوم ٢٦ مايو دخلت قواتنا المصرية بلدة أسدود وأصبحت على مسافة أقل من
٣٠ ميلا من تل أبيب .. كما نجحت قواتٌ مصرية أخرى في دخول الفالوجا وعراق
المنشية في الطريق إلى الخليل واستولت القوات المصرية على حصن منيع لتأمين طريق
الفالوجا ..

وفي ليلة ٦/٥ يونيو عام ١٩٤٨ قام اليهود بهجوم ليلي صامت إلى أن وصلوا إلى
الخطوط الأمامية لقوات الكتبية التاسعة مشاة ونجحت القوات المصرية في القضاء على
هذا الهجوم اليهودي ..

وفي ليلة ١٠/١١ يونيو صدرت الأوامر بالانتقال القيادي إلى غزة وتم إيقاف القتال
يوم ١١ يونيو .. ووصل عدد كبير من المراقبين إلى أماكنهم لمراقبة تنفيذ وقف إطلاق
النار ..

وفي ٨ يوليو عام ١٩٤٨ تم استئناف القتال .. إلا أن الملك عبد الله أصدر أوامره إلى
قائد قواته في فلسطين سحب القوات الأردنية من منطقة اللد والرملة والسماح للقوات
الإسرائيلية بدخولها ..

وفي ١٨ يوليو أعلنت الهدنة في القدس .. أما في باقي الجبهات فقد تحدد في الساعة
الخامسة بعد ظهر يوم ١٩ يوليو توقيت وقف القتال ..

وفي يوم ١٨ يوليو .. عرف الجميع قصة الأسلحة الفاسدة التي أهداها الملك فاروق
إلى الجيش المصري المحارب في فلسطين ..

وفي يوم ٨ سبتمبر ١٩٤٨ استولى اليهود على قرية المحجز في منطقة جنوب
الفالوجا .. وتمكن اليهود من السيطرة على جميع طرق الإمداد المؤدية إلى الفالوجا ..

وفي فجر ١٠ أكتوبر تحركت بعض القوات المصرية على الطريق الرئيسي من غزة إلى
الفالوجا ، وعراق المنشية ، حيث كان يحاصر جمال عبد الناصر ورفاقه من الجنود
والضباط المصريين .. وكان عبد الناصر على رأس الكتبية السادسة مشاة .. وكان يومها
برتبة صاغ ..

وقبل فجر يوم ١٦ أكتوبر عام ١٩٤٨ قام اليهود بهجوم مضاد جديد استخدموا فيه الطائرات .. ونسفوا الكوبرى الرئيسى على طريق غزة - المجلد وعدد من الكبارى الأخرى الفرعية .. وتمكنوا هذه المرة من قطع طريق الإمداد الرئيسى .. كما قاموا بغارات مكثفة على معظم المواقع المصرية فى قطاع الفالوجا المحاصر وعراق المنشية .. ثم تعرضت غزة فى يوم ١٩ أكتوبر لقصف جوى عنيف من عدة طائرات وفى صباح اليوم التالى هاجمت مدينة غزة من اتجاه البحر .. ثلاث مدرعات يهودية ورغم صدور قرار وقف إطلاق النار يوم ٢١ أكتوبر ١٩٤٨ ، فقد أغرقت المدمرة المصرية « فاروق » بواسطة طوربيد من بارجة أمريكية ..

وفى ٢٧ أكتوبر أصدرت قيادة القوات المصرية فى فلسطين أوامر أخرى بانسحاب القوات المسلحة من مواقعها فى أسدود ، ثم صدرت أوامر جديدة يوم ٣٠ أكتوبر بانسحاب بقية القوات من فلسطين ..

ولم يبق للجيش المصرى فى فلسطين ، سوى الكتيبة السادسة مشاة المحاصرة فى قطاع الفالوجا وعراق المنشية بقيادة الضبع الأسود القائمقام السيد طه .. وأركان حرب الكتيبة الصاغ جمال عبد الناصر .. واستمر كفاح هؤلاء الجنود والضباط المحاصرين .. حتى يوم ٢٨ فبراير ١٩٤٩ .. حين رجعوا إلى رفح ومنها إلى القاهرة ..

* * *

● من الضباط المحاصرين ..

إلى أم كلثوم :

لقد كانت أم كلثوم .. الشغل الشاغل لكل مصرى سواء على أرض مصر أو خارجها .. كانت هى كل حياته .. وكانت تحمل عبر صوتها أرق الذكريات التى تجعل الانسان فى تواصل مستمر مع يومه وغده .. فكم سمعنا عبر موجات الأثير .. كيف كان الناس خارج مصر يحرصون على طلب سماع أغنيات أم كلثوم ، وهم على بعد ملايين الكيلو مترات خارج أرض مصر .. أنها تعيد إليهم الماضى والحاضر والمستقبل ، وتقدم إليهم عبر هذا الصوت الذى هو- قيثارة السماء .. مصر بترابها وسمائها ..

ولا ننسى حين نقول دائما ونردد وراثتها « مصر التي في خاطري وفي دمي » هذه حقيقة .. لقد بلغ الشوق بالإنسان المصرى حداً لم يجد بعده أو قبله حدوداً أخرى ، حيث تمثلت له أم كلثوم في كل مكان رسول الشوق وحامل رسائل الغرام والحب ، حتى ولو عبر الهواء ، وكما كنا وكانوا يجدون في صوتها وكلماتها التواصل والاستمرارية ، التي تعبر عن حلاوة الحياة ، حتى ولو كانوا وكنا في أحلك الظلمات ..

فها هم الضباط المحاصرون في الفالوجا .. لا يجدون أمامهم سوى صوت أم كلثوم .. رسول الخير والمستقبل والأمل .. والحب والحنين إلى أرض الوطن التي باعد بينهم وبينها حب الكفاح ..

يقول الكاتب الكبير مصطفى أمين :

– لقد اتصل به الفريق محمد حيدر باشا وزير الحربية المصرى آنذاك في عهد الملك فاروق ، وأبلغه أن ضباط الفالوجا المحاصرون قد بعثوا برسالة لاسلكية غريبة من موقع الحصار .. أما مضمون الرسالة التي وجهها هؤلاء الضباط لحيدر باشا شخصياً ، فهي طلب مقدم منهم بأن تغنى أم كلثوم في حفلتها المذاعة بعد أيام أغنية « غلبت أصالح في روحى » .. وطلب حيدر باشا من مصطفى أمين أن يخبر أم كلثوم بتلك الرغبة ..

وبالفعل تحدث مصطفى أمين مع أم كلثوم ، وأخبرها برسالة حيدر باشا ، ونقل إليها من خلال هذه الرسالة رغبة ضباط الفالوجا في أن تغنى لهم هذه الأغنية ، وكان الحفل سيقام بعد أيام قليلة ، إلا أن أم كلثوم قالت أنها وعدت أن تهدي الوصلة الأولى لزوجة الأمير فيصل .. والوصلة الثانية لزوجة الملك الغازي ، وأم الملك فيصل الثانية ملك العراق آنذاك ، أما الوصلة الثالثة فهي لإحدى الأميرات المصريات ولم تكن هذه الأغنية من بين الأغاني المختارة للحفل .. ومع ذلك قالت أم كلثوم وبلا تردد لمصطفى أمين : أنها سوف تلغى طلب الأميرة المصرية من أجل تلبية رغبة الضباط وتغنى أغنية « غلبت أصالح في روحى » ..

ولم يكن هذا الطلب أو تحقيق هذه الأمنية كافياً بالنسبة لفنانة وطنية مثل أم كلثوم .. فقد أبلغت الكاتب مصطفى أمين أيضاً أنها سوف تغنى لهم أغنية أخرى هي « أنا في انتظارك » في الوصلة التي خصصتها من قبل لملك العراق .. وبعد عودة هؤلاء الضباط إلى القاهرة في أول فبراير عام ١٩٤٩ سألهم حيدر باشا وزير الحربية في هذه الأيام حين

استقبلهم عن أية مطالب لهم .. وكانت المفاجأة الثانية .. هو إجماع هؤلاء الضباط العائدين على مقابلة أم كلثوم وتقديم الشكر الخاص لها ..

وهناك رواية أخرى يذكرها الكاتب محمود عوض فيما يتعلق بطلبات الضباط المحاصرون بالفالوجا .. اذ يقول : لقد بدأت شخصية أم كلثوم تتحول إلى رمز لكل ماهو جميل وباق ومحبوب ومستمر في مصر .. ولقد بدأت هذه الشخصية تحمل هذه البذور منذ فترة طويلة مضت .. لقد دخلت إلى المسرح تغنى مرة في شهر فبراير عام ١٩٤٩ ، ولكنها وقبل أن تغنى فوجئت بضابط يستوقفها كي يقدم لها خطابا مغلقا ما هذا الخطاب ؟ وماذا بداخله ؟ ورقة ؟ آه .. ما هو مكتوب في الورقة مش معقول ؟ أنه رجاء يقدمه إليها ضباط وجنود الفرقة المصرية السادسة المسلحة والتي يحاصرها اليهود في الفالوجا نريد أن نسمع منك في حفل الليلة المذاع بالراديو أغنية « غلبت أصالح في روحى » ..

قطعة غنائية تحولت إلى مهمة وطنية ، ليلتها قطعت أم كلثوم وصلتها الأولى كي تقدم الأغنية المطلوبة كما لم تغنّها من قبل^(١) ..

ونحن نختلف مع الكاتب محمود عوض في هذه الرواية .. ونؤيد ما ذكره الكاتب الكبير مصطفى أمين .. لسببين أحدهما أننا في لقاء مع الأستاذ مصطفى أمين أكد لنا صدق الرواية التي ارتبطت بشخص الفريق حيدر باشا .. وثانيا لأننا قرأنا هذه الرواية في العديد من المصادر .. وعلى أية حال ليس الغرض هو ذكر الواقعة في حد ذاتها ، ولكن من أجل توضيح مدى وطنية واحساس أم كلثوم المرفه والمدى الذى تدخل فيه القدر كى يجمع بين الزعيمين القادمين مع رياح مصر شمالا وجنوبا ..

لقد أكد الضباط العائدون من حصار الفالوجا بما فيهم القائمقام السيد طه قائد الكتبية السادسة مشاه وأركان حرب الكتبية جمال عبد الناصر .. وبقية الزملاء على ضرورة مقابلة أم كلثوم .. حيث أعلنوا في صوت واحد أن صوتها من هناك عبر الأثير كان الشيء الوحيد الذى ربطهم بمصر بعد أن انقطعت كل سبل الاتصال بينهم وبين بلدهم الحبيب مصر .. وكان اللقاء في صالونها الكبير بفيلتها في شارع أبو القدا بحى الزمالك على ضفاف نيل مصر ..

(١) محمود عوض - المصدر السابق ..

وفي هذا اللقاء كان الأستاذ مصطفى أمين هو المدنى الوحيد وسط كافة المدعويين من العسكريين وعلى رأسهم حيدر باشا وزير الحربية في هذه الأيام .

وذكر الأستاذ مصطفى أمين أنه قد التقى في صالون أم كلثوم آنذاك بإبراهيم البغدادى ، وهو من ضباط الفالوجا والذي أصبح فيما بعد محافظا للقاهرة ، وكان يجلس على مائدة جمال عبد الناصر .. حينئذ سأل مصطفى أمين عن سر هذا الطلب من الضباط وهم تحت الحصار .. أجاب إبراهيم بغدادى : بأنه في أحد ليالى الحصار .. كنا قد التففنا حول النار هناك .. واقترح أحد الضباط أن نبعث برسالة نطلب أن تغنى لنا أم كلثوم في حفل الخميس القادم أغنية ..

وقال بعض الضباط : هو ده معقول ؟ .. طبعاً الأغاني محجوزة والوقت متأخر .. وأكد الأمراء والوزراء طلبوا أغاني معينة ، إلا أن الضابط جمال عبد الناصر .. هو الضابط الوحيد الذى قال إن أم كلثوم لا يمكن أن ترفض لنا هذا الطلب ، لأنها فلاحه مصرية وطنية ، ولا بد أن تشعر بنا هنا ونحن محاصرون ..

وكان تقدير جمال عبد الناصر لإحساس أم كلثوم الإنسانية والوطنية تقديراً في محله .. وحين قامت الثورة ومن بعدها - والكلام ما يزال على لسان الكاتب مصطفى أمين - وحين تولى جمال عبد الناصر رئاسة الجمهورية هو وعبد الحكيم عامر ترددوا كثيراً على فيلا أم كلثوم ..

أما عن أحاسيس الكاتب الصحفى الكبير مصطفى أمين حين تعرف على الضابط جمال عبد الناصر .. فإنه يكمل الحديث بقوله :

- « لما كنت أنا المدنى الوحيد المدعو لهذا الحفل بحكم صلتى وصدائتى بأم كلثوم كنت أنتقل بين أماكن هؤلاء الضباط .. ومن حين لآخر كان يلتفت نظرى هناك الضابط جمال عبد الناصر ، الذى كان يفضل أن يجلس بمفرده صامتا ، رغم أن بقية زملائه من الضباط كانوا يمرحون ويضحكون ويتناوبون الحديث مع أم كلثوم .. هذا السلوك الهادئ من جانب الضابط جمال عبد الناصر .. كان محل تساؤل أم كلثوم أيضا .. فقد كنا نرى كذلك أنه حتى قائد الكتيبة « الضبع الأسود » السيد طه يمرح ويضحك ويتنقل من مكان إلى آخر في صالون فيلتها إلا جمال عبد الناصر الذى استمر

في جلسته الصامتة طويلا حتى انتهى اللقاء .. وبين الحين والحين كنت ألاحظ نظرات متبادلة بين أم كلثوم وعبد الناصر .. ولم أستطع وقتها أن أترجم هذه النظرات في حينها ، فربما كانت نظرات لقاء قادم ومصير مشترك بين زعيمين ، لا يزال دورهما حتى هذه اللحظة في علم الغيب (١) ..

وعن إحساس أم كلثوم الوطني وحبا الشديد لأبناء وطنها الحبيب مصر تقول بخصوص ضباط الفالوجا في مذكراتها :

« عندما بدأت حرب فلسطين ضد العصابات الصهيونية التي كنا نعرف أنها رأس حربة الاستعمار ، أو هي الاستعمار بصورة أخرى وتجلادين جدد عندما بدأت الحرب كان قلبي مع كل مقاتل هناك ، وكنت أقرأ في الصحف في الخاصة صباح كل يوم ، واستمع إلى الراديو في كل محطات العالم كما أسمع آخر أنباء المعارك .. وحين حوصر أبطالنا في الفالوجا كان الدسوق ابن شقيقتي ينقل لي الأخبار من هناك .. ويقول لي أنهم يريدون أغاني كذا وكذا ، فأغني لهم وأذهب إلى الاذاعة لأقدم لهم ما يطلبون ، وأعيش معهم على البعد بجميع أعصابي وكل حماسي ..

وعندما عادوا كان الملك يخاف منهم ويخشى غضبهم بعد واقعة الأسلحة الفاسدة ، وكانت النقابات قد قررت الاحتفاء بالعائدين وكنت يومئذ نقيبة للموسيقين المصريين .. ومن هؤلاء الذين قرروا الاحتفال ببطولاتهم الضيع الأسود سيد طه وجمال عبد الناصر وصلاح سالم وغيرهم .. ولهذا أمر القصر الملكي هذه النقابات بإلغاء هذه الحفلات .. وكنت قد وجهت الدعوة لكل القادمين من الفالوجا .. دعوة خاصة إلى بيتي ، وجاءني الأمر بالأفعل ورفضت تنفيذ الأمر .

وتعللت بأني وجهت الدعوة بالفعل .. وحضر إلى بيتي في الزمالك حوالي ٥٠ ضابطا وأكثر منهم من الجنود وملأوا البيت والحديقة وأدرت لهم كل التسجيلات التي كانوا يطلبونها وهم في الفالوجا ..

★ ★ ★

(١) حديث الكاتب الكبير مصطفى أمين مع كاتب هذه السطور .

• كلمات على جدران فيلا الذكريات :

لا يمكن بأى حال من الأحوال أن تترك الحديث عن فيلا أم كلثوم وصالونها الشهير .. ما دمنا لا نزول في رحاب حى الزمالك .. وما دامت جدران هذه الفيلا قد جار عليها الزمان .. وسقطت بفعل فاعل .. وأنهدمت رغما عن أنف أم كلثوم وألبوم الذكريات ..

إن الحديث عن هذا المكان .. ليس من أجل عيون المكان وصاحبه .. بل من أجل كلمات كتبت على جدران هذه الفيلا .. وأبدا لم تسقط ولم تدوسها الأقدام التى صاحبت هذه الفيلا .. وظلت باقية فى عيون الورق الأصفر وعقول عشاق أم كلثوم ..

وعن فيلا أم كلثوم وحكايتها مع الهدم والبناء تحدثنا الصحفية علا المستكاوى من خلال تحقيق صحفى نشرته فى مجلة « آخر ساعة » قالت فيه :

– هنا الأطلال .. أطلال بيت أم كلثوم .. عش الكروان الذى ملأ السماء بأروع الأغاني .. هنا فيلا أم كلثوم التى شهدت حجرتها ذكرياتها وأيامها الأخيرة وحياتها الخاصة ..

هذه فيلتها .. بشارع أبو الفدا بحى الزمالك .. المطل على نيل القاهرة .. الدور الأول حجرات الصالون والسفرة .. الصالون على يسار المدخل .. حجرة صغيرة وأخرى كبيرة .. كل الحجرات خاوية تماما إلا من الباركيه والرخام .. وهذا الصالون الكبير شهد لقاءات أم كلثوم بكبار الشخصيات المصرية والعالمية ..

والفيلا بناها المهندس على لبيب جبر كما تعلن اللافتة الرخامية المعلقة فى مدخل الفيلا ، فى عام ١٩٣٥ ، وكانت أم كلثوم تسكن من قبل فى شقة فى عمارة « بهلر » فى شارع ٢٦ يوليو بعد كوبرى أبو العلا . وقد اختارت أم كلثوم الرسوم الهندسية للفيلا بنفسها . كما كانت تتردد عليها يوميا لمتابعة العمل والبناء وبعد الإنشاءات عهدت أم كلثوم لمهندس ديكور فرنسى تصميم الديكور ، وتأثيث الفيلا على الطراز الفرنسى . ولم تكن أم كلثوم أبدا من هواة تغيير الأثاث فى منزلها .. فلم تغير أى قطعة من الأثاث منذ عام ١٩٣٥ وحتى عام ١٩٦٠ ..

أما بالنسبة لحكاية هدم الفيلا .. فتقول تفاصيلها أنه : بعد وفاة أم كلثوم اشتراها

رجل أعمال سعودي من الورثة ، وقرر هدمها ليقم عليها مشروعا استثماريا وعمارة كبيرة .. وقد بيعت أنقاض هذه الفيلا بمحالى ١٣ ألف جنيه .. بالإضافة إلى ألفى جنيه تأمين .. والفروض أن يتم إلزالتها من فوق الأرض فى خمسة أشهر وقد تم استخراج رخصة الهدم من حى غرب القاهرة رقم ٢٩٤ بتاريخ ١٩٨١/١٢/٢٩ واستلم مقالو الهرم الفيلا مجهزة للإزالة فى ٦ فبراير ١٩٨٢ ..

* * *

والأستاذ الكاتب الكبير مصطفى أمين له رأى آخر فى مسألة فيلا أم كلثوم وهدمها - وقد ذكر هذا الرأى فى كتابه شخصيات لا تنسى .. تحت عنوان « أم كلثوم الأخرى » .. حيث قال :

- عرّف الناس أم كلثوم .. وأنا عرفت أم كلثوم الأخرى ، عرفوا الأسطورة وعرفت الإنسانية ، عرفوها بخيلة وعرفتها كريمة .. وتحدثت الدنيا كلها عن جريمة فيلا أم كلثوم فى الزمالك ، وأصبحت الألسنة مشانق يعلق فيها ورثة أم كلثوم العاقون الذين باعوا فيلا أم كلثوم الخالدة .. وقد يذهل الناس إذا عرفوا أن أم كلثوم لم تعتبر « فيلتها » هذه أثرا تاريخيا يجب أن تحافظ عليه الأجيال القادمة ، بل الذى حدث أنها أخبرتنى أنها تريد هدم هذه الفيلا وبناء عمارة من عدة طوابق .. وأخبرت الأستاذ أحمد عنان مدير شركة مصر للتأمين فى ذلك الوقت ، عن رغبتها وجاءها بالمهندس محمد رياض مدير بلدية القاهرة فى ذلك الوقت ، ووضع رسومات العمارة الجديدة ..

وبدأت أم كلثوم تبحث فعلا عن شقة تقيم فيها .. واختارت أن تقيم فى شقة فى الزمالك تملكها ابنة عبد الفتاح يحيى باشا رئيس الوزراء الأسبق .. وبدأت مفاوضات استجارها .. وفجأة قامت ثورة ٢٣ يوليو ، وبعد فترة قليلة ذاعت شائعات أن الثورة تفكر فى تأمين العمارات ، عندئذ عدلت أم كلثوم عن هذا المشروع ويستطيع ورثة أم كلثوم أن يجهدوا فى أوراقتها الخاصة رسوم عمارة من عدة طوابق ، وقد اختارت أم كلثوم فيها شقة فى الطابق العلوى على الناحية البحرية تطل على النيل ، لأن أم كلثوم كانت تكره الحر كرها شديدا ..

فرجل الأعمال السعودى الذى اشترى فيلا أم كلثوم لم يهدم الفيلا ، وإنما فعل بعد ثلاثين عاما ما تمت أن تفعله أم كلثوم عام ١٩٥٢^(١) ..

(١) شخصيات لا تنسى - مصطفى أمين ..

الفصل الثالث

من الاسكندرية إلى مجلس قيادة الثورة

حين أعلنت الاذاعة المصرية في صباح اليوم الثالث والعشرين من يوليو عام ١٩٥٢ بيان الثورة الأول .. قطعت كوكب الشرق أم كلثوم إجازتها السنوية ، التي كانت تقضيها كل عام بالاسكندرية في شهر يوليو .. وجاءت مسرعة إلى القاهرة ، حيث مجلس قيادة الثورة من أجل إعلان تأييدها لهذا العمل البطولي الجليل ..

كانت أم كلثوم مثل ملايين المصريين الذين كانوا ينتظرون هذا الحدث .. ومثل ملايين العرب والأجانب ، الذين كانوا يرقبون الساحة السياسية والعسكرية المصرية انتظارا لحدث شيء ما قد اختلف المؤرخون قبل وقوعه وبعد إعلانه في تسميته أهو ثورة أم انقلاب عسكري ؟؟ ، ومهما قيل عن التسمية ، وعن دوافع هذا الحدث ، وعمن وراءه .. فهو واقع عظيم .. ومرحلة تاريخية هامة امتدت آثارها خارج مصر وتغيرت على إثرها خريطة العالم العربي ، بل كان لهذا الحدث الأثر العظيم في خلخلة واقع المجتمع المصرى .. وتغيير جذوره .. وما زال النقاش يدور حول نتائج هذا التحول .. ليس في مصر وحدها بل وفي كافة أنحاء العالم .. وما دام الأمر يبعد كثيرا عن موضوع كتابنا فنحن لن نقرب منه من بعيد أو قريب ..

والشيء اللافت للنظر والذي يدل على الوعي الوطني لكوكب الشرق الزعيمة

المصرية الجلييلة .. أم كلثوم .. هو إسرعها غير العادى نحو مجلس قيادة الثورة ، ولقاء الضباط الأحرار .. ثم إعلان تأييدها المطلق لهذه الثورة .. هذا الوعى وهذا الإدراك داخل أم كلثوم ، لم ينشأ من فراغ .. ويدل دلالة واضحة على أن أم كلثوم لم تكن فقط مطربة تشفن أذان سامعيها .. بل كانت فنانة وطنية لها دورها قبل الثورة وبعدها ..

ويكفى القول .. بأنها كانت تتفاعل باستمرار مع أحداث مصر السياسية والعسكرية .. ويتضح لنا ذلك من قولها فى مذكراتها الخاصة أنها قد عاصرت ثلاثة حروب .. سبقتها ذكريات عن أيام « طماى الزهايرة » حين كانت طفلة تلعب فى شوارع القرية ، وفى أثناء ذهابها وغدوها من البيت إلى كتاب القرية .. كانت ترى الجنود الانجليز يأخذون الشباب إلى السلطة .. إلى الحرب يأخذونها قسرا وعنفا ، ومن بعد رحيلهم تنحرب بيوتهم .. لقد كرهت أم كلثوم الانجليز لأنهم ينزعون الشباب من الشوارع ، ويلقون بهم فى الحروب ، بل أكثر من ذلك كانت تعرف أنهم يأخذون قوت يومهم ، حين يفرضون ثمتنا منخفضا على القمح والقطن .. لقد كرهت الاستعمار ..

هذه النظرة وهذه الذكريات ظلت عالقة فى ذهنها منذ أيام القرية .. وهى نفسها التى دفعتها من أجل تلبية طلبات ضباط حصار الفالوجا .. وجعلتها تستقبلهم فى بيتها رغم الأمر الملكى الذى صدر آنذاك من أجل منع الأحتفال بهؤلاء الأبطال العائدين ..

ويكفيها قولها : «أناعرفت أن الحكومة والملك ، خافوا هؤلاء الضباط العائدين ، وكان منهم جمال عبد الناصر وآخرين ، خاصة بعد فضيحة الأسلحة الفاسدة » .

ولم تكن أم كلثوم كذلك فى مجال فنها بعيدة كل البعد عن العمل السياسى .. بل مارسته عن قرب .. حين رشحت نفسها مرات عديدة لمنصب نقيب الموسيقيين .. وفازت بهذا المنصب للمرة السابعة فى عام ١٩٥٠ ..

وجاء فى دياجاجة الفوز .. « أنه للمرة السابعة تتجدد ثقة حضرات الموسيقيين بالنقابة الفنانة أم كلثوم ، التى كانت طيلة هذه المدة أمينة على الثقة عاملة على الأحتفاظ بها ، بما أدت لزملائها من خدمات شعارها الحرص على مصالحهم ، والحفاظ على كيانهم ، والرفع من شأنهم فى كل مجال ، وعند كل جهة » ..

وقد أجريت انتخابات النقيب فى ١٥ مايو عام ١٩٥٠ بحضور أعضاء الجمعية

العمومية وتولى سكرتير عام النقابة إعلان النتيجة بفوز أم كلثوم بهذا المنصب للمرة السابعة على التوالي ..

وقد تكون مصادفة .. قيام أم كلثوم قبل الثورة بثلاثة أشهر بتسجيل قصيدة شاعر الشعب حافظ إبراهيم « مصر التي في خاطري » لتكون كرد فعل لحالة الغليان التي تعيشها البلاد منذ حريق القاهرة ..

ويدو أن رجال الثورة في أيامها الأولى .. لم يصدقوا هذا التأييد الجارف من جانب أم كلثوم .. فأصدروا قرارهم بوقف أغانيها في الاذاعة ..

طلبت أم كلثوم مصطفى أمين في مكتبه بأخبار اليوم لمعرفة حكاية منع إذاعة أغانيها .. وعلى الفور اتصل مصطفى أمين بمكتب قيادة الثورة وأبلغ جمال عبد الناصر بالخبر الذي لم يكن يعلم به .. وعلى الفور اتصل بالمستولين عن الاذاعة الذين عللوا سبب عدم إذاعة أغانيها بأنها من مخلفات العهد الملكي البائد ..

استنكر جمال عبد الناصر ، هذا لموقف من المسئولين عن الاذاعة المصرية ، وأمر بإعادة أغانيها مرة أخرى معللاً قراره ، إذا كانت أم كلثوم من رموز العهد الماضي فلماذا لم يردموا النيل ، ويهدموا الهرم ، فإنهما من العصر الماضي أيضا ..

ومن بعد هذا التعليل .. أصدر عبد الناصر أوامره بإعادة إذاعة أغاني أم كلثوم فوراً ..

وهناك موقف آخر .. كان لعبد الناصر الفضل فيه بالنسبة لإعادة حقوق أم كلثوم .. فقد كان عليها أن تتقاضى أربعون جنيها نظير حق الأداء العلني من الاذاعة عن إذاعة قصيدة « مصر التي في خاطري » والتي كانت تذاع قبل بيان الثورة .. ومرت عدة أشهر دون أن يصل أم كلثوم حقها في الأداء فلما سألت .. أجابها مندوب القيادة العامة بأن التسجيلات أصبحت منذ قيام الثورة ملكاً للدولة فتوجهت أم كلثوم في اليوم التالي لمجلس قيادة الثورة ، وهناك استقبلها أعضاءها وعلى رأسهم جمال عبد الناصر .. وحكت لهم قصتها مع « حق الأداء العلني » فاتصل عبد الناصر فوراً بمندوب القيادة العامة في الاذاعة ، ولم تمض نصف ساعة حتى جاءها المندوب بحقيقة بها كل مستحقاتها ..

ولم يكن هذا هو الموقف الأول أو الثاني المعارض لتأييد أم كلثوم لثورة يوليو من

جانب بعض الضباط الأحرار ، بل كان هناك الموقف الخطير الثالث الذى فجر فى نفس أم كلثوم ألما تجاه بعض ضباط الثورة .. ففى عام ١٩٥٣ وفى آخر انتخابات نقابة الموسيقين .. حدث تنافس شديد على هذا المنصب بين المطرب الشاب محمد عبد الوهاب الذى كان يسانده بعض ضباط الثورة .. وحين علمت أم كلثوم بهذا الخبر قررت إعلان اعتزالها الغناء .. وأبلغت بذلك أحد المقربين لها الذى نقل الخبر إلى أعضاء مجلس قيادة الثورة .. وأمام جرأتها وتصميمها تم إبلاغ صلاح سالم الذى أبلغه بدوره لجمال عبد الناصر ..

ويحكى الراوى أنه رغم أن الليل قد انتصف .. اتصلوا بمنزلها فى الزمالك وأبلغوها بأن عبد الناصر ورفاقه سيكونون على موعد معها غدا صباح اليوم التالى ..

وقد كان .. ففى الموعد المحدد انطلق جمال عبد الناصر وبصحبة صلاح سالم وجمال سالم وعبد الحكيم عامر وأعضاء آخرون من مجلس قيادة الثورة وألتقوا بأمر كلثوم .. وفى هذه الجلسة الخاصة تم تسوية جميع الموضوعات بين أم كلثوم ورجال الثورة .. ومن ثم عادت أم كلثوم للغناء من جديد .. ويبدو أن هذا اللقاء هو الذى عمق الصلة أكثر بين الزعيم جمال عبد الناصر ، وزعيمة الغناء العربى أم كلثوم .. فقد نزلت على إرادته ورجعت من جديد مع عصر جديد ..

● الثورة .. فى عيون هؤلاء :

ولا يمكن أن يأتى ذكر ثورة أو انقلاب يوليو ، إلا ويكون لنامعها وقفات قد تطول وقد تقصر .. لأنها فى رأينا كانت ثورة فى كل مكان فى الجيش ، وفى الشارع حيث كان الناس يعيشون لحظات إنفجارها .. وحين وقعت أحداثها انطلق الناس فى الشوارع يعبرون عنها .. بصرف النظر عن أخطائها الكثيرة .. لقد كانت الثورة بداية حقيقية للإنسان المصرى الذى استطاع أن يطفوا فوق سطح الأحداث بعدما كان مغرورا فى الظن طوال آلاف السنين .. من هنا .. لابد أن نعيش لحظات وقوع هذا الحدث .. ولن نبعد كثيرا عن أم كلثوم ، وجمال عبد الناصر .. لأنها طرفا هذا الحدث ..

لقد عاشت مصر طوال الفترة التى أعقبت هزيمة حرب فلسطين ، وفضيحة الأسلحة الفاسدة ، فى غليان مستمر على كافة المستويات .. الشعبية والرسمية والعسكرية

والسياسية ، لذا حينما جاءت الثورة وجدت الطريق أمامها ممهدا وفرضت مبادئها بالطرق السلمية ..

وقد بدأت ملاح الأزمة السياسية في الحياة في مصر آنذاك ابتداء من عام ١٩٥٢ .. حين قدم مصطفى النحاس باشا استقالة وزارته للملك فاروق ليلة حريق القاهرة ، فرفضها .. وإزاء هذا الموقف وفي مساء ٢٦ يناير عام ١٩٥٢ .. وعندما استمرت حرائق القاهرة ، تم إعلان حالة الطوارئ في البلاد ..

وفي ضوء إعلان حالة الطوارئ هذه أقال الملك حكومة الوفد ، وعين على ماهر رئيسا للوزراء الذى أعلن بدوره على الفور أن المهمة الرئيسية لحكومته تهيئة الوضع للدخول في مفاوضات مع الانجليز .. وتلى هذه الخطوة تعطيل الدستور وفرض رقابة شديدة على النشر ..

ولما كان على ماهر من المعروفين بعدائهم الشديد للانجليز فقد رفضوا إجراء أية مفاوضات مع من لا يعد موضع ثقتهم .. ووقع الملك على قرار إقالة مجلس الوزراء حين رفض على ماهر ، كما رفض النحاس من قبل .. وكلف الملك فاروق نجيب الهلالي بتشكيل الحكومة الجديدة .. وقد ولدت هذه الحكومة ضعيفة وبلا شعبية ، وعجزت تماما عن الإقدام على حل قضية إجلاء القوات البريطانية عن مصر وازدادت عزلة حكومة الهلالي بعد أن تقرر حل البرلمان ، الذى كانت غالبية أعضائه من الوفديين ، وأوقفت جلساته اعتبارا من ٢٧ يناير عام ١٩٥٢ ، وأخيرا سقطت حكومة الهلالي في النصف الثاني من يونيو بعد أن استمرت في الحكم أربعة شهور ونصف ..

وتم تكليف حسين سرى باشا بتشكيل وزارة جديدة بشرط تعيين كريم ثابت وزيرا فرفض ، وظلت البلاد بلا حكومة لفترة ، ولجأ الملك إلى حيلة أخرى فأخذ يهدد بتكليف بهى الدين بركات من المستقلين بتشكيل الوزارة ، فتراجع حسين سرى باشا ووافق على تعيين كريم ثابت وزيرا ..

وفي اليوم الرابع من يوليو عام ١٩٥٢ ، عقد مجلس الوزراء الجديد أول اجتماع له في الاسكندرية المقر الصيفي للملك والحكومة .. وسعى الملك منذ الأيام الأولى لعمل

الحكومة الجديدة لإغلاق نادى الضباط الذى كان فى يناير عام ١٩٥٢ ، قد انتخب اللواء محمد نجيب رئيسا له .. وقد أغلق الملك النادى فعلا رغم محاولات رئيس الوزراء ، مما أدى إلى اتساع شعبية محمد نجيب والضباط الوطنيين .

وقد حاول حسين سرى من جديد إقناع الملك فاروق بالعدول عن سياسة قمع الضباط التى اعتبرها خطرا كبيرا يهدد النظام القائم ، وأوضح للملك ضرورة اتخاذ إجراءات عاجلة لاستيعاب المعارضة المنتشرة بين الضباط ، واقترح فى هذا الصدد تعيين الفريق عزيز المصرى أو اللواء محمد نجيب وزيرا للحرية ، إلا أن الملك اعتبر أن هذا سيكون إضعافا لمركزه ، وأصر على تعيين سرى عامر وزيرا للحرية ..

فقدم حسين سرى استقالته فى ٢١ يوليو عام ١٩٥٢ ، فقبلها الملك على الفور ، وكلف المهلاى مرة أخرى بتشكيل الوزارة ، فعكف نجيب المهلاى طوال اليوم التالى ٢٢ يوليو على اختيار بقية وزراء حكومته ، ولم يكن يعلم أن ساعات النظام قد أصبحت معدودة .. وأن الضباط الأحرار فى طريقهم إلى الملك وحاشيته ، حيث قام هؤلاء الضباط بحركتهم فى فجر اليوم الثالث والعشرين من يوليو ١٩٥٢ ..

* * *

هذه حكاية الشارع السياسى المصرى قبيل ثورة يوليو .. ولن نتسائل عن مكانة أم كلثوم هذه الأيام والأيام التى قبلها أو بعدها .. لقد كانت أم كلثوم قرية بقلبيها من الحس العام للشارع السياسى المصرى آنذاك .. تسمع مثل غيرها من ملايين المصريين الذين عاشوا هذا العبث السياسى ، وسط جو مشحون بالغموض والمؤامرات .. ومن المؤكد أنها كانت تعرف ما يدور تحت سطح هذا الشارع السياسى الملتهب .. هناك فى صفوف الجيش المصرى وضباطه الوطنيين بقيادة جمال عبد الناصر قائد تنظيم الضباط الأحرار ..

وما دمتنا قد اقتربنا من حديث هؤلاء الضباط .. علينا أن نتوقف ولو لحظات عند حكاية الشارع العسكرى ، وما كان يجرى فيه .. من إعداد لهذه الثورة أو هذا الانقلاب ..

وبداية تؤكد .. كما يؤكد غيرنا من المؤرخين .. أن معاهدة عام ١٩٣٦ ، قد حررت الجيش المصرى قليلا من السيطرة الانجليزية .. حيث لم يكن لصر قبل هذا العام

جيش وطنى فى ظل الاحتلال البريطانى .. وقامت حكومة الوفد عام ١٩٣٦ ، ولأول مرة بفتح أبواب الكلية الحربية لجميع المصريين بصرف النظر عن أصولهم الاجتماعية .. وكان من شأن هذا الإجراء أن تحولت القوات المسلحة المصرية إلى جزء من سكان البلاد .. وعلى أثر هذا القرار التحق العديد من الشباب المصرى بالكلية الحربية تدفعهم المشاعر الوطنية المهانة من جراء استمرار احتلال الانجليز للبلاد ..

ومن قادة ثورة يوليو عام ١٩٥٢ وعددهم أحد عشر .. التحق ثمانية بالكلية الحربية عام ١٩٣٧ وهم : جمال عبد الناصر — محمد أنور السادات — عبد الحكيم عابدين — عبد اللطيف البغدادى — جمال سالم — حسين الشافعى — زكريا محيى الدين — وصلاح سالم ..

أما حسن إبراهيم وكمال الدين حسين فقد التحقا بالحربية عام ١٩٣٨ ، وخالد محيى الدين عام ١٩٣٩ .. وبعد نجاح ثورة يوليو أصبح جمال عبد الناصر مؤسس وقائد حركة الضباط الأحرار ، أول حاكم مصرى لمصر .. بعد عدة قرون من الاحتلال .

ويؤكد الكثير من المؤرخين كما يؤكد أنور السادات ، أن ظهور تنظيم الضباط الأحرار قد ارتبط ارتباطاً وثيقاً بنشاط جمال عبد الناصر فى منقباد عام ١٩٣٩ ، حيث أسسوا فى بداية الأمر جمعية سرية تستهدف تحرير البلاد .. وقد لعبت حرب فلسطين عام ٤٨ - ١٩٤٩ دوراً هاماً فى تطوير وإنضاج حركة الضباط الأحرار وخاصة - حصار الفالوجا - وقضية الأسلحة الفاسدة .. حيث شكل جمال عبد الناصر فى نهاية عام ١٩٤٩ وبعد عودته من الجبهة أول لجنة تنفيذية للضباط الأحرار شارك فيها العديد من ضباط الثورة ..

وفى يناير عام ١٩٥٠ اختارت اللجنة التنفيذية للضباط الأحرار جمال عبد الناصر رئيساً لها أعيد انتخابه لنفس المنصب فى يناير عام ١٩٥١ ..

وفى ٢٦ يناير عام ١٩٥٢ حيث الفوضى التى سادت مصر أثناء حريق القاهرة .. طرح هؤلاء الضباط قضية إمكانية تدخل الجيش فى ظل هذه الفوضى وهذا الافلاس السياسى .. وعقدت اللجنة التنفيذية للضباط الأحرار اجتماعاً فى ١٠ فبراير ١٩٥٢ .. واتخذت قراراً بالتحرك فى مارس عام ١٩٥٢ .. إلا أن الضباط اضطروا إلى تأجيل القيام

بحركهم نظرا لانشغال الغالبية من الجنود والضباط بالمقاومة الشعبية ضد الانجليز في منطقة القناة ..

وتأجل الموعد إلى شهر أغسطس وبالتحديد في اليوم الخامس من الشهر لسببين .. أولهما أن الضباط الأحرار قد فضلوا انتظار عدة أيام بعد بداية الشهر لاستلام رواتبهم ، وثانيا لحين عودة فوج المشاة ١٣ من فلسطين .. والذي من المفروض أن يلعب الدور الرئيسي في تنفيذ الانقلاب .. إلا أن الظروف اضطرت الضباط للتبكير بتنفيذ الخطة .. وذلك لأن البوليس السياسى قام بأوامر من الملك فاروق بتكريس كل جهوده للكشف عن أسماء قادة الضباط الأحرار ..

من أجل ذلك تم تحديد مساء يوم ٢١ يوليو للتحرك .. ثم تأخر الموعد ٢٤ ساعة لوضع تفاصيل دقيقة لمهمة كل وحدة من وحدات الجيش المشاركة في الانقلاب .. وبالفعل تحرك الضباط في ليلة الثالث والعشرين من نفس الشهر ، ونجحت تحركاتهم في الاستيلاء على مقر قيادة الجيش بكوبرى القبة .. وتلاها العديد من الخطوات التى أكدت هذا النجاح .. بانحاف قرار ترحيل الملك فاروق خارج البلاد يوم ٢٦ يوليو .. وقد أصدر هؤلاء الضباط بيانهم الأول باسم اللواء محمد نجيب القائد العام للقوات المسلحة ..

★ ★ ★

● هل غنت أم كلثوم

بأمر عبد الناصر عام ١٩٥٤ ؟

يبدو من استعراضنا للأحداث السياسية والقومية والفنية في مصر ، في مطلع الخمسينات أن مؤشر العلاقة بين أم كلثوم وعبد الناصر .. كان في ازدياد مستمر ابتداء من عام ١٩٥٣ ..

صحيح أن هذا المؤشر قد تعرض في فترات كثيرة ، منذ قيام الثورة لهزات عديدة جعله يتأرجح صعودا وهبوطا ، وفقا لظروف الزعيمين عبد الناصر وأم كلثوم .. وربما يرجع ذلك إلى انتظار أم كلثوم لما سوف تسفر عنه الأيام ، والتي ستعقب حركة

الضباط الأحرار سواء بالسلب أو بالإيجاب .. رغم أنها بادرت من تلقاء نفسها لتأييد هذه الحركة وإعلان الوقوف بجانب أبطالها .. ورغم ما عانت منه من منع إذاعة أغانيها وحفلاتها في أيام الثورة الأولى ..

أما بخصوص جمال عبد الناصر .. فكان هو الآخر بعيد عن أم كلثوم .. بحكم انشغاله وارتباطه بحركة الضباط الأحرار ، وإصراره على إثبات وجوده داخل مجلس قيادة الثورة .. ومع ذلك كان في فترات الخصومة الأولى بين الثورة ، وبين أم كلثوم يتدخل فوراً لإنهاء هذه الخصومة ، من أجل إعادة أم كلثوم إلى حظيرة الثورة وإثبات وجوده أمام أم كلثوم كزعيم ..

ولم تتوقف أم كلثوم عن ممارسة حياتها العامة .. بعدما قررت الرجوع إلى عالم الطرب حين اعترف رجال الثورة بوجودها وسمحوا لها بالغناء في الاذاعة المصرية .. ولا شك أن جمال عبد الناصر كان صاحب الفضل الأول في استعادة مكانتها على الساحة الغنائية في مصر .. وكما ذكرنا لم يكن أبداً بعيداً عن توطيد علاقته بأم كلثوم من خلال مواقفه المشرفة تجاهها ، وتجاه استعادة مكانتها في عالم الفن ..

فبعد الناصر .. لم ينسى لأم كلثوم موقفها حين قطعت لإجازتها لتكون بالاسكندرية وبادرت إلى تأييد هذه الثورة .. وأم كلثوم أيضاً لم تنسى لعبد الناصر ، تدخله في الوقت المناسب لإعادة أغانيها مرة أخرى .. بعدما منعها مدير الاذاعة بسبب غنائها للملك ، معلناً أمام زملائه أنه يجب ألا ينسى الضباط الأحرار ، دور أم كلثوم في إشعال الحماس والوطنية .. فهي مصرية وطنية وليست معادية للثورة .

وقد اتصل جمال عبد الناصر بأم كلثوم كي يخبرها بأن أغانيها ستذاع ، وأنه يجب أن تستعد من الآن لتقديم أغان وطنية جديدة ..

كما لم تنسى أم كلثوم لعبد الناصر وقوفه معها في مرضها .. حيث كانت قد أصيبت قبل الثورة بالغدة الدرقية .. وسافرت للعلاج إلى الولايات المتحدة الأمريكية .. ولما بذلت أم كلثوم مجهوداً نفسياً وعظلياً كبيراً أثر على أحداث الثورة .. عاودتها الإصابة ووصلت إلى عيها مما اضطر طبيها إلى أن ينصحها بضرورة العودة إلى الولايات المتحدة .. ولكنها نظراً لارتباطها بإحياء حفل وطني لرجال الثورة أجلت السفر .. وفي

الحفل غنت قصيدة من كلمات الشاعر الراحل أحمد رامى .. ومن القاهرة رحلت أم كلثوم إلى أمريكا بعد الحفل لإجراء فحوص على عينيها وعلى الغدة الدرقية ..

وذات صباح ، فوجئت قبيل سفرها بمكالمة تليفونية من جمال عبد الناصر ، عرفت منه أنها سوف تعالج في مستشفى البحرية الأمريكية .. وكان الرئيس السادات ضابط مجلس قيادة الثورة آنذاك هو الذى توجه لتوديعها في مطار القاهرة بأمر خاص من جمال عبد الناصر أيضا .. وفى المستشفى فى واشنطن داوم جمال عبد الناصر ، وبقية أعضاء مجلس قيادة الثورة الاطمئنان على أم كلثوم بشكل يومى ..

* * *

فى هذا الوقت - وكما ذكرنا - خصص جمال عبد الناصر وقته كله من أجل تثبيت زعامته داخل مجلس قيادة الثورة .. حيث عمل بهمة ونشاط فى هذه الفترة لجذب أكبر عدد من الضباط لجانبه .. وكانت عينيها لا زالت مركزة على منصب رئيس الجمهورية الذى كان يتقلده فى هذا الوقت اللواء محمد نجيب وبالفعل اضطر اللواء محمد نجيب فى النصف الثانى من فبراير عام ١٩٥٣ إلى تقديم استقالته وقبلها مجلس قيادة الثورة وعين جمال عبد الناصر رئيسا للوزارة ..

وفى ١٨ يونيو عام ١٩٥٣ تم إعلان الجمهورية ، ونجح عبد الناصر فى تعيين أقرب أصدقائه .. عبد الحكيم عامر قائدا عاما للقوات المسلحة .. وفى ١٧ ابريل عام ١٩٥٤ اختير جمال عبد الناصر للمرة الثانية رئيسا للوزارة ..

وفى تلك الفترة وقعت عدة أحداث سياسية .. ارتبطت بحرمان السياسيون السابقون من ممارسة حقوقهم السياسية وإغلاق بعض الصحف المصرية .. كما تم توقيع اتفاقية الجلاء الأولى فى يونيو عام ١٩٥٤ .. والتى تنص على خروج القوات البريطانية من منطقة القناة خلال عشرين شهرا .. وبقاء طاقم فنى مدنى من الخبراء الانجليز فى هذه المنطقة ..

وعلى أثر توقيع هذه الاتفاقية وما شابهها من تسهيلات قدمها عبد الناصر للانجليز ذكرها فى حينها المؤرخون المصريون والعرب .. شن الاخوان المسلمون حملات ضد الثورة .. تهم الضباط بالتآمر مع الانجليز ضد مصر ..

وفي ٢٦ أكتوبر عام ١٩٥٤ .. وقع حادث المنشية حيث كان جمال عبد الناصر يلقي خطابه حين أطلق عليه الرصاص .. وتم القاء القبض على المتهم .. وتبين وكما تقول التحقيقات أنه من الإخوان المسلمين ..

وعلى أية حال .. هناك خلاف حاد ما يزال قائما بين جماعات الإخوان ، وبعض المؤرخين المؤيدين لهم .. وبين بعض معارضي الثورة حول طبيعة هذا الحادث .. وشخصية مرتكبه .. المهم أن جمال عبد الناصر ، وبقيّة أعضاء قيادة الثورة اتخذوا من هذا الحادث ذريعة للتخلص من قيادات الإخوان المسلمين .. ليس هذا فقط بل أنه في ١٤ نوفمبر عام ١٩٥٤ تم توريط اللواء محمد نجيب في هذا الحادث وكشف ارتباطه بجماعات الإخوان ، ومن ثم كان ذريعة لتنحيته عن رئاسة الجمهورية وتم تحديد إقامته ..

وبذلك استطاع جمال عبد الناصر ورفاقه القضاء على جميع القوى المعارضة .. وفي نفس الوقت تم تعزيز موقفه داخل مجلس قيادة الثورة .. وبدأ على الفور عصر جديد .. احتل موقعه الأولى جمال عبد الناصر ..

وهنا أيضا .. حين نبحث عن موقع أم كلثوم إزاء هذه الأحداث .. نجدها لم تتعد كثيرا .. وإن كانت قد بدأت تهتم بحياتها الخاصة حيث اختارت شريك حياتها الدكتور حسن الحفناوى بعد عودتها من رحلة العلاج الأخيرة .. ولهذا الزواج قصة تقول :

لقد كانت أم كلثوم تتردد على عيادة الدكتور الحفناوى للعلاج ، منذ بداية عام ١٩٥٤ .. ثم تطورت هذه العلاقة العادية إلى اتفاق عاطفى ، ثم الزواج الذى تم بعد عودتها من رحلتها العلاجية في عام ١٩٥٤ .. وكان قد تردد في هذه الآونة ، أن أم كلثوم تم إبلاغها من قبل جمال عبد الناصر ، ومجلس قيادة الثورة بأول مهمة رسمية وطنية تتعلق بمستقبل هذه الثورة ..

فبعد حادث المنشية طلب عبد الناصر ورفاقه من أم كلثوم أن تغنى أغنية وطنية ، وقد قبلت أم كلثوم هذه المهمة ، فلجأت إلى الشاعر بيرم التونسي الذى كتب لها قصيدة يقول مطلعها :

يا جمال يا مثال الوطنية أجمل أعيادنا المصرية

وقام بتلحين هذه القصيدة رياض السنباطى .. إلا أن كاتبنا الكبير مصطفى أمين يدافع عن أم كلثوم فيما يتعلق بهذه الواقعة باعتبار أن مشاركتها في حفل رجال الثورة .. لم يكن بأوامر من رجال الثورة أو من عبد الناصر .. بل كان من وحي إحساسها بالشعور العام الذى كان سائدا آنذاك .. حين نجى الرئيس جمال عبد الناصر من الموت ..

مثل هذا الموقف يجبرنا حتما للحديث عن المواقف الوطنية العديدة التى عاشتها أم كلثوم وعبرت عنها فى أغانيها ..

هذه الأغاني وهذه القصائد التى كانت وقودا حماسيا للناس يرددونها فى المناسبات الوطنية العديدة التى تمر بهم .. وإن كنا لا نناقش هل اشتركت أم كلثوم بقصيدة « يا جمال يا مثال الوطنية » وإذاعتها رغما عنها .. أم برغبتها كما يقول الاستاذ مصطفى أمين ..

على أية حال .. إن الحديث عن وطنية أم كلثوم يجعلنا نعود إلى الوراء كثيرا من أجل أن نتتبع مشوار حياتها فى الغناء الحماسى المصرى ، حتى نعود ونلتقى مع أغانيها التى غنتها بعد الثورة .. !؟ ..

* * *

يقول الكاتب الصحفى كمال النجمى : لقد انسدل الستار على الغناء الوطنى والثورى فى مصر فى أواخر العشرينات بعد موت سيد درويش ، وتراكم الرماد على ثورة .. ١٩١٩ ..

ولكن الروح الوطنية انتعشت من جديد فى الثلاثينات قبل عقد معاهدة ١٩٣٦ فبدأت الأغاني الوطنية والأناشيد تظهر من جديد .. وإن لم تكن تحمل الثورية التى كانت لها خلال عواصف ١٩١٩ وسنوات الصراع الوطنى قبل موت سعد زغول^(١) ..

(١) الغناء المصرى - كمال النجمى ..

وقبل أن يتولى حزب الوفد الحكم متوجاً رأسه بمعاهدة ١٩٣٦ ، اندفعت وزارة على ماهر حينذاك وراء موجة الحماسة الوطنية ، فأقامت مسابقة لتأليف نشيد قومي أسفرت عن فوز النشيد المعروف الذى ما يزال يتردد حتى الآن ومطلعة « بلادى .. بلادى فداك دى » من تأليف محمود صادق .. وفاز معه نشيدان اشتهر أحدهما وهو من تأليف مصطفى صادق الرافعى .. وبعد أن أصبح نشيد بلادى .. بلادى فداك دى النشيد القومى الرسمى ، بدأت موجة خفيفة للأناشيد الحماسية تزحف على أفلام السينما المصرية ودواوين الشعر والزجالين .

وكان نشيد « الجامعة » الذى لحنه السنباطى وغنته أم كلثوم فى فيلم « نشيد الأمل » عام ١٩٣٦ من أثار تلك الموجة الخفيفة للأناشيد الوطنية وهو من تأليف شاعر الشباب أحمد رامى ..

والحقيقة أن أناشيد الثلاثينات كانت نسخة واحدة مكررة يتناولها الشعراء ، بحسب مقدرة كل منهم على النظم ، بلا اختلاف جوهري فى مضمون الكلام .

وفى فيلم « دنائير » غنت أم كلثوم نشيدا وطنيا آخر عن بغداد حيث كان الفيلم يروى قصة مطربة بغدادية قديمة فى عصر هارون الرشيد^(١) ..

ولم يقتصر نشاط أم كلثوم الفنى فى مجال الأغنية الحماسية على الأفلام ، بل أقدمت على تقديم نوعية جديدة من الأفلام الحماسية والوطنية ، فحزبت أن تتغنى بالوطن غناء عاطفيا أو شبه عاطفى .. من ذلك أغنيتهما التى لحنها زكريا أحمد وغنتها فى فيلم « عابدة » عن القطن المصرى ..

وفى بداية الأربعينات وبعد إنشاء الدعوة إلى إنشاء الجامعة العربية غنت أم كلثوم أول قصيدة عروبية أحييت بها حفلة أقامها مندوبو الدول العربية فى بداية تأسيس الجامعة .. ومن أبيات هذه القصيدة :

هذى يدى عن بنى مصر تصافحكم فصافحوها تصافح نفسها العرب

وكانت لهذه القصيدة ضجة فى حينها ، فقد كانت أول قصيدة تناول العروبة وتغنيها

(١) المصدر السابق ..

أم كلثوم ويلحنها الشيخ زكريا أحمد ومن تأليف الشاعر المرحوم محمد الأسمر ..

* * *

ثم انتهت الحرب العالمية الثانية ، ونهضت مصر تطالب الانجليز بالجلاء عنها ..
فانتشرت الأناشيد والأغاني الحماسية ، وكان أشهرها بيت أحمد شوقي الذى غنته أم
كلثوم من قصيدة « سلو قلبى » ..

ومانييل المطالب بالتمنى ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

وكانت كلمة « المطالب » هى مفتاح الحماسة فى هذا البيت ، لأن الأهداف الوطنية
كان اسمها فى ذلك العهد « المطالب الوطنية » .. كما كان بعضهم يسميها « الأمانى
الوطنية » ..

ثم توالى القصائد الحماسية تغنيها أم كلثوم من شعر شوقي وأشهرها فى تلك الأيام
قصيدة « النيل » وقصيدة « السودان » ..

وفى الخمسينات الأولى وقبل ثورة يوليو كان الهدف إلغاء معاهدة عام ١٩٣٦ ..
عندئذ غنت أم كلثوم أبياتا من قصيدة الشاعر الكبير حافظ إبراهيم والذى يقول فيها :
« وقف الخلق ينظرون جميعا كيف أبنى قواعد المجد وحدى » .

ويقول كمال النجمي : أن رياض السنباطى قد بلغ فى تلحين هذه الأغنية الوطنية
قمة النجاح فى الملازمة بين الحماسة والتطريب ، ثم جاءت ثورة ٢٣ يوليو عام
١٩٥٢ .. وفى بدايتها حينها أم كلثوم بقصيدة من شعر أحمد رامى وألحان رياض
السنباطى أيضا .. يقول مطلعها :

مصر التى فى خاطرى وفى دمسى أحبها من كل روحى ودمسى

وتدفقت ثورة ٢٣ يوليو ، وتدفقت معها الأغاني والأناشيد الوطنية ، وكان لأم
كلثوم نصيب كبير فى هذه الأغاني وهذه الأناشيد .. فبعد أن غنت قصيدة « يا جمال يا
مثال الوطنية » بعد أحداث عام ١٩٥٤ توالى القصائد التى غنتها أم كلثوم فى مناسبات
وطنية عديدة نذكر منها هذه القصائد :

- والله زمان يا سلاحي ..
- محلاك يا مصرى .
- ثوبار ..
- الزعيم للشعب وفى العهود ..
- طوف وشوف ..
- على باب مصر ..
- الحب الكبير ..

وهذا يعنى فى المقام الأول .. أن أم كلثوم كانت بالفعل تنتظر هذا الحدث القومى الذى تمثل لها ولغيرها من المصريين كمنقذ من الاستعمار والملك والحاشية ، سواء كان قائده جمال عبد الناصر أو غيره ..

ولكن الموقف فى تصورنا قد تغير كثيرا حين استطاع جمال عبد الناصر أن يحصد كل ما حوله ويصبح هو السيد والامر الوحيد داخل مجلس قيادة الثورة وداخل مصر كلها .. من يومها فقط نظر جمال عبد الناصر إلى أم كلثوم كأداة يمكن أن تكون طيع يديه من أجل مؤازرته فى تحقيق أحلامه الشخصية والوطنية .. مستغلا فى ذلك تأثيرها السحري على الشعب المصرى .. ثم تأثيرها فيما بعد على الشعب العربى كله ..

ويبدو أن صمت جمال عبد الناصر أثناء مقابلته الأولى لأم كلثوم فى فيلتها بالزمالك عشية رجوعه هو وزملائه من حصار الفالوجا ، كان صمت تأمل وتفكير فى القادم القريب .. وكيف لو نجح فى مهمته الثورية أن تكون بجواره سيدة الغناء العربى أم كلثوم .. تلك السيدة التى يحبها الشعب كله ، ولا فرق فى ذلك بين الأمير أو الغفير ..

ومما يؤكد نظرنا هذه .. أن جمال عبد الناصر قد اختار لأم كلثوم مهمتها الوطنية الأولى من أجل حفر اسمه وحبه داخل نفوس المصريين عشية حادث المنشية .. وغنت له .. « يا جمال يا مثال الوطنية » .. هذه المهمة كانت تحت سمعه وبصره وتوجيهات خاضعة منه ... رغم أننا لم نناقش أو نعارض دفاع الأستاذ مصطفى أمين عن أم كلثوم فى هذا الموقف الوطنى ، حيث رأى أن أم كلثوم كان دافعها فى غناء هذه القصيدة لإحساس

وطنى غلب عليها مثل آلاف المصريين الذين تأثروا بمحادث النشئية ، واحتفلوا بنجاة قائد الثورة وأول رئيس جمهورية مصر منذ حكم الفراعنة ..

وكان جمال عبد الناصر في فترة ما قبل فوزه بكل مناصب القيادة والرئاسة .. يحاول التقرب من أم كلثوم بشتى الطرق .. وكم دافع عنها .. من أجل إذاعة أغانيها بعد ما قرر بعضهم منعها من الاذاعة .. كما ساهم كثيرا في سفرها إلى الخارج للعلاج .. ولا شك أن هذه المجهودات الطيبة من جانب جمال عبد الناصر لاقت الصدى الطيب في نفس أم كلثوم لأنها وجدت من يدافع عنها ويخدمها ، وسط هذا المد الثورى الذى كان يقتلع أمامه كل شيء حتى المبادئ والأخلاق وكله من أجل تأكيد المفهوم الثورى في نفس الإنسان المصرى الذى أعتمته شعاراتها المزيفة ومشى وراءها مسلوب الإرادة ..

ويبدو أن أم كلثوم قد نجحت في الاختبار الذى وضعه سا جمال عبد الناصر .. وكان بدايته قبولها أن تغنى قصيدة باسمه تشدو بها على الملأ ويردها الناس في مجالسهم الخاصة .. وربما كانت هذه سنة صارت من بعد جمال عبد الناصر في ذكر اسم الرئيس في أغاني المطربين ..

● لم يجد أمامه سوى فيلا أم كلثوم لحماية أسرته عام ١٩٥٦ :

ويظل مؤشر العلاقة بين أم كلثوم وعبد الناصر في تصاعد مستمر .. فبعد أن نجحت في اختبار عام ١٩٥٤ .. اقتربت أم كلثوم أكثر من قلب وعقل جمال عبد الناصر وأحسن بقيمتها في تنفيذ سياسته والترويج له داخل نفوس وعقول المصريين .. ثم في عقول ونفوس العرب فيما بعد .. هذا التقارب استطاع جمال عبد الناصر أن يحوله إلى تقارب عائلى بين أم كلثوم وزوجها الدكتور الحفناوى وبين أسرته وأولاده الصغار آنذاك ..

من ناحية أخرى بدأ جمال عبد الناصر الاهتمام بأم كلثوم وتتبع آخر أخبارها الفنية .. بل والتدخل فيما بعد في مسيرة هذه الحياة الفنية .. وكلنا نعرف قصة إقناع عبد الناصر لمبعد الوهاب من أجل إتمام عمل فتى مع أم كلثوم .. والذى أثمر أخيرا عن قصيدة

« أنت عمري » وكان ذلك بعد عدة سنوات من توطيد العلاقة بين كل من الزعيمين ..

ورويدا رويدا نقترح من عام ١٩٥٦ .. وبعد مرور أكثر من أربع سنوات على قيام الثورة .. هذا العام الملئ بالأحداث السياسية والعسكرية ، على المستويين المحلى والدولى ، والذي كان فى قمته العدوان الثلاثى الذى وقع على مصر فى أكتوبر عام ١٩٥٦ ..

وفى أثناء بحثنا عن العلاقات الخفية بين جمال عبد الناصر وأم كلثوم .. عرفنا بالمصادفة أن جمال عبد الناصر .. لم يجد أمامه مكاناً آمناً لحماية أسرته سوى فيلا أم كلثوم .. وقد اختلف الرواة فى تحديد الوقت الذى وقعت فيه هذه الحادثة . بعضهم رأى أنها وقعت فى أثناء حرب عام ١٩٦٧ .. أما البعض الآخر وهم الأكثر رأياً والأصوب على وجه الترجيح - وعلى رأسهم الكاتب مصطفى أمين والحامى الأديب صلاح الأسوانى - الذين يرون أن هذه الواقعة قد ارتبطت بالعدوان الثلاثى على مصر ..

من أجل ذلك انطلقنا نبحث عن تفاصيل هذه الواقعة التى أكدها لنا الكاتب مصطفى أمين .. مؤكداً أن جمال عبد الناصر فى أثناء العدوان الثلاثى فى عام ١٩٥٦ ، لم يجد أمامه مكاناً آمناً فى مصر كلها على حياة أسرته سوى فيلا أم كلثوم بحى الزمالك ..

★ ★ ★

ولكن .. ما هى حكاية العدوان الثلاثى على مصر .. هذا ما سوف نحاول إلقاء الضوء عليه ، من خلال توارىخ مسجلة فى السجلات العسكرية .. وأوردها لنا موثقه القائد اللواء عبد المنعم خليل ..

يرى العديد من المؤرخين السياسيين والعسكريين ، أن العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ .. كانت له جذور عميقة ربما تمتد إلى ما بعد قيام ثورة يوليو بعدة أشهر .. ويرى البعض الآخر أن هناك أسباباً أخرى قد زودت رغبة الغرب واسرائيل بالذات فى إتمام مثل هذا العدوان .. بعضها يتعلق باتفاقية الجلاء مع بريطانيا ورفض عبد الناصر الارتباط مع أى حلف من الأحلاف العسكرية التى كانت قائمة آنذاك .. والبعض الآخر يتعلق باتجاه عبد الناصر منذ عام ١٩٥٥ إلى الكتلة الشرقية وعقد صفقة الأسلحة

التشيكية .. إلا أن أكثر الأسباب التي عجلت بهذا العدوان هو تأمين قناة السويس ..

على أية حال .. لقد كانت الحرب مازالت قائمة بين مصر وإسرائيل .. التي أقامت الدنيا ضد عبد الناصر .. بسبب توقيعه لصفقة الأسلحة التشيكية عام ١٩٥٥ وإدعاء إسرائيل أن عبد الناصر يسعى إلى استخدام هذه الأسلحة لتدميرها وبالفعل كانت مصر تقف منذ قيام الثورة ضد إسرائيل بشكل عملي أذهل العالم كله .. فقد منعت جميع سفنها من المرور في قناة السويس .. كما فرضت حصارا بحريا على مضائق تيران منذ عام ١٩٥٣ .. كما منعت تخليق الطائرات الاسرائيلية فوق المضيق منذ عام ١٩٥٥ ..

وجاءت الضربة القاصمة للغرب كله والاسرائيل على السواء .. حين أعلن عبد الناصر في السادس والعشرين من يوليو عام ١٩٥٦ تأمين قناة السويس وأنهى بذلك آخر معازل الوجود الأجنبي في مصر بعد نجاحه في توقيع اتفاقية الجلاء عن مصر في يونيو عام ١٩٥٦ ..

وعلى أثر الأحداث السياسية والعسكرية .. تم الاتفاق بين فرنسا واسرائيل خلال أغسطس عام ١٩٥٦ على الغزو المشترك لمصر .. كما بدأت وزارة الدفاع البريطانية التخطيط لعملية قناة السويس^(١) ..

وفي سبتمبر عام ١٩٥٦ استعدت القوات الفرنسية البريطانية المشتركة للعدوان ، إلا أنه تم تأجيل بدء العملية العسكرية ضد مصر ، حتى تستعد القوات الاسرائيلية للمشاركة في هذا العدوان ..

وفي ٢٩ أكتوبر هاجمت القوات الاسرائيلية بالفعل منطقة قناة السويس حيث أسقطت كتيبة مظلات شرق ممر متلا قبل غروب شمس نفس اليوم على أن تلحقها القوة الرئيسية في مساء نفس اليوم أيضا .. وقد نجحت القوات المصرية في التعامل مع هذه الكتيبة وأربكت أعمالها وأحدثت بها خسائر فادحة وعطلتها عن إتمام مهمتها .. كما عطلت تقدم القوات الرئيسية بقيادة شارون حتى نهاية أكتوبر عام ١٩٥٦ ..

وفي ليلة الثلاثين والواحد والثلاثين من شهر أكتوبر وبعد أن تأكدت اسرائيل من

(١) حروب مصر المعاصرة - المصدر السابق ..

تدخل القوات البريطانية والفرنسية .. دفعت اسرائيل بثلاث لواءات .. اثنان مشاه وواحد مدرع تعاونها مدفعية الميدان والقوات الجوية الاسرائيلية في أبو عجيلة عدة مرات ، لكنها باءت بالفشل لصمود القوات المصرية هناك ..

وفي السادسة من مساء اليوم الثلاثين من أكتوبر عام ١٩٥٦ وجهت بريطانيا وفرنسا إنذارا رسميا لمصر بضرورة الاستجابة لعدة مطالب منها : وقف الأعمال الحربية .. وانسحاب القوات المصرية إلى الضفة الغربية لقناة السويس ، وأن تقبل مصر مؤقتا احتلال بور سعيد والسويس والاسماعيلية من جانب القوات المشتركة ، حتى يمكن الفصل بين القوات المتحاربة المصرية والاسرائيلية ..

وكان مطلوب الرد خلال ١٢ ساعة فقط على هذا الانذار .. وبالطبع رفضت مصر الانذار البريطاني الفرنسي .. فبدأ العدوان من جديد ..

إذ في الساعة السابعة من مساء ٣١ أكتوبر عام ١٩٥٦ بدأ الطيران البريطاني والفرنسي في قصف القواعد الجوية المصرية في كل مكان حتى مطار القاهرة الدولي ..

وفي صباح أول نوفمبر ١٩٥٦ والأيام التالية تكرر القصف الجوى للقواعد الجوية المصرية من قبل القوات البريطانية والفرنسية في الدلتا ومنطقة القناة .. وعلى أثر هذا الهجوم أصدرت القيادة العليا للقوات المسلحة قرار انسحاب القوات المصرية من سيناء لتفادي عزلها عن الكماشة الاسرائيلية الفرنسية البريطانية ..

وفي ٥ نوفمبر من نفس العام تم إسقاط قوات مظلية بريطانية فرنسية على الضفة الشرقية لقناة السويس ..

وكانت المقاومة المصرية للقوات المسلحة والشعب البور سعيدى ضد قوات الغزو مثالا رائعا للبسالة والشجاعة رغم التفوق التكنولوجى لقوات العدو المشترك آنذاك ..

وفي منتصف الليلة ٧ نوفمبر ١٩٥٦ صدرت الأوامر بالتوقف عن العمليات العسكرية .. وتوقف القتال بعد ما أتمت اسرائيل احتلال شبه جزيرة سيناء والتي لم تنسحب منها إلا في مارس عام ١٩٥٧ وحل محلها قوات الطوارئ الدولية في رفع وقطاع غزة وشرم الشيخ .. أما القوات المشتركة الفرنسية - البريطانية فقد تم انسحابها عائدة إلى بريطانيا في ديسمبر عام ١٩٥٦ ..

ورغم أن مصر آنذاك لم تحقق نصرا عسكريا ، ولم تفشل عسكريا في نفس الوقت إلا أن هذا العدوان ، قد دعم كيان وتواجد جمال عبد الناصر في نفوس الناس .. وأثار شهية العالم المثرب لهذه الأحداث .. بعد ما نجح عبد الناصر من قبل في الوصول إلى مؤتمر بانكوك واتباعه ما سمي آنذاك بسياسة الحياد الإيجابي ..

* * *

ولا زلنا في رحلب واقعة إرسل أسرة جمال عبد الناصر إلى أحد المنازل لحمايتها من هول القصف الجوي الذي كان يخشى عبد الناصر على نفسه أن تطوله أو تطول أسرته إحدى هذه القذائف ..

ولعلنا نتساءل عن موقع أم كلثوم من هذا الحدث العسكري والسياسي الخطير .. ويتبادر إلى الذهن التساؤل عن وجودها على خريطة الحياة العامة في مصر آنذاك وموقفها من هذا العدوان .. وتقول أم كلثوم في أوراقها الخاصة عن هذا العدوان وهذه الحرب :

.. في عام ١٩٥٦ كانت صفارات الإنذار تطلق منذرة بالغارة ، أخرج إلى الشرفة حين يجب أن أحتىء .. وأبحث عن الطائرات في السماء ، وأتمنى لو تطولها يدي .. وأراقب بفرحة طفولية مدافعنا وهي تحاصرها وتجبرها على الفرار أو الاختفاء في أعلى طبقات القضاء .. فرحة يلهث لها صدرى وأنا أردد دعاء النصر .. وكنت أحس أنني أريد أن أغنى .. وأحارب بصوتى .. وجاءنى كمال الطويل بنشيد « والله زمان يا سلاحي » وحفظته على أضواء الشموع لأن الكهرباء كانت تنقطع عندما تبدأ الغارة ..

وبدأنا الاتصال بالموسيقين ليذهبوا إلى محطة الاذاعة في الشرفين لتسجيل النشيد .. ولكن أكثرهم رفض الذهاب إلى الشرفين لأن إذاعة إسرائيل كانت تهدد بضربها بعد ما أصابت إذاعة أبو زعبل .. وقلت لهم اننا لو لم نسجل في القاهرة فسوف أسجلها في بنها أو أسيوط وطلبت ستيديو مصر واتفقنا على تسجيلها هناك ..

الدنيا ليل وظلام ، ولكن بلا خوف ، بل بثقة وإيمان وحاسة تبدد كل ما تردد .. أرسل لي الزعيم جمال عبد الناصر سيارة من سيارات رئاسة الجمهورية ، وكان يقودها سائقه الخاص .. هذا جواز مرور أكيد المفعول لأن المرور كان ممنوعا ، وكان

معى فى السىارة المهندس محمد الدسوقى ابن شقىتى ، وكال الطويل والسائق لا یرید أن یتوقف فهو سائق الزعيم .. كيف یتوقفه الجنود ..

على أنه كان یضطر للوقوف حین أقول له من داخل السیارة قف .. ولا یكاد یقول من هو حتى ترتفع أیدی الجنود له بالتحية ویفتح له الطريق .. وسجلنا النشید الذى بقى لیسجل للأجیال .. وأصبح من بعدها نشید المعركة العریة فى كل أرض عریة .. والنشید الوطنى لمصر ..

* * *

تزوج جمال عبد الناصر فى عام ١٩٤٣ وأنجب بنتان هما هدى ومنى وثلاثة أولاد هم : خالد وعبد الحمید وعبد الحكیم ..

وحین بدأت القوات المشتركة لبریطانيا وفرنسا فى قصف المواقع العسكرية والمدنیة بالقاهرة و غیرها من مدن مصر ، أثناء العدوان الثلاثى .. فكر عبد الناصر فى مكان أمین لحماية أسرته من هول هذا القصف ، لأنه اعتقد أن طیران العدو حتما سیتفكر فى قصف منزله الذى كان یعیش فیة بمنشیة البکرى ..

وقد اختلفت روايات الرواة فى الحدیث عن الطریقة التى أرسل بها جمال عبد الناصر أسرته إلى مكان آمن .. هناك فى حى الزمالك على الضفة الغربیة لنیل الجیزة .. كما اختلفوا فى تحدید هذا المكان .. بعضهم یرى أن جمال عبد الناصر ، قد أرسل أسرته على الفور ودون سابق ترتیب إلى فیلا أم كلثوم بالممالك باعتبارها مكان أمین فى ظل هذه الظروف العسکریة المعاكسة ..

والبعض الآخر یرى أن جمال عبد الناصر حین أرسل أولاده إلى حى الزمالك لم یكن یعرف أن المكان الذى نزلت به أسرته یجاور فیلا أم كلثوم .. ولا شك أن هذه الروایة الأخيرة لا یصدقها أحد .. فكيف لا یعرف الزعيم بعد أربع سنوات من قیام الثورة حى الزمالك وكل بنایاته .. رغم أن هذا الحى كان معروفا قبل الثورة بضاحیة الفئات الارستقراطية ..

ورغم أننا وكما قلنا أنها رواية قابلة للتشكك إلا أننا نرونها كما سمعناها من الكاتب الكبير مصطفى أمين .. الذى قال عن هذه الواقعة :

حين بدأت القوات الجوية الفرنسية والانجليزية فى قصف المواقع العسكرية والمدنية داخل القاهرة .. أمر جمال عبد الناصر حرسه الخاص بنقل أولاده إلى مبنى حكومى محكم فى حى الزمالك .. من أجل إبعادهم عن جو المعركة وحفاظا على حياتهم .. وبالفعل رحلت أسرة عبد الناصر إلى حى الزمالك ، وفى المبنى الذى حدده جمال عبد الناصر ..

وتشاء الظروف وكما يروى مصطفى أمين أن يكون هذا المبنى الذى تقيم فيه أسرة جمال عبد الناصر بالقرب من فيلا أم كلثوم .. لقد كان هذا المبنى أحد البيوت أو القصور التى تم الاستيلاء عليها بعد قيام الثورة ..

المهم .. عرفت أم كلثوم بمكان أسرة الزعيم .. وعلى الفور بادرت بالاتصال بهم .. وقدمت لهم كل الرعاية والعون .. وظلت هذه الأسرة فى هذا المبنى المجاور لفيللا أم كلثوم أياما طويلة حتى أنتهى العدوان ورجعوا إلى منزلهم من جديد بمنشية البكرى ..

ويواصل مصطفى أمين روايته بقوله :

— إن مثل هذه الرعاية التى أولتها أم كلثوم لأسرة عبد الناصر ، قد تركت فى نفس الزعيم أثرا طيبا خاصة حينما عرف أن أم كلثوم ، كانت الوحيدة التى وقفت بجوار أسرته فى هذه المحنة .. ومنذ هذه اللحظة زاد ارتباط أم كلثوم بعبد الناصر .. وتحولت العلاقة بينهما إلى علاقة عائلية .. وعلاقة خارج البروتوكول وخارج المكاتب .. لقد كان عبد الناصر يتصل يوميا بأم كلثوم ، وبالتالى أم كلثوم كانت تزور منزل الزعيم من حين لآخر فى منشية البكرى ..

أكثر من ذلك أن الكاتب مصطفى أمين يرى أن هذا الحادث بالنسبة لأم كلثوم وعبد الناصر قد أذاب ما بينهما من فوارق ، الأمر الذى جعل أم كلثوم تحرص كل الحرص على إحياء المناسبات السعيدة فى منزل جمال عبد الناصر .. كما أصبحت .. صديقة لزوجته السيدة الراحلة

وهذا هو الاختيار الثانى لأم كلثوم من جانب عبد الناصر ورفاقه ، بصرف النظر عن مناقشة ، أهى الصدفة التى كانت وراء لقاء أم كلثوم بأسرة عبد الناصر ، أم الترتيب المسبق .. ولا شك أن أم كلثوم كانت قد نجحت فى هذا الاختبار بدرجة ممتاز .. وعبره من خلال هذا الاختبار حاجز الخوف والتردد فى إقامة علاقتها مع الزعيم المرعب جمال عبد الناصر والذى بدأ نجمه يسطع حيناً بعد حين ..

وكان هذا الاختبار قد أعد إعداداً محكماً لأم كلثوم من جانب رفاق عبد الناصر للتعرف على مدى ولائها للثورة وللزعيم .. ولاشك أن أم كلثوم إزاء هذا الموقف قد تصرفت بحكمة وذكاء ووطنية ..

الأمر الذى جعل تصرفها حيال أسرة عبد الناصر تصرفاً إنسانياً ووطنياً بصرف النظر عن رؤيتها المستقبلية لتأثير هذا الموقف فى نفس عبد الناصر .. لأن أم كلثوم كانت فى حاجة إلى أن تعود إليها المكانة التى كانت قد وصلت إليها قبل الثورة . حين كانت تجالس الأمراء ، ويتقرب منها الملك حين سمح لها بأن تكون صاحبة العصمة ، ومنحها وسام الكمال الملكى ..

إن الأيام والروايات التى سوف نسوقها هنا بعد الانتهاء من هذا الفصل سوف تفصح عن وجهة نظرنا هذه ، بل وتكون خير دليل لما ذهبنا إليه ، لأننا سوف نجد أن عبد الناصر قد تدخل كثيراً فى حياة أم كلثوم الفنية .. وكانت بمثابة الواجهة الحضارية التى يعرض من خلالها عبد الناصر على ضيوفه الحياة الفنية فى مصر ..

الفصل الرابع

الفول والكسرة ... وأم كلثوم والإقتراب من عام ١٩٦٧

كان من المفروض حتى تتوفر الحيدة .. أن نبدأ عنوان هذا الفصل بالسؤال .. هل ؟ ..

هل كانت أم كلثوم أحد أسباب هزيمة عام ١٩٦٧ ؟ .. بجانب الاستغراق في إلتهام طعام الفول بكافة أصنافه .. وتوابعه من المأكولات الشعبية التي انتشرت وانتشر الإقبال عليها بعد قيام ثورة يوليو .. إذ اتضح من تتبعنا لبيانات استهلاك الإنسان المصرى .. أن الفول أصبح صاحب المقام الأول على مائدة المصرى ، مهما كان وضعه أو منزلته أو منصبه وأن الاستهلاك من هذا النوع من البقول ، قد زاد بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو .. بشكل يدعو للتساؤل .. !!!! ..

وليس مجال مناقشتنا هنا .. مدلول هذه الزيادة المفاجئة في استهلاك الفول .. باعتبار أن الانسان في مصر أصبح المشارك الفعلى للحيوان في الصراع على طبق الفول .. طبعا مع الفارق في التوقيت وطريقة التحضير ..

وليس « الفول » وحده هو العنصر المشارك لأم كلثوم في هزيمة عام ١٩٦٧ .. بل هناك العنصر الثالث .. وهو انتشار كرة القدم إلى حد العصبية والجهل ..

هذا الهوس الذى كان يطل علينا برأسه ، وزاد عن الحد أيضا بعد ثورة ٢٣ يوليو .. فلم نعد نرى أو نسمع أى حديث مهما كان قاتله ، إلا والقاسم المشترك فى هذا الحديث بعد الفول وأم كلثوم .. كرة القدم .. والأهلى والزمالك ..

لقد انتشرت هذه اللعبة فى كل مكان فى مصر وبسرعة خيالية .. فلم تترك شارع أو حارة أو قرية أو مدينة ، وساعد على زيادة هذا الهوس تشجيع رجال الثورة لهذه اللعبة .. بل وانضمام الغالبية العظمى منهم لهذا النادى أو ذاك .. وبذل العطايا والهبات للفائزين .. بل والحرص كل الحرص على حضور المباريات .. مما جعل الشباب يتطلع أولا إلى هذه اللعبة ليس على سبيل التشجيع .. بل على سبيل المشاركة الفعلية فى هذا النادى ، أو ذاك جلبا للشهرة والمال والنفوذ .. والتقرب من ذوى السلطان ..

إن الستينات من هذا القرن .. كانت فترة مليئة بالأحلام التى أضرت بمصر كثيرا .. فقد أصبح حلم كل شاب خلال هذه الفترة الزمنية القريبة ، أن يكون لاعب كرة قدم مشهور أو ممثلا أو مطرب مشهور .. ولم يعد فى حسابان هؤلاء الشباب وفقا لهذه النظرية .. أن يتفوق أحدهم فى علم ما ، أو يحصل على درجة علمية ينفع بها المجتمع .. أو يتقدم باختراع يحل به مشاكلنا ..

والحديث عن هوس هذه اللعبة ، قد لا يسعه مثل صفحات هذا الكتاب .. ولكننا نحاول أن نقرب من هذا الجنون الذى أطاح بمصر فى النهاية ، وعطل مواهب شبابها ..

لقد كان العديد من القادة يحرصون على تشجيع نوادى كرة القدم .. وتقديم المساعدات المالية والهدايا للفريق الفائز .. بل وصل الأمر إلى إصدار الأوامر العسكرية للأغنياء المغلوبين على أمرهم للمساهمة فى إثراء هذه الرياضة .. ودفع التبرعات والهبات للاعبين والنوادى ..

وليس هذا فقط .. بل حرصت العديد من هذه القيادات الانضمام إلى هذا النادى أو ذاك والتقرب من اللاعبين .. حتى أصبح الطابع العسكرى هو الغالب على هذه النوادى من كافة النواحي ، مما أثار شهية الشباب بضرورة الإسراع نحو تعلم هذه اللعبة لمجالسة مثل هؤلاء القوم ..

كما أصبح الناس في يومهم وغدهم يبحثون عن البطل .. ويظل الحديث طويلا عن هذا الشاب أو ذاك ، الذى تمكن من إحراز الهدف .. مما أدى إلى إنتشار العصبية القبلية وتفرق الناس مع أو ضد هذا النادى .. والسبب الكرة اللعينة ..

وقد حاول بعض علماء النفس تحليل هذه الظاهرة في حينها .. بالقول بأن سبب هذا الهوس والجنون الذى يجرى وراء قطعة من الجلد الملفوف .. هو افتقاد الشباب إلى القدوة ، وبحبهم الدائم عن البطل الذى يقلدونه .. وليس أمامهم إلا بطل كرة القدم ..

ولاشك أن الثورة وقادتها كانوا وراء نشر مثل هذا الهوس ، وهذا التعصب حتى ينسى الناس المهموم .. لا .. ليست المهموم بالضبط .. بل حتى ينسى الناس ما كان يحدث في الظلام ليلا .. وتحت الأرض .. من تجاوزات بلغت حدا لا يصدق عقل .. إنها أخطاء الثورة ، في كافة المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ..

ولعلنا لا نغالى حين نقول أن هذا الهوس ، بدأ يدب بنشاط في أوصال الشعب المصرى في أوائل الستينات من هذا القرن .. بعدما تمكن جمال عبد الناصر من الانفراد بالحكم .. والقضاء على فلول المعارضة بكافة أشكالها .. ثم بعد أن قرر الانتقام من شخصية الانسان المصرى الكريم ، في صور عديدة ، نعرف بعضها ولا نعرف البعض الآخر .. ويكفى أن نردد ما سمعناه عن زوار الفجر ، وظلام المعتقلات والتأميم والمصادرة .. وتحطيم كرامة الانسان المصرى بكافة الأشكال والطرق ..

ويرى بعض المؤرخين غير المصريين أن أم كلثوم كانت الضلع الثالث في هذا المثلث المرعب ، الذى حاولت الثورة أن تزرعه في نفس الانسان المصرى .. لنفس الأسباب والأغراض التى أوردناها منذ لحظات .. أى من أجل التعمية على مساوئ رجال الثورة وأفعالهم التى فاقت كل الوصف ..

وأقول أن أقوى الجهات التى كانت تردد هذا الاتهام .. هى إذاعة إسرائيل في الفترة التى أعقبت إعلان العداء السافر بين جمال عبد الناصر وبين اليهود .. والذى كان من جرائه حرب فلسطين والعدوان الثلاثى ومن بعدها هزيمة عام ١٩٦٧ وانتصارنا في حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ ..

لقد لعبت إسرائيل الدور البارز في نشر هذه الدعاية بكافة الوسائل والطرق .. واستخدمت في أسلوبها أحدث وسائل الاعلام المسموع والمرئي .. وجندت كل إمكانياتها من أجل أن تصل هذه المقولات إلى الانسان المصرى ، الذى كان دائم الاستماع إلى إذاعة إسرائيل ، التى كانت تحرص في نفس الوقت على إذاعة أغاني أم كلثوم وبصفة قد تصل إلى حد الهوس .

وحين يتطرق حديث الهزيمة عام ١٩٦٧ .. لا يمكن أبدا أن نفعل الضلع الرابع لهذا المثلث .. إن جاز لنا أن نضيف ضلعا رابعا للمثلث في حساب الرياضيات .. وهو جمال عبد الناصر نفسه .. سواء كان يعلم أو لا يعلم بما كان يفعله رجاله من ورائه أو من خلفه أو من أمامه .. ونحن نذكر هنا ذلك حتى نكون منصفين للوطن والتاريخ .. ولا يعيب الإنسان أبدا أن يخطئ .. ولم لا ؟.. فقد اعترف جمال عبد الناصر نفسه بأنه المسئول الأول والأخير عن هذه الهزيمة ..

* * *

وحين نترك الأضلاع السابقة لمثلث الهزيمة المروعة التى حاقت بنا عام ١٩٦٧ .. وتحدث عن أم كلثوم ، والثورة وعبد الناصر لنعرف كيف وصل الذكاء أعلى درجاته داخل عقل عبد الناصر ، حين قرر أن يستخدم أم كلثوم كمؤسسة إعلامية مستقلة من أجل تدعيم الثورة والمبادئ وعبد الناصر ذاته في نفوس وقلوب المصريين ، مستغلا في ذلك هذا الحب الجنوني ، الذى كان يصيب الانسان المصرى وهو جالس يستمع إلى أم كلثوم سواء ليلا في إحدى حفلاتها أو نهارا عبر الاذاعة ..

وسبق الحديث عن الاختبارات الصعبة التى مرت بها أم كلثوم حتى أمن لها عبد الناصر ورفاقه .. وعرفوا من هذه الاختبارات أنها خير من يصلح لهذه المهمة السياسية والثقافية والدعائية العظيمة من أجل نجاح الثورة واستمرارها ..

هذه الاختبارات كان أقساها في فترة العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ .. حيث كان اختيارا إنسانيا وفتيا .. إذ أثبتت أم كلثوم ولاءها وحبا لعبد الناصر ولأسرته .. بل وانفعلت فتيا بالحدث وغامرت بحياتها ، من أجل تسجيل نشيد حماسى تحت وطأة

الغارات الجوية ، كى تشارك فى تنشيط وطنية الانسان المصرى والدعوة لعبد الناصر ورفاقه ..

وها هى تركب سيارة الزعيم وتجوب بها شوارع القاهرة أثناء هذا العدوان بل أكثر من ذلك أن النشيد الحماسى الذى غنته أصبح منذ اللحظة النشيد القومى لمصر .

ومن بعدها .. باتت أم كلثوم - وفقا لدورها كمؤسسة إعلامية - تنشر الحماسة داخل نفوس الناس .. من القصائد والأناشيد الوطنية والحماسية التى بدأت تغنيها حتى فى حفلاتها العامة .. ولم تكثف بذلك .. بل كانت أول مطربة بل .. وأول فنان مصرى أو عربى يزوج باسم الرئيس فى الأغاني والقصائد ، حتى صارت من بعدها سنة سعى إلى استمرارها كل من جاء من بعده من الرؤساء .. وكانت وفقا لهذا الدور تكلف الشعراء والملحنين للبحث عن أفضل الكلمات والقصائد ، التى تبرهن من خلالها على مشاركتها فى أحداث مصر السياسية والعسكرية .. خاصة وبعد أن أطمأنت أم كلثوم لوضعها الجديد بعد الثورة واقترباها من الزعيم فى مصر .. وإحساسها بأنها أصبحت تشارك جمال عبد الناصر الأحداث التى تمر بها مصر بعد العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ ..

* * *

فى هذا الوقت بات جمال عبد الناصر بعد عام ١٩٥٦ يسعى إلى تأكيد مكانته فى العالم الخارجى .. بعدما نجح فى تصوره وتصور الشعب المصرى ، وفقا لدور الاعلام القومى ، الذى بدأ ينشط بقوة فى هذه الآونة .. أنه أصبح زعيما عالميا تتطلع إليه الشعوب المقهورة تحت وطأة الاستعمار .. خاصة الدول العربية والافريقية وبعض دول آسيا .. وقد استطاع جمال عبد الناصر بالفعل أن يلعب دورا ، مختلف فى تحديد مداه أثر تنفق على المستوى الدولى فيما يتعلق بآمال هذه الشعوب .. وقدم لهم النموذج الحيوى الذى من الممكن احتذائه فى سبيل ضرب القوى الاستعمارية ، وبالتالي التحرر من وطأة هذه القوى ..

وقد ركز جمال عبد الناصر جهاده فى هذا الميدان فى ثلاثة مجالات ، وكما يقول الدكتور أحمد شلبى .. أولهم فى مجال القومية العربية ، حيث عمل هو ورفاقه على

تصدير حركات التحرر المصرية إلى الدول العربية ، بحيث تستطيع أن تنهض وتثور وتحصل على استقلالها ، وقد كان حيث نجحت العديد من هذه الدول في الحصول على استقلالها ، وبمباركة وتأييد وإمكانات جمال عبد الناصر ..

أما المجال الثاني الذى ركز عليه عبد الناصر في انتشاره على المستوى الدولى هو قارة افريقيا ، إذ صدر إليها كذلك حركة التحرر ، وقدم لأغلب دولها النموذج الثورى الذى يمكن أن يكون طريقها نحو الحصول على الاستقلال .. وقد كان إذ تمكنت العديد من هذه الدول من الحصول على استقلالها .. ومن ثم أقنع رؤساء هذه الدول بضرورة تكوين ما أسماه بمنظمة الوحدة الافريقية ..

وثالثا : المجال الإسلامى .. وإن لم يكن قد أحرز فيه نجاحاً مماثلاً لأسباب كثيرة بعضها معروف والبعض الآخر مجهول ..

هذه الميادين التى ركز على اجتياحها عبد الناصر في الفترة التى تلت ١٩٥٦ ، وسانده في هذا الاجتياح إعلام ناجح من كافة النواحي .. لم تكن هدفه الأول والأخير .. بل مد جذور حركته الثورية إلى أبعد من ذلك ، حيث بدأ بعلاقة سياسية هادفة مع أندونيسيا ، ونم ما اصطلح على تسميته آنذاك بالحياد الايجابى ..

ليس هذا فقط .. بل فرغ جمال عبد الناصر نفسه من أجل مد جذور علاقاته بالشرق ، والذى نعينه هو الشرق صاحب الاشتراكية والماركسية والشيوعية ، والمتمثل في تشيكوسلوفاكيا أولا .. ثم الصين والاتحاد السوفيتى رائد الشيوعية الأول آنذاك ..

هذا النجاح كان مثار قلق شديد للدول الغربية ، ومن بعدها الولايات المتحدة الأمريكية ، لأن المؤرخين آنذاك اعتبروا أن جمال عبد الناصر هو صاحب الفضل في إخراج الدب السوفيتى الشيوعى من بحر البلطيق حيث الحصار العربى ، والسماح له بالانتشار بأفكاره إلى افريقيا عن طريق بوابة مصر الناصرية ..

ولاشك أن إقدام جمال عبد الناصر على مثل هذه الخطوة ، كان بداية دق مسمار في نعشه ونعش المصريين جميعا على كافة المستويات داخليا وخارجيا ..

لأن جمال عبد الناصر رأى من خلال تأكيد علاقاته بالشرق الشيوعى أن ينقل
تجاربه الغنية على المجتمع والانسان المصرى إلينا .. وكان ما كان من التأييم والمصادرة
وخلافه ..

* * *

وكان لابد إزاء هذه التطورات الخطيرة فى واقع المجتمع المصرى ، فى كافة نواحيه أن
تنشط المؤسسة الاعلامية الأولى آنذاك ، وهى أم كلثوم .. وتوابعها حيث أضلاع
المثلث المرعب ، الذى كونت كرة القدم رأسه المسمومة ، وضلعيه القول والطرب ..

وفى الحقيقة أن رجال الثورة ومن فوقهم جمال عبد الناصر ، كانوا فى غاية الذكاء
فيما يتعلق بدور هذه المؤسسة وكيفية التعامل معها .. فلم تكن أم كلثوم وحدها داخل
هذه المؤسسة .. بل سعى رجال الثورة إلى تنشيط المؤسسة ، وإضافة أعضاء جدد
إليها .. وكان تركيزهم آنذاك على الشباب المقبل على الحياة فى عالم الفن سواء فى مجال
الشعر ، أو التلحين أو الغناء ..

حينئذ ظهر عبد الحليم حافظ ، وفريد الأطرش ، ومحمد عبد الوهاب وآخرون ..
وكلهم يغنون للثورة ولرجالها .. وقد احتفظ عبد الناصر لأم كلثوم بدور الزعيم داخل
هذه المؤسسة الاعلامية الخطيرة .. حيث كان يوليها برعايته الشخصية ، ويتدخل كثيرا
فى توجيهها نحو الفن الهادف من وجهة نظره هو .. كما كانت المطربة الأولى دائما التى
جعلها قبلة الزائرين من الضيوف العرب والأجانب ..

ليس هذا فقط .. بل سعى جمال عبد الناصر بذكاته الحاد إلى فتح أسواق جديدة
لصوت أم كلثوم .. وكثيرا ما كان يربط بين صوته فى خطاباته ، وصوتها فى الغناء الذى
يعقب كلمات الخطاب ..

وكما ذكرنا من قبل .. فقد نجح جمال عبد الناصر فى أن يكون نصير الحرية
والاستقلال للدول العربية والأفريقية ، وبعض الدول الإسلامية ..

ومن هذا المنطلق .. كان جمال عبد الناصر وأم كلثوم فى كفة واحدة .. داخل أية دولة عربية .. من حيث حرص المواطنين هناك على سماع صوت عبد الناصر ، وهو يخطب ويشتم فى العالم شرقه وغربه فى كل المناسبات الوطنية .. وفى الليل .. يسهر هؤلاء على صوت أم كلثوم التى باتت من حرص الناس على سماعها ، أن أصبحت توازى كلمات خطاب جمال عبد الناصر ..

فما كاد عام ١٩٥٩ ينصرم .. ويأتى من بعده عام ١٩٦٠ حتى استدار جمال عبد الناصر إلى تأكيد ذاتيته ، مستغلا فى ذلك أم كلثوم ورفاقها من أهل الفن من أجل تحقيق أهداف عديدة ومتنوعة .. على وجه الخصوص فى الداخل حتى لا يشعر الناس بما كان يحدث لجيرانهم وأشقائهم وأقاربهم ، إلى درجة أن تحول الناس بفعل هذا المخدر إلى مجرد إنسان يصفق فقط .. بينما الأغلبية هناك تكن تحت وطأة ضربات الكرايخ والأحذية .. لا هذا يشعر بذاك ولا ذاك يشعر بنفسه .. حقا لقد نجح جمال عبد الناصر فى استغلال أم كلثوم كمؤسسة إعلامية على المستويين المحلى والعربى .. حتى صاروا معا أسطورة .. مع اختلاف المنصب والمكانة والأداء والأهداف ..

★ ★ ★

● أوسمة ونياشين بالجملة ..

ووسط هذا المجهود السياسى الضخم ، الذى بدأ يبذله جمال عبد الناصر منذ بداية الستينات ، ومن بعد العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ .. كان يرى فى أم كلثوم على المستوى الشخصى الصدر الحنون الذى يلقى فوق رأسه المهموم والمتعب بالمشاكل داخليا وخارجيا بعيدا عن هموم المكاتب ورسميات المنصب ..

فلم تكن أم كلثوم بالنسبة لجمال عبد الناصر مجرد فنانة فقط ، تشاركه تدعيم الثورة فى داخل المجتمع المصرى .. وتخدير أقدلة الناس حتى ينسوا المظالم ويعيشوا واقع الشعارات المزيف .. بل كانت بالنسبة له كيان هام وعظيم ، وبالنسبة لأسرته فنانة قادرة تساهم كثيرا فى إحياء حفلاتهم ومناسبتهم الخاصة .. كما كانت الوجه الخفى الذى يتحدث معه جمال عبد الناصر فى وقت الأزمات من خلف الستار ، دون أن يعلم ذلك حتى سكرتيره الشخصى ..

كل هذه الأعمال الجليلة التى نفذتها أم كلثوم بحرفية وذكاء تحسد عليهما .. كان لابد من تقديم المكافأة المناسبة ، لهذه الأدوار وهذه الأعمال .. وإلا فكيف يكافئها الملك السابق فاروق ، وينعم عليها بنيشان الكمال ولقب « سيدة العصمة » دون أن يكافئها رجال الثورة .. وهى التى قدمت إليهم هذه الخدمات الاعلامية والفنية العظيمة ..

مثل هذا التكريم لم يكن بعيدا عن ذهن جمال عبد الناصر .. ولكنه كان يتروى دائما فى إعطاء الهبات والعطايا .. وكثيرا ما كان يبحث لها عن مناسبة ..

وقد كان .. فى الشهر الأول .. وفى إحدى الحفلات المسائية التى كانت تقيمها كوكب الشرق كل خميس .. والتى كان يحرس جمال عبد الناصر ورفاقه على حضورها .. تلقت أم كلثوم أول تكريم من رجال الجيش وفى حضور رئيس الجمهورية آنذاك ورجاله .. بهذا التكريم كان فى صورة « رمز الجيش » ..

وتعالوا معنا نقرأ تفاصيل هذا التكريم كما نقلته لنا إحدى الصحف الصادرة وقتذاك :

— فى نهاية الوصلة الثانية التى غنتها أم كلثوم « دليلى إحتار وحريرى » توجهت أم كلثوم إلى الشرفة الرئيسية التى يجلس فيها الرئيس جمال عبد الناصر .. حياها الفريق عامر .. ثم تقدمت أم كلثوم وحيث الرئيس جمال عبد الناصر وسط تصفيق الحاضرين .. ثم حيث نائبى الرئيس والجالسين فى المقصورة ، وقدم لها الفريق على عامر رئيس هيئة أركان حرب القوات المسلحة الرمز التذكارى الذى قدمه الجيش تقديرا لفن أم كلثوم ..

وقالت أم كلثوم بعد تلقيها رمز الجيش :

— إننى أعتر بهذا التقدير وأعترفه موجها للفن ، وليس موجها لشخصى .. وأننى أحب الجماهير ، واعتبر هذا اللقاء دائما لقاء قلوب .. هذا إلى جانب إننى أحيا أجمل لحظات حياتى فى أيام الجيش ..

وكان حصول أم كلثوم على هذا الرمز .. هو أول تكريم رسمى من جانب الثورة .. مما يدفعنا إلى البحث فى الأوراق الخاصة بها .. من أجل التعرف على الأوسمة والنياشين التى حصلت عليها من داخل مصر وخارجها .. ولسوف نتوقف فى بحثنا عن

هذه النياشين والأوسمة عند حصولها على وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى عام ١٩٦٠ ..

يقول المؤرخ الموسيقى محمود كامل أن سيدة الغناء العربى .. كوكب الشرق أم كلثوم سيدة مجتمع من الدرجة الأولى ، ومتحدثة لبقة ، وعلى قسط وافر من الذكاء وسرعة الحاطر .. تجيد اللغتين الانجليزية والفرنسية وتحفظ مئات الأبيات من الشعر لفحول الشعراء .. وزارت معظم دول العالم .. وحصلت على أرفع الأوسمة والنياشين من الرؤساء والملوك في مصر والعالم العربى .. منها نيشان الكمال في سبتمبر عام ١٩٤٦ أثناء غنائها بالنادى الأهلى ..

ونيشان الرافدين من الدرجة الأولى من الملك فيصل عام ١٩٤٦ ..

وفي عام ١٩٥٥ منحت ثلاثة أوسمة منها وسام الأرز اللبناني .. ووسام النهضة من ملك الأردن .. ووسام الاستحقاق من الدرجة الأولى من الرئيس السوري هاشم الأتاسى ..

وفي عام ١٩٥٩ منحت وسام الأرز اللبناني برتبة كومندز من الحكومة اللبنانية .. وأهداها الوسام السيد رشيد كرامى رئيس الوزراء اللبناني في حفل رسمى أقيم في ٢٠ نوفمبر عام ١٩٥٩ ..

كما حصلت أم كلثوم أيضا على نجمة الامتياز من باكستان ، على أثر تكريمها للشاعر محمد إقبال حين غنت قصيدة « حديث الروح » .. وقد أقامت السفارة الباكستانية بالقاهرة حفلا في يوم ٢٣ مارس عام ١٩٦٨ لتقليدها الوسام ..

وفي مارس عام ١٩٦٠ منحها الرئيس جمال عبد الناصر وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى .. وقد أقامت لها اللجنة الموسيقية العليا حفل تكريم بهذه المناسبة^(١) ..

(١) كوكب الشرق أم كلثوم - خليل المظهرى ومحمود كامل ..

● الثورة .. بين العدالة الاجتماعية وعدالة أهل الفن :

شهدت الأيام الأولى من الستينات .. وبعد مرور ثمانى سنوات على قيام ثورة ٢٣ يوليو .. بدايات هدم المجتمع المصرى .. سواء كان ذلك عن عمد أو غير عمد ..

ونحن لا نتقول على التاريخ لأننا عشنا هذه الفترة وكنا فى مرحلة الطفولة المتأخرة .. وكان وعينا لما يحدث قليل أو متأثر بحملات وسائل الاعلام التى كانت نشطة خلال هذه الفترة إلى حد مخيف ..

ومن أجل الإنصاف كان اعتمادنا على مصادر عديدة كى تنقل إلينا الصورة بلا رتوش .. وبداية نؤكد أن الثورة لابد لها من أخطاء .. بشرط ألا تتجاوز الأخطاء حدود الإنسانية .. مهما كان هدفها .. فذلك هو الغريب فى الأمر ..

وكلنا يعرف حتى ولو من مصادر التاريخ أن الثورة فى بداياتها وضعت لنفسها أهدافا .. بصرف النظر عن تحقيقها أو عدم تحقيقها .. فقد كانت النية صادقة .. أو على الأقل نية الأغلبية العظمى من الضباط الأحرار لأنهم فى الأول والآخر مصريون .. كانت النية صادقة فيما يتعلق برفع شأن الانسان المصرى ، الذى طال انتظاره لهذه الانتفاضة .. ولكن تحقق العكس .. فقد جاءت الثورة فى أغلب ما قامت به من أعمال ضد الإنسان المصرى ..

وتحولت هذه الأهداف إلى شعارات ، يطلقها كل مسئول فى الدولة .. وأصبح الناس يعيشون صباحا ومساء على الكلمات فقط دون الأفعال .. اللهم إلا هذه الأفعال التى من شأنها إطالة عمر رجال الثورة .. لذلك نجد أغلب المشاريع التى أقامتها الثورة ، مشاريع دعائية أكثر منها نافعة ، ويحيط بأغلبها الشكوك سواء فى التنفيذ أو التمويل ..

لقد بدأ سيل عارم من الشعارات تحبب أرض مصر من أسوان إلى الاسكندرية فى كافة نواحي الحياة اقتصاديا واجتماعيا .. مثل هذه الشعارات كانت مغلفة بالرقص والطرب والغناء .. وما يحدث تحت الأ .. كان شئ مخيف ومفزع .. ولا يعرف عنه من الناس شئ ما داموا ينانون على أصوات العشق والغرام ..

ولسنا هنا فى مقام الحديث عن مثالب الثورة أو إيجابياتها .. بقدر ما يخدم

موضوعنا .. من حيث علاقة الفن بزعامة أم كلثوم ، والسياسة بزعامة جمال عبد الناصر ..

والفن والسياسة كانا ومنذ قيام الثورة متلازمين ، حتى ولو لم يكن ذلك واضحا في حينه .. لأن رجال الثورة رأوا في الفن ملهامة سهلة لهذا الشعب المسكين ، الذى فطره الله على حب الحياة ..

ووسط هذا الهوس بالفن والطرب .. ضاعت معالم الانسان المصرى .. وتاه وسط شعارات العدالة الاجتماعية .. و « الاشتراكية » و « البدلة الشعبية » أحسن من الجلاية .. وكان ذلك يتم بتخطيط عجز عن فهمه في حينه الصفوة من المفكرين المصريين ..

وفي بحثنا عن أحسن تصوير لما كان عليه الانسان المصرى وسط هذا الهوس المجنون من الشعارات .. عثرنا على كلمات ثمينة وغالية سطرها أستاذ الأجيال الدكتور زكى نجيب محمود فى آخر كتبه « حصاد السنين » حيث يقول :

- فى صباح يوم صائف .. وهو الثالث والعشرون من شهر يوليو عام ١٩٥٢ ، فوجئنا بمتحدث فى الاذاعة يذيع نبأ الضباط الأحرار ، وما هى إلا أيام قلائل حتى دوت أرضنا وسماؤنا بما يعلن عن ثورة لإقامة عدالة اجتماعية .. وها هنا تطابق الأصوات مع الصدى ، وجاء الواقع محققا للحلم ، نعم أنها « عدالة إجتماعية » ما يريده الشعب .. وسرعان ما أخذت بشائر إنصاف الجماهير يعلن عنها واحدة إثر واحدة .. وكانت فتحة التغيير إعادة النظر فى ملكية الأرض الزراعية ، ولم تمض بضعة أشهر حتى أنشئت وزارة جديدة أسماها وزارة الإرشاد القومى^(١) ..

وفى موضع آخر يقول الدكتور زكى نجيب محمود :

- لكن أحدا لم يسأل : ما هى تلك « العدالة » المنشودة .. وماذا فى خصائصها قد جعلها « إجتماعية » .. أهى من جنس نفس العدالة التى تسعى إلى تحقيقها الحاكم ، بأن ترد إلى أصحاب الحقوق حقوقهم ممن اغتصبوها ظلما .. وإن كان ذلك كذلك فأين

(١) حصاد السنين - زكى نجيب محمود ..

الجديد الذى تنشده الثورة ، وينشده معها أبناء الشعب كله .. أم تكون عدالة المحاكم تعنى بحقوق الأفراد أو من يتخذ لنفسه صيغة الفردية من هيئات وجماعات ..
وأما « العدالة الاجتماعية » التى جاءت الثورة لتحقيق وجودها بعد إن لم يكن فمقصود بها نسبة القائمة بين طبقات المجتمع .. وإذا كان هذا هو شأنها فقد افترضت مقدما - إذن - وجود طبقات اجتماعية منها ما يعلو ومنها ما يسفل على نحو لا يبرر للأعلى أن يكون الأعلى .. وللأسفل أن يكون أسفل ..

وكانت الفرصة مواتية ، بعد إجماع الجهود على تأييد الثورة ودعوتها إلى عدالة اجتماعية لكننا لم نلبث - والكلام ما يزال للأستاذ الدكتور زكى نجيب محمود - على اتفاقنا إلا قليلا ، ثم أخذنا نتعرف غايات مختلفة .. إذا فسرت العدالة الاجتماعية تفسيرات تناقض بعضها مع بعض تناقض لم يبق من الغاية المشتركة إلا الصيغة اللفظية التى سميت بها .. وكيف تنفق وبعضنا يريد أن يعيد الماضى ليكون هو الحاضر أيضا^(١) ..

هذا التشويش الذى تراهى لأستاذنا الدكتور زكى نجيب محمود بإعتباره من القمم الثقافية والحضارية ، التى عاصرت هذا الحدث ، والتى لم تستوعب مثل هذه الشعارات المزيفة .. كان مصدره تحبط رجال الثورة أنفسهم فى تفسيرهم لهذه العدالة .. هذا التخطيط الذى أدى بهم إلى « الهيش » من هنا وهناك من أجل تغطية تطبيق هذه العدالة .. فتارة نجدهم يميلون إلى اليمين بشدة .. عندئذ يغيرون على أملاك عباد الله وتأميمها ، ثم فرض الحراسة على المتبقى منها ، وإذا كانت الثورة قد بدأت مشوار الشعارات بتطبيق قانون الإصلاح الزراعى .. وخلق طبقة جديدة من الفلاحين ملاك الأرض .. فإنها سرعان ما وقعت فى أخطاء كثيرة مؤسفة ، فيما يتعلق بفرض الحراسات على أموال الناس بعد عملية التأمين الكبرى ، التى شملت المؤسسات الاقتصادية الضخمة ..

وكم من الذين عاصروا هذه الاجراءات .. انتقلوها سواء فى حينها أو بعد حين طويل .. ونذكر من هؤلاء الدكتور ثروت عكاشة الذى تولى وزارة الثقافة فى فترة الستينات أكثر من مرة .. والذى انتقد بشدة إجراءات فرض الحراسة على أموال

(١) المصدر السابق ..

المصريين ، والاستيلاء على بعضه من جانب بعض رجال الثورة تحت سمع وبصر حارس الثورة ، الذى كان عليه إصدار القرارات والقوانين التى تحمى هذا النهب ..

وثارة أخرى يميلون إلى أقصى اليسار .. فينقلون إلينا أنظمة اقتصادية واجتماعية وفكرية ، لم يستوعبها المجتمع تحت مسميات عديدة منها الاشتراكية والشيوعية .. وفى كل مرة يربطون بين هذه الاجراءات المحلية والدولية وبين تطبيق العدالة الاجتماعية .. وإن كنا لا ننكر أبداً أنه كانت هناك بعض الصور المضطربة ، فى هذا المجال ربما أقدموا عليها لتغطية بقية الاجراءات التعسفية التى ارتكبوها فى حق أكثر من نصف المجتمع المصرى بمختلف طبقاته .. ومنها على سبيل المثال السعى إلى تطبيق نظم التأمينات الاجتماعية .. ومجانبة التعليم .. وإنزال الثقافة من السماء إلى الأرض إلا فى حدود ..

وينقل لنا الدكتور زكى نجيب محمود موقفه تجاه هذه الشعارات المزيفة التى حاول بعضهم أن يكون ضمن مروجيها .. فيقول :

- ولم تمض بضعة أشهر أخرى حتى أنشئت وزارة جديدة أسموها وزارة الارشاد القومى وخطوب صاحبنا يوم إنشائها ، ليضيف إلى عمله الجامعى منصب قيادى فى تلك الوزارة الناشئة .. فظننا فرصة سانحة ، تمكن من أن ينقل بعض رؤاه فيما يتصل بالمواطن المصرى ثقافيا ، لكنه سرعان ما تبين له أنه يحلم فى واد ، وأما واقع الحياة فى تيارها الجارى فى واد آخر .. لقد حسب لإخواننا أن عبارة الارشاد القومى يراد بها رسم خريطة جديدة لمستقبل الثقافة على تفاوت مستوياتها ، وإذا بالمقصود هو المشاركة فى ترتيب « الدعاية » وتوجيهها فى سبيل التبشير بالثورة وأهدافها ، وأنها لثورة ، وأنها لأهداف جاءت حقا معبرة عن أصدق تعبير عما كان يضرب فى صدورنا جميعا ، لكن الدعاية لها بتلك الصورة المباشرة المطلوبة هى آخر ما كان يستطيعه صاحبنا ..

ولتغطية هذا الفشل فى مجال تطبيق العدالة الاجتماعية التى راودت أحلام ملايين المصريين وصارت فيما بعد سرايا .. أقدمت الثورة تحت سمع وبصر جمال عبد الناصر على تطبيق العديد من الإجراءات الاستثنائية بحجة حماية الثورة .. كان على رأسها خنق حريات الناس .. والزج فى السجون بكل ما يعارض هذه الاجراءات .. حتى بلغ عدد المسجونين السياسيين فى بداية الستينات حوالى ١٨ ألف مصرى معارض فى سجون القلعة والسجن الحرى من كل فئات المجتمع ..

وامتدت إجراءات تغطية حالات الفشل ، إلى تطبيق نظام سياسى داخلى يضمن الولاء للثورة ولرجالها .. حيث كونوا الاتحاد الاشتراكى ، ومن داخله التنظيم الطليعى .. وبذلك قتلت الديمقراطية وغابت الحريات .. حتى اختفى الرأى الآخر ودانت لهم مصر بلا صوت واحد يعارض ..

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد .. بل وتأكيدا لعامل الفشل الذى كان على وشك الصباح فى وجه عبد الناصر ورفاقه .. اتجهت الأنظار خارج مصر من أجل تصدير الثورة ، ومحاولة إقناع بعض الدول العربية باتمام الوحدة .. وكان الدور على سوريا ، ولما فشلت الوحدة .. اتجه عبد الناصر إلى اليمن ، واستمر مغروزا فى رمالها لمدة خمس سنوات .. وكانت حجته المقنعة لمن حوله .. ضرورة الانتقام من المملكة العربية السعودية لأنها وقفت بجانب الحركة الانفصالية التى أدت إلى فشل الوحدة بين مصر وسوريا .. وقد بلغ عدد الجنود المصريين فى اليمن آنذاك حوالى سبعين ألف مقاتل .. كما بلغ عدد الشهداء فيها أكثر من عشرة آلاف مقاتل ..

ويظل مؤشر الفشل فى ارتفاع مستمر حتى يصل إلى قمته بوقوع كارثة عام ١٩٦٧ ..

★ ★ ★

وكان لابد من أجل علاج هذا الفشل .. اللجوء إلى عواطف وقلوب الغلبة من المصريين حتى ولو بشكل مؤقت .. لقد كان الناس بالفعل فى حاجة إلى مخدر قوى ينسون أثر تناوله ما يحدث فى مصر ، خاصة ما سعى فى حينه بالعدالة الاجتماعية .. وتفتق ذهن الشياطين حيث لجأوا إلى الطرب والغناء مصحوبا بالأدخنة السوداء والبيضاء المنبعثة من أفواههم بعد مرورها فوق نار المعسل .. وكانت تقف فى مقدمة أداء هذه المهمة .. أم كلثوم .. سواء بإرادتها باعتبارها المؤسسة الاعلامية الأولى التى كانت تقدم خدماتها لرجال الثورة .. أم بغير إرادتها وتحت ضغط الحفاظ على الشهرة والحياة الكريمة بعيدا عن غياهب السجون ..

وشاركها فى تلك المهمة أيضا فنانون مصريون كثيرون بالإضافة إلى الفنانين العرب الذين وفدوا إلى مصر ، وفقا لمفاهيم القومية العربية ، والترويج للثورة سواء فى مصر أو

نقلها إلى بلادهم ، مع قليل من الاهتمام بالثقافة التي تلونت وفقا لأغراض رجال الثورة
وبتوجيهات من السيد الرئيس جمال عبد الناصر ..

وباعتبار أم كلثوم رائدة التخدير ، وتطبيق أهداف زعيم الثورة في التغنى بإسمه
وإنجازاته الورقية .. فقد كان جمال عبد الناصر يتدخل كثيرا في توجيه هذه المؤسسة
الفنائية من أجل تقديم خدمة متميزة في مجال الفن ، كما يريد هو باعتباره يعبر عن نبض
جميع « السميعة » في مصر ..

وقد كان .. فقد تدخل جمال عبد الناصر شخصيا من أجل إنتاج عمل فني مشترك
بين أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب .. بعدما فشل غيره في تحقيق هذا الحلم الفني ..
ويحكى لنا الكاتب محمود عوض عن هذا التدخل من جانب أعلى سلطة في الدولة
المتمثلة في شخص جمال عبد الناصر من أجل إتمام هذا التعاون الفني الذي كان ينتظره
ملايين المعجبين من المصريين والعرب على السواء ..

ففي احتفال ٢٣ يوليو من عام - ١٩ أقيم نادي الضباط حفلة ساهرة حضرها
الرئيس جمال عبد الناصر .. وكانت أم كلثوم وعبد الوهاب من بين المشاركين في هذا
الحفل ..

وفي الاستراحة دعاهما الرئيس جمال عبد الناصر إلى تناول العشاء على مائدته .. وقال
عبد الناصر وقتها لكل من أم كلثوم وعبد الوهاب :

- أين الأغنية التي نقرأ في الصحف إن أم كلثوم ستغنيها ويلحنها عبد الوهاب .. ألم
يحن الوقت بعد لكي تتحول الأغنية من كلام جرايد .. إلى كلام يردده الناس .. ؟! ..
وبالفعل وكأنما صدرت الأوامر العليا بضرورة تنفيذ هذا العمل الفني المنتظر ..
فخلال أسابيع قليلة كان العمل قد بدأ في الأعداد للأغنية الجديدة .. كلمات اختارها
محمد عبد الوهاب أصلا كي يغنيها هو ، ولكنه عندما بدأ يلحن اكتشف أن اللحن لن
تعب عنه غير أم كلثوم .. واتصل عبد الوهاب بأم كلثوم التي لم تمنع .. بل ووعدته
بجلسة قادمة لبحث تنفيذ هذا العمل الفني المشترك ، الذي نتم به الدولة في صورة
السيد الرئيس ..

ومن بعد هذا اللقاء خرجت أغنية « أنت عمرى » .. وكلماتها رغم ما فيها من حب وهيام إلا أن عنوانها قد يخفى معناه عن البعض .. ولكن حين نعود إلى قصيدة أو أغنية « يا جمال يا مثال الوطنية » من المؤكد أنه جمال عبد الناصر ، هو عمرى ، وعمر أم كلثوم وسميعة مصر كلها ..

وحينما نعود إلى عمل احصاء سريع لعدد الأغنيات التى غنتها أم كلثوم من مطلع الخمسينات وحتى عام ١٩٦٤ ، قبل إتمام التعاون بين أم كلثوم وعبد الوهاب نجد أن عددها يتجاوز الثلاثين قصيدة .. منهم ما لا يقل عن عشرة أغنيات وطنية .. والباقي أغاني عاطفية ودينية .. وقد بدأتها مع مطلع عام ١٩٦٠ بغناء قصيدة قصة السد فى يناير من نفس العام من كلمات الشاعر عزيز أباطة وتلحين رياض السنباطى .. ثم فى عام ١٩٦١ غنت أغنية عاطفية جذيدة بعنوان « الحب كده » من تأليف الشاعر بيرم التونسي وتلحين الموسيقار رياض السنباطى أيضا ..

وفى يوليو من نفس العام غنت أم كلثوم أغنية « ثوار » من تأليف الشاعر عبد الفتاح مصطفى وتلحين رياض السنباطى ..

والملاحظة التى يمكن أن نوردتها بعد تقصى هذا الاحصاء أن الأغنية العاطفية قد زاد لديها .. ويبدو أن التعليمات التى صدرت من رجال الثورة آنذاك للمؤسسة الغنائية أم كلثوم قد ركزت على إشاعة نوع من الحب ، والغرام والهيام وإباحته مادام يخدم أهواء الثورة وأهدافها .. ومادام لا يكلف شيئا ..

المهم أن يتم تخدير الناس بكافة الوسائل حتى يعيشوا فى ظلام النسيان فى الوقت الذى كانت فيه مصر من « تحت لتحت » تعيش تحت وطأة الظلم والعدوان على حقوق الآخرين .. ونحن لا ننسى أبدا كلمات وعناوين هذه الأغاني والقصائد التى غنتها أم كلثوم فى فترة الستينات .. والتى كان يقول أغلبها « حيرت قلبى معاك » - « الحب كده » - « ثورة الشك » - « لسه فاكه » - أنها كلمات أقصى ما تنادى به هو تشجيع العشق والحب .. وترك الفضائل .. ولعلنا لا نغالى حين نطالب بضرورة تصدى علماء النفس والاجتماع لدراسة تأثير أغاني هذه الفترة من تاريخ مصر فى حياة أهل مصر ..

وحتما سوف يصل هؤلاء العلماء إلى نتائج مذهلة ، ولعل أكثر هذه النتائج التى

لاحتاج منا إلى تعليق أو دراسة .. هي ما فعلته بنا إسرائيل عام ١٩٦٧ ، فبينما نحن نعيش الحب والغرام مع بعض التنافس الكروى والعصبية ، كانت إسرائيل تعد العدة للهجوم الكبير .. وقد كان .. إنها الهزيمة ..

● أم كلثوم تتوسط لدى عبد الناصر من أجل مصطفى أمين ..

كانت أم كلثوم تجيد تنفيذ دورها الاعلامى بالالتصاق بشخصية جمال عبد الناصر .. كلما كان رصيدها الفنى والوطنى يزداد ليس على المستوى المحلى فقط .. بل على المستوى العربى .. وسبق أن أوضحنا أن هوس الثورة وحركات التحرر ، قد بدأ يغزو بعض الدول العربية التى كانت تحت وطأة الاستعمار .. ورأوا أن جمال عبد الناصر هو المنقذ الوحيد لهم من هول هذا الاستعمار .. لذلك نجد أن أية دولة تتحرر يميل شعبها ويدين بالولاء لبعض لعبد الناصر ولدوره فى هذا الميدان ..

وكان عبد الناصر فى منتهى الذكاء من حيث استغلال هذه المناسبات القومية إعلاميا .. إلى درجة أن أصبح صوته وكلماته فى خطبه ملتقى الشباب العربى ، من خلال الاذاعات المحلية لهذه الدول ومن خلال وسائل الاعلام المصرية ، التى لعبت دورا كبيرا فى تأكيد الهوية المصرية العربية آنذاك ..

ولما كان هناك شبه ارتباط بين المهمة التى يقوم بها جمال عبد الناصر على المستوى العربى وبين دور أم كلثوم فى تأكيد هذه المهمة .. فقد اتسعت آفاق أغنيات أم كلثوم سواء عن طريق استمرارية اذاعتها من كل محطات الاذاعة من القاهرة أو من خلال الاستدعاء الرسمى لبعض الشخصيات العربية لحضور هذه الحفلات .. الأمر الذى جعل بعض الصحف العالمية تصف الإقبال العربى على صوت أم كلثوم بأنه الهوس نفسه ..

فكتبت مجلة تايم الأمريكية تقول : إن أسطورة أم كلثوم تكبر وتستمر منذ ٣٢ عاما لأنها أشهر وأقوى شخصية فنية فى الوطن العربى .. وليست هناك علامة على أن كوكب الشرق تتأثر بالزمن لأن العرب يؤمنون بأنه يزيدها قوة ويضيف إلى صوتها صفاء .. وفى الشرق الأوسط هناك شيثان لا يتغيران ولا ينال منهما الزمن .. أم كلثوم والهرم ..

أما جريدة الاوبزرفر البريطانية فتقول : إن أم كلثوم هى نجمة الغناء العربى التى تجمع كل العرب حول أجهزة الراديو فى الخميس من كل شهر خلال موسمها ابتداء من الحريف وحتى فصل الصيف ..

أما جريدة « فرانس سوار » فتقول : إن شهرة أم كلثوم فاقت شهرة أعظم المطربين فى العالم الذين استمع إليهم الفرنسيون .. إن شهرة أم كلثوم فى المنطقة العربية لا ترتفع إليها ، ولا تعادلها شهرة أى نجمة للغناء فى هذا الجزء من العالم ..

وازاء هذا النجاح المقطع النظير لأم كلثوم .. وانتقال تأثيرها على الملايين من العرب حيث زادت من انتاءاتهم المصرية أكثر من انتائهم لوطنهم تحت لواء القومية العربية التى سعى عبد الناصر كثيرا إلى ترويجها كسبيل للسيطرة على العالم العربى .. ففكر عبد الناصر ورجاله فى زيادة مكافأة أم كلثوم بعيدا عن الأوسمة والجوائز .. وذلك عندما استدعى الرئيس جمال عبد الناصر الكاتب الصحفى مصطفى أمين إلى مكتبه بمنشية البكرى من أجل أن يبلغه بقرار تخصيص موجة إذاعة مستقلة لأم كلثوم ..

نعم محطة إذاعة ما زالت إلى الآن تحمل اسم أم كلثوم ، لأنها تخصصت ولا زالت فى إذاعة أغاني أم كلثوم من الساعة الخامسة بعد الظهر وحتى الساعة العاشرة من مساء كل يوم ..

وعلى الفور اتصل مصطفى أمين كى يبلغها هذا الخبر .. عندئذ وكما قال لنا مصطفى أمين .. صعقت أم كلثوم من هذا الخبر وكاد يغشى عليها ، لأنها خافت من تأثير إذاعة أغانيها يوميا على الناس .. فرمما يؤدي ذلك إلى ابتعادهم عن صوتها .. ولما كان هذا القرار من القرارات السيادية ، حيث أصدره رئيس الدولة جمال عبد الناصر .. فلا رجعة فيه ..

وحاولت أم كلثوم أن تخبر عبد الناصر بقلقها إزاء هذا القرار الخفيف من وجهة نظرها ووسط مصطفى أمين .. فأحال الموضوع إلى نائبه المشير عبد الحكيم عامر ..

وقصة هذه الاذاعة .. كما يرويها مصطفى أمين .. أن جمال عبد الناصر بعد افتتاح التلفزيون المصرى .. وبعد الاعداد لحطة غزو اعلامى كبير من جانب رجال الثورة .. قرر تخصيص محطة إذاعية على تردد معين يتم استخدامها فى وقت الحرب .. وحتى لا

تكون محطة إرسال بلا مواد إذاعية .. قرر عبد الناصر وعبد الحكيم عامر تخصيص هذه
المحطة لإذاعة أغاني أم كلثوم يوميا داخل مصر وخارجها .. وطبعاً هذه الرواية لا تحتاج
إلى أى تعليق أو مناقشة فى ضوء الأهداف القومية والوطنية التى تحققها أم كلثوم وفقاً
لخطط مرسومة بإحكام ..

★ ★ ★

وقصة إذاعة أم كلثوم .. ودور مصطفى أمين فيها ولو بطريقة غير مباشر .. يقودنا
إلى الحديث عن الدور الذى لعبته أم كلثوم من أجل الإفراج عن الكاتب الصحفى
مصطفى أمين الذى قبض عليه ودخل السجن باتهامات باطلة .. مثل غيره من رجال
الاعلام والساسة الذين قبض عليهم لأسباب شخصية ، وأسباب مضحكة وحجج واهية
دون التفريق بين ما هو وطنى وغير وطنى .. المهم أن الكاتب مصطفى أمين بعد جهوده
المضنية والتضامنه بأحداث الثورة من بداياتها وخدماته لها .. كان مصيره السجن .. ولما
كانت أم كلثوم من أقرب الناس إليه وتعرف جيداً بمدى وطنيته وإخلاصه .. فقامت
حاولت مرات عديدة التوسط لدى جمال عبد الناصر من أجل الإفراج عنه ولكنها
فشلت ..

والقليل منا من يعرف عمق العلاقة بين أم كلثوم ومصطفى أمين هذه العلاقة التى
بدأت منذ أكثر من خمسين عاماً .. حين كانت أم كلثوم تخطو خطواتها الأولى نحو
المجد .. ولم يكن بالنسبة لها مجرد صحفى ، أو صاحب جريدة بل كان أكثر من صديق
تستشيره حتى فى أدق أمور وشئون حياتها الخاصة ..

وقد مر علينا اتصالها بالكاتب مصطفى أمين فور وقوع الثورة فى يوليو من أجل أن
تعرف التفاصيل والأهداف .. بل أكثر من ذلك كان مصطفى أمين بالنسبة لأم كلثوم
الوسيط الأمين الذكى الذى كان ينقل للضباط ، وعلى رأسهم جمال عبد الناصر متاعبها
وآلامها وآمالها مع رجال الثورة فى أيامها الأولى .. وكان مصطفى أمين أقرب الرجال
إلى قلب وحياة أم كلثوم وعن طريقه عرفت بالكثير من الحبايا الفنية ، التى أثرت فى
مسيرة حياتها فى عالم الطرب ..

وفوق كل ذلك كان مصطفى أمين الصحفى الوحيد تقريباً الذى كان يقف دائماً مع

أم كلثوم إذا ما تعرضت لمحنة ما سواء شخصية أو فنية ، ومصطفى أمين يعبر عن هذه العلاقة بقوله :

— عرف الناس أم كلثوم .. وأنا عرفت أم كلثوم أخرى .. عرفوا الأسطورة وعرفت الإنسانية .. عرفوها بخيلة وعرفتها كريمة .. عرفوها فوق المسرح والأضواء مسلطة عليها وصوتها يملأ الدنيا متعة وهناء .. وعرفتها في غرفتها الصغيرة في الطابق العلوى من بيتها منزوية فوق كنية صغيرة تبكى في صمت ..

هذه العلاقة الخاصة بين أم كلثوم ، والكاتب الصحفى مصطفى أمين جعلت الكثيرون يعتقدون أنه قد تزوجها في فترة من فترات حياته .. وحين توجهت إليه بسؤال فيما يخص واقعة الزواج هذه .. أجاب :

— ولم أتزوجها ؟! .. لقد كنا أكثر من مجرد صديقين .. نلتقى كل ساعة .. بل كل دقيقة ولو من خلال التليفون ..

ومن المواقف التى لا ينساها أبدا مصطفى أمين .. موقف أم كلثوم من إقراضه الأموال .. خاصة بعدما قبضوا عليه وجردوه من ملابسه ونقوده .. وقادوه إلى السجن معصوب العينين ..

ويقول الكاتب الصحفى مصطفى أمين :

— ودخلت السجن ووضعوني تحت الحراسة .. وصادروا أموالى ، وكان القرار أن أموت جوعا ، وسدوا على جميع المساعى حتى لا يصلنى قرشا واحدا من أخى « على » الذى كان موجودا فى لندن .. كنت أعرف أن كثيرين من أصدقائى سوف يقبلون أن يقرضونى فى هذه المحنة ، ولكننى رفضت أن أخرجهم لأننى أعرف أنهم كانوا يقبضون على كل من يمد يده لمساعدة مسجون سياسى ..

وفكرت أن ألبأ إلى أم كلثوم وقلت لها : إننى محتاج إلى مائتى جنيه فورا ، وأحب أن أنبهاها إلى أن هذا المبلغ سوف يعرضها لوضع أموالها كلها تحت الحراسة .. وقلت لها إننى لن أتضايق ، إذا رفضت أن تدفع هذا المبلغ ولأن الظروف لا تسمح لها بأن تقرضنى هذا المبلغ ، وقلت فى ختام رسالتى : أنتى قد استطيع أن أرد المبلغ قبل عشر سنوات ، وقد لا أستطيع أن أرده أبدا ..

وأرسلت لي أم كلثوم خمسمائة جنيه وقالت أنها مستعدة أن ترسل لي خمسة آلاف ..

أما بالنسبة لواقعة التوسط لدى عبد الناصر للإفراج عن مصطفى أمين فقد روى بعضها في كتابه « سنة أولى سجن » .. كى يبين لنا قيمة الأصدقاء في وقت الشدة .. حيث قال : لقد قال لي هيكल .. أنه كانت هناك حفلة يوم ٢٣ يوليو بعد القبض على بيومين .. وكان هناك عبد الوهاب وقال له الرئيس جمال عبد الناصر : طبعاً انت زعلان علشان مصطفى أمين .. فقال عبد الوهاب : ابدأ يافندم .. المسئء يلقي جزاءه .. وأضاف عبد الوهاب إنه لم يكن صديقى إلا من مدة قليلة .. وقال هيكل للرئيس أن عبد الوهاب كان يأكل عندى كل ليلة .. ولست أعرف ما إذا كانت هذه الرواية حقيقية أم تشنعية من هيكل على عبد الوهاب .. إن عبد الوهاب بطبيعته خواف يرتعش من أى شئ ويذعر من خياله .. فماذا يستطيع أن يفعل في جو الإرهاب الذى تعيش فيه البلاد^(١) ..

أما بالنسبة لأم كلثوم فكان موقفها مختلف تماماً عن موقف محمد عبد الوهاب .. إذا كانت تعتمد حين تجلس مع عبد الناصر أن تحدثه في أمر اعتقال مصطفى أمين .. ففى عام ١٩٦٥ وفي جلسة خاصة ضمت أم كلثوم وعبد الناصر والمشير عبد الحكيم عامر بادر الرئيس عبد الناصر أم كلثوم بسؤالها عن صديقها الذى تم القبض عليه فقالت :

— أعرف مصطفى أمين طوال حياته وأعرف وطنيته .. وأعرف كيف أدخل كل

مليم في أخبار اليوم .

إلا أن عبد الناصر أشاح بوجهه ، ولكنها استمرت تدافع عن مصطفى أمين بحماس منقطع النظير .. ولم تتوقف مساعدتها أبداً لدى عبد الناصر أو المشير عامر من أجل الإفراج عنه حتى فشلت ..

ورغم ذلك فإن علاقتها لم تنقطع بمصطفى أمين حتى وهو داخل الجدران السوداء فكانت تبعث إليه برسائل سرية مع أطباء السجن ، وبعض الأصدقاء .. ومن هذه الرسائل وكما يحكى مصطفى أمين أنه فوجئ بطبيب السجن يهمس في أذنه في يوم من الأيام بأن أم كلثوم كلفت به بأن يوصل إليه أنها سوف تغنى له الخميس القادم قصيدة فيها بيتان أو ثلاثة توجههم إليه ..

(٢٠) سنة أولى سجن — مصطفى أمين ..

وجلس مصطفى أمين في زنزانه أياما ينتظر قصيدة أم كلثوم والأبيات الثلاثة .. وفي مساء الخميس الموعود غنت أم كلثوم قصيدة الأطلال .. وكانت إذاعة السجن تذيع الحفل كله بناء على إلحاح المسجونين ..

وفجأة سمع مصطفى أمين أم كلثوم تغنى :

أعطني حريتي .. أطلق يديا	إننى أعطيت ما استبقيت شيئا
آه من قيدك ؟ أدمى معصمى	لم أبقيته ؟ وما أبقي عليا
ما احتفاظى بعهود لم تصنها	والأما الأسر والدنيا لديا

ويقول مصطفى أمين عن شعوره في هذه اللحظات : « لقد انتفضت في فراشى وأنا أسمع هذه الأبيات ، أحسست كأن أم كلثوم تغنى لى وحدى أحسست أنها ترفع صوتى الخافت ، تدوى بصوتى المحبوس ، تقول ما كنت أتمنى أن أقوله للدنيا كلها ..

وقد بقى صوتها يدوى فى أذنى ، وهى تغنى هذه الكلمات أياما طويلة بغير إذاعة ، وبغير راديو وبغير اسطوانة .. ولم تتوقف أم كلثوم عن المطالبة بالإفراج عني « ..

★ ★ ★

● كلمات على هامش

هزينة عام ١٩٦٧ :

الأيام تدور وبعضها يجز بعضا بثقل شديد .. والكارثة على الأبواب ولا أحد يدري بها .. رغم أن لها علامات .. عرفها البعض .. ولكن التوقيت مجهول ..

حالة من التخدير على المستوى الشعبى والانغماس ، فى كل ما هو غريب وعجيب وغير مفيد .. ومن فوقنا هم هناك يلعبون ويمرحون فى كل مكان ، رحمة وأجسادنا وأعراضنا كانت نهباً لهم .. ولا نجد من يقول لهم كفى .. لأن الأصوات نفسها كلها حيسوها داخل السجن ، والبقية الباقية من هذه الأصوات اغتالوها أو هم فى الطريق .. الا من يغنى ويرقص ويطرب الناس وللثورة وللزعيم ..

كما قلنا كانت للهزيمة علامات بدأت مع مطلع الستينات ، ولا يعرف بها أحد من داخل مصر أو خارجها إلا هم .. هناك يعيشون خلف الرمال .. يخططون ونحن نرقص .. يدرسون ونحن نأكل الفول .. ونلعب الكرة ونقول النكتة ونضحك منها على أنفسنا .. وربما كان يعرف بها هؤلاء المظلومين داخل غياهب السجون .. وصرخاتهم التي كانت تقطع سكون الليل ودموعهم التي كانت تذيب أحجار القلعة .. ودعواتهم ودعائهم المستمر على هؤلاء القوم الظالمين ..

وأبدا لا نبرأ الفن .. فهو شريك كامل في هذه الكارثة .. أنه المخدر القوي الذي طمس على عقل الانسان المصرى .. بل والعربى كذلك .. وجعله يعيش في عالم من الأحلام تصيغه الكلمات والألحان وتغذيه الشعارات في كل مجال .

وخير دليل على مسئولية الفن تجاه وقوع هذه الكارثة .. شهادة الأستاذ فتحى رضوان أحد الذين تولوا وزارة الارشاد القومى .. والتي سجلها في كتابه « عبد الناصر » حيث يقول :

– كان الرئيس عبد الناصر قد قال لى فى مناسبة سابقة ، أنه يسهر مع الاذاعة حتى نهاية برامجها مع أم كلثوم وأضواء المدينة .. ثم توقف قليلا وقال : أنا عارف أن فتحى رضوان غير راض عن طول حفلات أم كلثوم واستمرارها إلى الرابعة صباحا .. وكثرة ترديد المقطع الواحد عشرين مرة أو أكثر .. والصياح والصراخ والوقوف على المقاعد ..

وقد عجبت حقيقة ، كيف عرف عبد الناصر هذا رأى .. فقد حاولت أن أذكر متى سمع منى هذا الكلام ولم أستطع ، ولكنه ضحك بطريقته وقال : فى ليلة أقمنا حفلة غنائية لأم كلثوم فى نادى الضباط احتفالا بالملك حسين .. ولما خرجنا نوصله ، وكنت أنت رئيس الوفد المرافق له ، كان منظر الضباط ساعة الانصراف وعدد قليل منهم نائم تماما على مقعده .. لا يرضى أحدا .. وكانت عيون الملك حسين حمراء ، وكان يتأيل من شدة التعب .

وفى اليوم التالى بدأ الحديث تعليقا على هذه الليلة فسمعتك تكلم أحدا على مقربة

منى ووصل الى سمعى كل هذا .. أنا معك ولكن محاولة تغيير هذا بمثابة الوقوف في وجه التيار فقلت له إننا واقفون في وجه التيار فعلا .. ألتست تقيم السد العالى فقال عبد الناصر : السد العالى معلش .. ولكن يأتى على الناس وقت لا يطيقون فيه أنفسهم ، دع لهم وقتا يفرجون فيه عن أنفسهم .. فقلت ولكن العمل الفنى فى كل مكان وسيلة معنوية للناس يزودهم بجرعة منعشة ومنشطة وبهجة .. يخرجون بعدها أكثر إقبالا على الحياة .. ولكن حفلات الطرب غندنا عملية تعذيب .. ينام الناس فى اليوم التالى إلى الظهر ويستيقظون يشكون من الصداع ووجوههم صفراء .. وشهيتهم مسدودة ومزاجهم عكرا ..

فقاطعتنى الرئيس عبد الناصر .. أنا معك .. معك .. ولكن الناس ينسون أنفسهم ويعتبرون هذه الحفلة عيداً شهرياً .. وفى جميع الأعياد يسهر الناس إلى الصباح ويكونون فى اليوم التالى بالصورة التى تظنها .. ثم توقف عبد الناصر فجأة وقال محذراً :

– بس أوعى تغضب أم كلثوم فقلت « لا سبيل لإغضاها » فضحك قائلاً : هذا حق (١) ..

* * *

ومادنا بصدد الحديث عن هزيمة عام ١٩٦٧ .. فلا بد من الحديث الموثق عسكرياً عن هذه الحرب ولو بشكل مختصر بعيد عن الأهواء وحديث الأخطاء مثلما تحدثنا من قبل عن الحروب السابقة ..

يقول اللواء عبد المنعم خليل : لقد استغلت مصر نجاحها السياسى عام ١٩٥٧ فى إقامة الوحدة مع سوريا عام ١٩٥٨ ، والتى نجحت القوى الاستعمارية فى تقويضها .. وتم الاتفاق على الانفصال فى ٢٨ سبتمبر عام ١٩٦١ .. وحاولت مصر كسر حصارها السياسى فعاونت الثورة اليمنية سياسياً وعسكرياً منذ قيامها عام ١٩٦٢ .

وكان هناك إعداداً عسكرياً على مستوى القيادة العامة بعد عدوان عام ١٩٥٦ ..

(١) عبد الناصر – فتحى رضوان ..

وبدأ التدريب على مهام الخطة الدفاعية « قاهر » .. كما نشطت إدارة الشؤون المعنوية في الاعداد المعنوي للقوات تحسبا لعدوان اسرائيل وشيك عام ١٩٦٧ ..

وفي يوم ١٤ مايو عام ١٩٦٧ أعلنت حالة الطوارئ في القوات المسلحة ورفعت درجة الاستعداد إلى الحالة القصوى وأصبحت منطقة شرم الشيخ ابتداء من ٢٠ مايو ١٩٦٧ ميدانا لزيارة كبار قادة القوات المسلحة المصرية لتحقيق مطالب القوات هناك بناء على أوامر المشير عامر ..

وفي صباح يوم ٣١ مايو وصلت طائرة عسكرية تقل عددا كبيرا من رجال الاعلام والصحافة بغرض تسجيل بالصوت الصورة عدة نشاطات في المنطقة تظهر استعداد القوات المصرية للقتال ..

وفي يوم ٤ يونيو تم تكليف القوات البحرية بمنطقة شرم الشيخ بمهمة قصف ميناء ايلات بحرا بواسطة مدمرتين .. وقد تحركت المدمرتان ، وعبرت مضيق رأس نصراني بعد منتصف الليل واقتربت من ميناء ايلات ..

وفي يوم الاثنين ٥ يونيو عام ١٩٦٧ .. مرت الساعات الأولى من الصباح في هدوء نسبي في مواقع القوات المسلحة على الجبهة .. وتم تدبير الهجوم الجوي المباغت على القواعد الجوية المصرية .. مما أدى إلى تدمير السلاح الجوي المصري كله ، وهو فوق الأرض .. وكان ما كان من أمر التخبط في القيادة .. وأوامر الانسحاب العشوائية .. ثم تقدم قوات العدو الاسرائيلي إلى كل صحراء سيناء .. حتى الضفة الشرقية لقناة السويس ومناطق عربية أخرى ..

وتم احتلالها جميعا خلال ستة أيام أو ستة ساعات .. في الوقت الذي كنا نعيش فيه أحلام النصر ، مع الجرعات الاعلامية العالية التي كانت تبشر بنصر كاذب ، حيث اتضح فعلا ، وبعد أقل من ساعات أنه انتصار على الورق فقط .. واسرائيل كانت تترعب على عرش سيناء والجولان والقدس والضفة الغربية ..

الفصل الخامس

يوم ان رحل الزعيم

قالوا إن الزعيم جمال عبد الناصر .. قد مات رسميا يوم ٢٨ سبتمبر عام ١٩٧٠ بعد انفجار شرايين القلب ، ومات فعليا يوم ٥ يونيو بعد انفجار الهزيمة ..

ونحن نقول : إن عبد الناصر في عام ١٩٦٧ لم يمت وحده ، بل مات الرجل في قلب كل مصري وعربي .. ماتت الكرامة .. والعدالة والثورة والأهداف الستة .. ومات الفن والطرب .. وماتت أيضا أم كلثوم ..

لقد هلت علينا كارثة عام ١٩٦٧ بكل ما فيها من آلام ومواجه كي تفجر بداخلنا الهزيمة ، التي ظلت يعدون لها سنوات طويلة .. هذه الهزيمة النكراء كشفتنا .. أسقطت ورقة التوت التي كان ثوار يوليو يختفون وراءها .. وكأئنا عدالة السماء ظلت متربصة بنا سنوات العذاب منذ أيام وأعوام الستينات ، حين بدأ جمال عبد الناصر ورفاقه ينتهكون حرمة هذا الشعب الطيب .. وأخذت دعوات المظلومين خلف جدران السجون تزحف ناحية السموات السبع حتى استجاب الله لهذا الدعاء .. وجاءت الهزيمة كي تبرهن لعبد الناصر ورفاقه أن فوق كل ذي سلطان ، ونفوذ قوة عظمى تهلك الزرع والنسل في أقل من طرفة عين ..

لقد سمع بهذه الهزيمة هؤلاء الذين كانوا يشربون ماء التبول ويأكلون من الفضلات .. وهم هناك لنعرف عنهم أهم فوق الأرض يدهون أم تحتها ينامون بعد ذهاب الأرواح .. !؟ ..

سمعوا عنها قبل هؤلاء الذين جذبتهم الأصوات الجميلة .. والتحموا مع الدخان الأسود ، وليالى الخميس وكلمات الآهات والحب .. هؤلاء لم تفاجئهم الكارثة .. كانوا يتوقعونها فى أية لحظة .. وكثيرا ما حذروا منها .. ولكن وقتها كان المسئولون تحت تأثير نشوة النصر الكاذب والشعارات البراقة .. وكلمات الأغاني المعسولة بالسموم ..

حقيقة .. لقد كانت هزيمة عام ١٩٦٧ .. هى موعد انفجار الشرايين داخل القلوب .. وانفجار الأحداث داخل السجون .. ورفع الغطاء عن عيون هؤلاء الذين استحبوا العيش وسط الدخان اللذيذ .. وكانت بمثابة الضوء المهر الذى سلطه الله علينا كى نرى أنفسنا عرايا .. والعيوب ماثلة أمامنا من أجل محاولة إصلاحها .. فى كل مكان وفى كل ميدان .. بدءا من الجيش ، وحتى كلمات الأغاني ..

لقد شعر هؤلاء النجوم فى عالم السياسة والفن والصحافة والتهليل .. أنهم لا شئ .. ليس فقط .. بل شعر كل من له وطنية مخلصه أنه كان مشاركا فى هذه الهزيمة بالفعل أو بالقول .. أو بالصمت ..

لقد كانت هزيمة ١٩٦٧ .. إيذانا بالرحيل .. فى كل مجالات الحياة .. إلا من هؤلاء الذين كابروا واعتبروا أنفسهم فوق المسئولية ..

* * *

ومالا شك فيه أن أول الذين أحسوا بعقدة الذنب هو جمال عبد الناصر .. الذى بدأ يشعر بالعد التنازلى لحياته .. وبدأت أزماته الصحية والنفسية تفرد لنفسها المكانة الأولى بداحله حتى النهاية .. فقد كانت أيام الرحيل معدودة ..

وأما الشخصية الثانية .. فهى أم كلثوم .. حيث أصيبت بحالة قاتلة من اليأس ، وفرضت على نفسها عزلة .. وبدأت تشعر هى الأخرى بالأمراض ترحف ناحيتها بقسوة وقوة .. وبدأت الصحف آنذاك تكتب عن مرضها وعزلتها .. بل ورغبتها فى

اعتزال العمل الفنى .. وكانت بذلك تعد لنفسها أياما رحلت بعدها ، وإن طالبت بعض الشيء عن أيام الزعيم الأول جمال عبد الناصر ..

وقبل أن تقترب أو نبتعد من حديث الرحيل .. نسجل هنا كلمات سطرتها كوكب الشرق أم كلثوم بدمها ودموعها .. يوم أن عرفت مرارة الهزيمة .. تقول السيدة أم كلثوم :

- فى عام وقعت النكسة عام ١٩٦٧ .. فعدت من موسكو بلا غناء ، وأقمت فى بدروم البيت فى غرفة حداد مظلمة لمدة أسبوعين ، لا أريد أن أتحدث ولا أريد أن أرى مخلوقا .. واختمرت فى ذهنى أفكارا نفذتها فيما بعد ..

وتواصل أم كلثوم :

- سألت نفسى ماذا يمكن أن أقدم لوطنى الجريح ؟ .. ماذا يمكن أن أفعل لأمسح دمة ، لأضمد جرح ، لأضع ابتسامة فوق شفاة ابن الشهيد .. !!! ..

وخرجت بخطة العمل .. أن أغنى فى كل مكان .. وأجمع نقودا للمعركة ، وأجمع ذهبا للمعركة ، وأجمع حماس للمعركة .. فالمعركة لم تكن تلك الأيام الستة السوداء ، انها مستمرة .. وما كان منها هو فصل واحد .. والفصول الباقية آتية ..

غنيت فى دمنهور .. وجمعت ٢٨٣ ألف جنيه .. وغنيت فى المنصورة وجمعت ١٢٠ ألف جنيه .. وفى الاسكندرية جمعت ١٠٠ ألف جنيه .. عدا سبائك الذهب التى كنت أجمعها من فوق أذرع وصدور النساء .. بل من آذانهن بل وخلاخيل الأرجل ..

واجتزت الحدود .. غنيت فى باريس .. على مسرح الأولمبيا .. فقد غنيت « أعطنى حريتى .. أطلق يديا » بانفعال لا أتصورنى بلغته أو سوف أبلغه بعد ذلك .. وغنيت فى المغرب والسودان وتونس ولبنان .. غنيت فى ليبيا والكويت .. وأودعت كل هذه الأموال للمجهود الحرنى للمعركة وأضفت إليه كل ما أمتلك من مجوهرات .. كل هذه الحصيلة زادت على مليون جنيه .. كانت بالضبط مليوناً ومائتى ألف جنيه ..

★ ★ ★

لقد كانت هذه الرحلات بداية إعادة الترتيب للبيت المصرى من الداخل فى كل

مكان وميدان ومجال .. وانقلب الشعار .. وماتت الهزيمة .. أو هكذا حاولوا أن يحوها
آثارها بعض الشيء .. وإفساح المجال لحديث غيرها حتى ولو على المقاهى ..

ونجحوا فى ذلك أيضاً .. فقد بدأ حديث المعركة يطل برأسه وقبلوا صيغة الهزيمة
إلى نكسة .. وتحول الرجاء إلى عمل ولكن ببطء ، وكله من أجل إزالة آثار العدوان
والمجهود الحرى ..

لقد انقلبت الأوضاع فجأة .. وتحول كل شىء فى مصر إلى حديث المعركة حتى
الحجارة والسكون .. وارتفع فوق الأعناق الشعار الذى كان بمثابة المفتاح السحرى لأى
حديث على أى مستوى .. فلا صوت يعلو فوق صوت المعركة ..

★ ★ ★

وقبل أن تلهونا أحاديث الطرب ، وما حدث بعد الهزيمة وجهود أم كلثوم فى بث
الروح المعنوية وإشعال الحماس الوطنى من جديد حتى لعبد الناصر نفسه .. يحلو لنا أن
نسجل هنا لقطات عما حدث فى مصر بعد زلزال الهزيمة على المستوى السياسى ..

كانت البداية .. حين صحى جمال عبد الناصر على صوت الزلزال الذى كان يتوقعه
فى أية لحظة من أيام يونيو عام ١٩٦٧ .. وكثيرا ما نيه إليه كبار قادته العسكريين ..
ولكن يبدو أن الزعيم كان يقول وهم من خلفه يستمعون دون أن يعملوا بما يسمعون ..
وهذه كانت المصيبة الكبرى والعيب الخطير الذى وقع فيه الزعيم وسط رجاله
الأشداء .. المهم أن هذا الزلزال قد دمر جيالا شائخة ، واقتلع أشجارا ضخمة ، وتغيرت
الدنيا بين ليلة وضحاها ..

وفى ١١ يونيو قبل الرئيس عبد الناصر تحمل مسئولية الحكم من جديد ، بعد تمثيلية
التنحي والنحيب والدموع والبكاء .. وقتها كنا نبكى على أنفسنا ، وعلى الكرامة التى
خلفناها وراءنا فوق الرمال الساخنة تحت أقدام اليهود ..

وبعد عودته وقبوله الاستمرار فى الحكم .. أصدر أولى قراراته وهى تعيين الفريق
أول محمد فوزى قائدا عاما للقوات المسلحة .. ومن ثم تم البدء فى وضع تصميمات
إعادة البناء والتنفيذ من حيث سرعة إعادة الصمود العسكرى .. والعمل على تماسك

القوات المسلحة مع الشعب والحكومة .. ورفض الهزيمة وتوطيد التعاون الوثيق بالدول العربية جميعا .. ثم توطيد الصداقة مع الاتحاد السوفيتى ..

كان ذلك من أجل استرداد الأرض بالقوة « فما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة » .. وقد تصورت اسرائيل أن السيادة العسكرية قد دانت لها .. وأن الشعب والجيش المصرى قد انتهى إلى الأبد .. ولكن خاب هذا التصور ، وأثبت الواقع تصور آخر وبدرجة لم تكن تتوقعها اسرائيل .. فبعد حوالى ثلاثة أسابيع من قرار وقف إطلاق النار بين مصر واسرائيل ، وقعت معركة رأس العش التى استولى خلالها الجيش المصرى على موقع حصين ظل فى أيدينا سنوات حرب الاستنزاف ، وحتى حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ .. ثم معركة بور توفيق وإغراق المدمرة إيلات ..

وظل هذا الحال على ما هو عليه حتى عام ١٩٦٨ حين بدأت بقسوة حرب الاستنزاف ، التى أطلق عليها الخبراء العسكريون حرب الإرهاق الحقيقى لاسرائيل ، والتى استمرت حتى تحقيق نصر أكتوبر عام ١٩٧٣ ..

لقد مرت مصر فى هذه الفترة بمرحلة صعبة نفسيا وعمليا .. على كافة المستويات .. داخليا وخارجيا .. وخاض الانسان المصرى معركة مع نفسه أولا ، ثم مع العدو .. وبدأت بشائر الأمل تلوح فى الأفاق .. حين أصبحت المعركة هى شاغل الانسان المصرى فى كل مكان .. ولا شك أن الفن والمؤسسة الغنائية الأولى بزعامة أم كلثوم ، كان لها دورها البارز فى هذا الميدان الخطير من حيث إعادة الروح إلى جسد الإنسان المصرى الذى كان قد مات ..

* * *

● حفلات خاصة ..

من أجل المجهود الحرنى :

وسط آلام الهزيمة .. وظلام الرؤية .. كان الانسان المصرى يضحك ، ربما على نفسه أو من نفسه .. فقد برزت من جديد الشعارات .. وأطلت برأسها من تحت التراب .. بعد ما داسها الناس وسط الدموع بأرجلهم المملطخة بالطين والدماء ..

لقد بدأت الاذاعة وكافة وسائل الاعلام الأخرى .. تركّز على رفع شعارين
لا ثالث لهما .. الأول « لاصوت يعلو فوق صوت المعركة » ومعناه أن كل شيء الآن
أصبح مباحا لنوى السلطان ، مادام هدفه خدمة المعركة .. ولا حديث عن حرية أو
طعام أو خلافة ، مادام صوت الحديث عن المعركة مرتفعا .. وقد تحمل الانسان
المصرى صابرا هذا الشعار ، لأن الهدف قومي ومصري ومرتبط بحياته التي عاشها
آلاف السنين على أرضه الطيبة وبكرامته التي يحاول استعادتها ..

أما الشعار الثاني .. والذي استخدم هو الآخر بشكل جيد .. فهو شعار « المجهود
الحري » .. وقد كان بالفعل شعارا جذابا سارع إلى تحقيقه كل من يريد أن يتقرب من
جديد لنوى النفوذ ، حتى ولو كان على مستوى القرية أو الحى ..

وقد بدأت الدعوة للمساهمة في هذا المجهود من المدارس والتلاميذ إلى الملاحى
والطرب والأغاني وكافة الحفلات .. كما إضيفت أعمال تحملها الناس .. تحقيقا لهذا
الشعار .. وكان أكثر هؤلاء الذين تأثروا بهذا الشعار وسارعوا من أجل تحقيقه ..
كوكب الشرق أم كلثوم ..

بجانب ذلك .. استطاعت أم كلثوم بحسها الوطنى وبحبها الشديد للزعيم المكسور
جمال عبد الناصر .. أن تغير من لهجة كلمات أغانيها .. حيث غلب عليها الطابع
الحماسى الشديد .. ليس فقط لبث الحماسة لأفراد الشعب .. بل للزعيم الجريح ..
ويدنو ذلك جليا من خلال استعراضنا السريع لمضمون هذه الأغنيات التى سجلتها أم
كلثوم فى الفترة من عام ١٩٦٧ وحتى عام ١٩٧٠ .. يوم رحيل الزعيم ..

فى شهر أغسطس عام ١٩٦٧ .. وبعد مرور شهرين على الهزيمة غنت أم كلثوم
أغنية « طوف وشوف » من تأليف الشاعر عبد الفتاح مصطفى وتلحين رياض
السنياطى .. وكلماتها تدور حول التغنى بآثار مصر القديمة والحديثة « طوف بجنة ربنا
فى بلادنا واتفرج وشوف » .. ولا نعرف إن كانت أم كلثوم تقصد أن تنفّرج على
بلادنا قبل الهزيمة أو بعدها .. وفى آخر كلمات القصيدة لم تنس الزعيم الجريح حيث
غنت تقول له :

والأمل أصبح عمل والخيال أصبح نضال هى دى ثورة بلادى الى حققها جمال

وفي نفس الشهر غنت أم كلثوم أغنية أخرى بعنوان « حبيب الشعب » من تأليف صالح جودت وتلحين رياض السنباطي ، وتقول بعض كلماتها أيضا وهي تمجيد في شخص الزعيم عبد الناصر :

أنت الناصر والمنصور أبقي فأنت حبيب الشعب
قم للشعب ويدد يأسه واذكر غده واطرح أمسه

كما غنت قصيدة أخرى بعنوان « قوم بإيمان » من كلمات الشاعر عبد الوهاب محمد وتلحين رياض السنباطي أيضا .. وهي على طريق بث الحماسة الوطنية لشخص جمال عبد الناصر من أجل تأكيد وجوده لدى الإنسان المصري بعدما هزمه الزلزال .. إذ يقول :

قوم بإيمان وبروح وضمير دوس على كل الصعب وسير

وكما ذكرنا من قبل فإن جرعة الأغنية العاطفية التي تعود عليها الناس من أم كلثوم قد قلت نغمتها في هذه الفترة إلى درجة الندرة .. ولم يعد يسمع الناس سوى كلماتها العاطفية القديمة .. وربما كان ذلك مرجعه للتخطيط الاعلامي الجديد والدور الذي بدأ يرسمه لأم كلثوم جمال عبد الناصر بعدما أفاق من هول صدمة الهزيمة .. إذ شعر في قرارة نفسه ما وصلنا إليه من أن جرعة الأغاني العاطفية ، كانت قوية التأثير في الناس ، وفي كافة المناصب .. وتسرب سحرها إلى أعلى القيادات آنذاك ..

ويكفينا قول الأستاذ فتحى رضوان في شهادته للتاريخ .. حيث ذكر أن عبد الناصر نفسه كان من سميعة أم كلثوم الذي كان يسهر كى يسمعها حتى نهاية الحفل واختتام الإرسال الاذاعي ..

لقد قلت بالفعل هذه الأغاني العاطفية بشكل مثير للدهشة والتساؤل ، ونحن نسجل هذه الملاحظة من واقع سجلات الأغاني والقصائد التي سجلتها أم كلثوم بعد هزيمة عام ١٩٦٧ .. ويكفى أن نقول أن عدد الأغاني العاطفية خلال ثلاث سنوات ، وبعد عام ١٩٦٧ بلغت أربع قصائد هم : « أسأل روحك » من تأليف عبد الوهاب محمد و« فات الميعاد » من كلمات الشاعر مرسى جميل عزيز و« ألف ليلة وليلة » من كلمات نفس الشاعر وأغنية « الحب كله » من تأليف الشاعر أحمد شفيق كامل ..

لقد كانت أم كلثوم تخطط لخدمة المعركة والمساهمة في المجهود الحربي .. ولسوف نصحبها بعد قليل خلال رحلاتها العديدة التي قامت بها هناك من أجل عيون عبد الناصر ، والمعركة وإعادة الحماس والأموال والإعداد لتحقيق شعار « ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة » مع إزالة آثار العدوان ..

وتقول الكاتبة الجزائرية « ايزابيل صياح » عن هذه المجهود التي قامت بها أم كلثوم خلال هذه الفترة :

– لقد استطاعت أم كلثوم أن تجمع خلال الاسبوع الأول من شهر يوليو عام ١٩٦٧ مبلغ ١٥ ألف جنيه .. وقدمته لوزارة الشؤون الاجتماعية .. كما قررت أن تقوم بجولة في العالم لتغني .. ويكون دخل حفلاتها لصالح خزانة الدولة .. وفعلت قبلت أول حفل خارج نطاق الدول العربية في العاصمة الفرنسية ..

وفي يوم سفرها إلى باريس خرجت جموع كثيرة كى تودعها في مطار القاهرة وكانت أم كلثوم تبدأ كل صباح بتلاوة آيات قرآنية لتستمد منها الايمان والقوة .. وفي مساء اليوم التالى لوصولها وقفت أم كلثوم على خشبة « أولمبيا » أكبر مسارح باريس .. وكانت أول مرة تغنى فيها أمام جمهور غرقى .. ولكن مدير المسرح طمأنها بأن الشعب الفرنسى ينتظر ظهورها على خشبة المسرح .. وأن الصحف نشرت مقالات وصورا عنها ..

أما الاذاعة الفرنسية فقد أذاعت لها عدة أغاني قبل وصولها إلى باريس .. لقد كانت باريس هى الخطوة الأولى فى مهمتها الجديدة ، السياسية قبل الفنية حيث انتهزتها فرصة وأرسلت رسالة للرئيس الفرنسى « شارل ديغول » لتقدم له التحية .. فهو قائد قوى وهى تحمده وتقدرة منذ الحرب العالمية الثانية ، فهو الذى أنقذ فرنسا وقادها إلى النصر .. ولأنه وقف بجانب العرب ..

وقبل ساعات من بداية حفلها طمأنها مدير المسرح بأن أكثر من نصف المشاهدين من الشرق .. كما قدم لها الصحف الفرنسية لتقرأ ما كتبه عنها فوجدت أيضا أن الصحفيين الفرنسيين يقارنونها بالمطربة الايطالية « ماريا كالاس » والمطربة الفرنسية « أديث بياف » التى تتميز بصوت يخاطب وجدان شعبها .. ولكن أم كلثوم لا ترضى

بالمقارنات مهما كانت .. فأَم كلثوم لها طابعها الخاص ، ولها مهمة تؤديها عن طريق غنائها .. وقد قدمت أم كلثوم في هذا الحفل أغنية « الأطلال » أشهر أغانيها ..

ولشدة إعجاب الجمهور بادائها كانت تعيد المقطع أكثر من مرة حتى وصل إلى عشرات المرات .. وكان أسلوبها يختلف في كل مرة عن سابقتها .. وقد حصلت أم كلثوم مقابل إقامة حفلتين على ٢٠ مليون ستم خصصتها لخزانة الدولة في مصر ..

أما أم كلثوم فتسجل لنا انطباعها عن هذه الجولة الفنية خارج حدود مصر ، وحدود الدول العربية فتقول :

- واجزت الحدود .. غنيت في باريس ويرجع الفضل إلى المرحوم الدكتور محمود أبو عافية الذى حرر لى عقد كوكاترديس للغناء على مسرح الاوليبييا وقبل الحفل جاء كوكاترديس خائفا .. فقد نما إلى علمه أن الصهيونية لن تترك هذه الحفلات تمر على خير ، وقلت له أنتى لا أخاف ، وأنتى سأغنى ، كما أنتى مصممة على تنفيذ العقد .. وقد حددت موعد سفرى ، وتدخل ابن شقيقتى .. المهندس محمد الدسوقي وقال :

- كل ما أريده أن تحجز لى غرفة بجانب غرفتها لأكون فى حراستها .. وحتى هذه لم أقبلها ، ففى العمل الوطنى لا أحد يحرس أحد ولعلها أسعد ليالى عمرى .. ليلة الغناء فى مسرح الاوليبييا ، فقد غنيت « أعطنى حريتى .. أطلق يديا » بانفعال لا أتصورنى بلغته أو سوف أبلغه بعد ذلك .. هل أتاك حديث الجماهير ، وماذا فعلت وأى جنون قد أصابها ؟ الحمد لله .. هذه نعمة من نعم الله وفضله .. ولقد عرفت أن اليهود الذين كانوا يعيشون فى مصر أول من حجزوا المقاعد وهم يسمعوننى ، ويتذكرون أيامهم هناك فى مصر ..

وبعد هذه الرحلة .. عادت أم كلثوم إلى أرض مصر منتصرة .. فقد حققت أولى خطواتها بنجاح .. وقد منحتها السلطات آنذاك جواز سفر دبلوماسى .. كما حصلت على لقب سفيرة .. وبعد عودتها بدأت تعد للرحلة القادمة فى بعض الدول العربية ، وقد كلفت الشاعر أحمد رامى بإعداد قصائد جديدة ..

ثم بدأت أم كلثوم رحلتها إلى الدول العربية بدولة السودان .. وهناك غنت

للوحدة بين شعبي وادى النيل حتى أن الصحف نشرت أن ما فعلته أم كلثوم في ساعتين أكثر مما فعلته السياسة في ١٢ عاما .. كما أطلق اسمها على إحدى المدارس الجديدة في السودان ..

ثم تابعت رحلاتها إلى فارس بالمغرب .. ثم إلى الرباط .. وغادرت المغرب إلى الكويت ، ومنها إلى تونس التي قضت بها عدة أسابيع .. حيث أرهقها كثرة السفر .. وتكريما لها هناك أطلق اسمها على أكبر شوارع العاصمة التونسية ..

لقد استمرت رحلات أم كلثوم قرابة عام استطاعت خلالها أن تجمع الأمة العربية حول مصر .. بعدما مزقتها كلمات عبد الناصر قبل وقوع كارثة عام ١٩٦٧ ..

وبعد أن أنهت جولاتها حول العالم العربي ذهبت أم كلثوم إلى « سالزبورج » للعلاج والراحة .. حيث قضت هناك ثلاثة أسابيع .. استعادت صحتها وحيويتها .. ولدى وصولها إلى القاهرة كان في استقبالها المهندس ابراهيم الدسوقي ابن شقيقها والشاعر أحمد رامى ، والملحن الكبير محمد عبد الوهاب ، وعدد كبير من الجمهور .. وحين وصلت إلى فيلتها في الزمالك وجدت في انتظارها نصف مليون خطاب ، وأكثر من ٧٤ ألف تليفون ..

أما الكاتب الصحفى محمود عوض فقد حدثنا عن رحلة أم كلثوم في مجال الفن والسياسة حيث قال :

— لكي نحب بلدنا .. يجب أولا أن تحبنا بلدنا .. حب بغير شروط وبغير تحفظات .. ولقد أعطت بلدنا مصر حبا لأم كلثوم على بياض .. فكانت النتيجة أن الفنانة أحبت جمهورها .. وأم كلثوم أحبت بلدها بغير حدود ..

وخلال ستين دارت أم كلثوم حول الكرة الأرضية مرتين .. من باريس إلى المغرب .. ومن تونس إلى لبنان ثم من السودان إلى ليبيا .. ومن الكويت إلى طنطا والمنصورة ودمهور إلى الأسكندرية ثم إلى القاهرة .. وفي كل مرة كانت أم كلثوم تعود فيها إلى القاهرة كانت تعود بمبلغ ضخيم في يدها ، وحب ضخيم في قلبها .. لقد غنى صوتها بعد نكسة يونيو عام ١٩٦٧ ، وجمعت يدها الحصيلة وهى مليونان من الجنيهات

قدمتها أم كلثوم لبلدها في سنتين .. تبرع إختيارى ومساهمة عاجلة .. تبرع من الجمهور إلى فنائه ومساهمة من الفنانة لبلدها ..

إن أم كلثوم أحبت مصر بغير حدود... فأحبها أم كلثوم بغير حدود وفي هذه المرحلة .. بدأ الجزء الفنى في شخصية أم كلثوم يتراجع إلى الخلف مفسحا مكانه إلى الجزء الأساسى في شخصيتها.. أنه الجزء الوطنى .. من الآن فصاعدا سوف تصبح مواطنة أولا ، وفنانة بعد ذلك .. المواطنة تقرر والفنانة تنفذ القرار ..

من الآن فصاعدا سوف تغنى أم كلثوم .. ولكن لصالح تبرعات إزالة آثار العدوان .. ولصالح تعمير مدن القناة أو لأى عمل يخفف عن مصر آلام الهزيمة ويساهم فى جهود النصر .. لقد أعطت أم كلثوم نموذجا لما يستطيع الفنان ، والفنان فقط أن يفعله لبلده .. نموذج شهده التاريخ من قبل مئات المرات ..

إن الفنان هو فى الواقع أكثر من يجب بلده .. لأن الفنان يستطيع أن يترجم الوطنية الى أشياء بسيطة ومفهومة .. وبهذا المعنى تتحول السياسة عند الفنان إلى شىء آخر خال من التعقيد والفلسفة .. السياسة هنا هى الدفاع عن الأرض .. دافع عن حياتك وعن أرضك .. عند هذه النقطة يقف الفنان فى المقدمة لأن الفنان أكثر البشر إتصافا بالأرض ..

ليس هذا فقط .. بل بادرت أم كلثوم بالدعوة إلى إقامة تجمع وطنى للمرأة المصرية .. تجمع يساهم بأى مجهود لترميم ثم تعبئة المشاعر الوطنية للمرأة المصرية بعدها قادت الحملة لجمع تبرعات المواطنين ..

* * *

● الأيام الأخيرة فى حياة

جمال عبد الناصر

فى السادسة والدقيقة ١٥ مساء الاثنين ٢٨ سبتمبر عام ١٩٧٠ الموافق ٢٧ رجب عام ١٣٩٠ هجرية .. توقف قلب عبد الناصر للأبد .. وبكى الناس الزعيم ..

وأعلن الأطباء في تقريرهم الطبي .. وفاة الزعيم رسميا بعد رحلة آلام وعذاب استغرقت ٨ سنوات ..

ووجه أنور السادات نائب رئيس الجمهورية آنذاك بيان الموت إلى الأمة في الحادية عشرة إلا خمس دقائق ليلة الوفاة نعى فيها جمال عبد الناصر .. وتقرر ليلتها أن تشيع الجنازة في العاشرة صباح يوم الخميس أول أكتوبر لاثاحة الفرصة أمام دول وشعوب الأمة العربية للمشاركة في الجنازة والوداع الأخير .. كما أعلن ليلتها الحداد رسميا في مصر لمدة أربعين يوما ..

وفي أول أكتوبر عام ١٩٧٠ دفن جمال عبد الناصر في المدفن الخاص الذى بنى خلف مسجد كوبرى القبة المواجه لمبنى الكلية الفنية العسكرية .. وأطلق على المسجد .. لاسم جمال عبد الناصر ..

هذه قصة لحظات الوداع .. منذ الاعلان عن وفاة الزعيم وحتى اختفاء جسده تحت التراب ..

ولكن هل هذه الوفاة قد حدثت فجأة .. أم كان يعرف بأسبابها العديد من المحيطين بالرئيس عبد الناصر ؟ .. طبعاً كانت لهذه الوفاة أسباباً ومقدمات .. كان يعرفها كل المقربين للزعيم الراحل .. إلا أفراد الشعب ، وكأنما كانت أخبار مرض الزعيم من أسرار الدولة العليا .. ولا يجب أن يظهر الرئيس ضعيفاً أو مريضاً أمام شعبه وخاصة رجل مثل جمال عبد الناصر ..

لقد فوجئنا بنبأ الرحيل .. ولطمنا الحدود .. وذرفنا الدموع .. وانطلقنا وحوشاً كاسرة وسط الشوارع بلا دليل ولا هودة .. ندمر كل شيء في طريقنا تحت تأثير الصدمة .. وأصبحت مصر بعد لحظات من الاعلان عن نبأ الوفاة رجل درويش يتخبط في أزيائه ويصيح الله أكبر .. ويلوح بعصاه هنا وهناك ، وكأنما قامت قيامة الناس .. ليس فقط في عاصمة مصر القاهرة .. بل امتد هذا التأثير المجنون لرحيل الزعيم الأسطورة إلى كل عواصم ومحافظات مصر .. بل في داخل كل حارة أو قرية وشارع من الاسكندرية مروراً بالقاهرة وحتى أسوان وحدود السودان ..

كما امتد هذا الهوس في الاسراع للمشاركة في جنازة الزعيم الأسطورة إلى العديد من

عواصم العالم العربى والأجنبى على السواء .. فقد خرج الشعب العربى كله من المحيط إلى الخليج يبكى عبد الناصر .. وأعلن فى كافة عواصم العالم أسماء الملوك والرؤساء الذين سوف يحضرون تشييع الجنازة .. وكان منهم الرئيس كوسيجين « الاتحاد السوفيتى » هوارى بومدين « الجزائر » الرئيس تيتو « يوغسلافيا » ، ولیم روجرز وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية ، موريس شومان وزير خارجية فرنسا وجعفر نميرى « السودان » ومعمّر القذافى « ليبيا » والملك حسين « الاردن » وياسر عرفات « فلسطين » ..

ومن لم يستطع الرحيل مبكرا إلى القاهرة للمشاركة فى الجنازة ، كان يقيم فى بلده جنازة يتقدمها رئيس هذا البلد .. مثلما حدث فى كثير من البلدان العربية ، أما بالنسبة للدول الأجنبية فقد كان رؤساء بعضها يسارعون إلى السفارة المصرية لتقديم خالص العزاء ..

* * *

وقبل نقل جثمان الفقيه إلى قصر القبة ملفوفا فى علم مصر استعدادا لمراسم الدفن .. قدم الأطباء المعالجون تقريرا طبيا عن الوفاة .. وظروفها وأسبابها .. وأوضحوا فيه أن عبد الناصر شعر بدوخة مفاجئة مع عرق شديد وشعر بهبوط أثناء وداعه لأمير الكويت بمطار القاهرة فى الثالثة والنصف من بعد ظهر يوم ٢٨ / ٩ / ١٩٧٠ ..

وكان جمال عبد الناصر قد توجه فور شعوره بالتعب إلى منزله بمنشية البكرى .. ليكشف عليه الأطباء ويجدوه مصابا بأزمة قلبية شديدة .. نتيجة انسداد فى الشريان التاجى للقلب .. وقد تم إجراء جميع الاسعافات اللازمة بما فى ذلك استعمال أجهزة تنظيم ضربات القلب .. ولكنه توفى فى السادسة والربع مساء نفس اليوم أثناء إجراء الاسعافات .. وقد وقع هذا التقرير خمسة أطباء تابعين لرئاسة الجمهورية ..

والسؤال الذى لا يزال يتردد ويفرض نفسه بقوة .. ونحن نحمل كلماته ونسطرها فوق الأوراق ونقول معه .. وهل مات جمال عبد الناصر فجأة ؟ أم كان لهذا الموت مقدمات يعرفها الكثيرون من المحيطين بالزعيم ..؟!

نعم .. لقد صدرت مئات الكتب التى حاولت الاجابة على هذا السؤال ، ومنهم

كتاب الكاتب الصحفي فاروق فهمي بعنوان « جمال عبد الناصر ولغز الموت » وكلها تدور وتلف حول البحث عن إجابة السؤال الذي طرحناه العديد من المرات .. ولا يعنيها في هذه الكتب إلا شيء واحد فقط .. هو أن نتبع من خلالها لحظات ما قبل الموت .. هذه اللحظات قد تمتد إلى سنوات طويلة .. وتكون بالنسبة لرؤساء الدول والرعماء بمثابة مراحل وخطوط بالطول والعرض في تقارير طبية سرية أحيانا وعلنية أحيين كثيرة ..

المهم أن لمرض الزعماء سجل كبير .. به كافة التقارير المرتبطة بهذا المرض أو بذاك .. ويعرف بها الناس في الشارع .. لأن صحة الرئيس هامة جدا بالنسبة لمصير أى شعب .. ويخرج عن هذه القاعدة كافة الدول النامية وكثير من الدول العربية .. إذ ينظر كل من حول الزعيم أو الرئيس أن حكاية المرض هذه من خصوصيات قصر الرئاسة ولا يجب أن يعلم بها أفراد الشعب .. الأمر الذى يجعل بعض أفراد الشعب المساكين يتخيلون أن الرئيس قد مات فورا وبلا مقدمات ..

هذا ما حدث للشعب المصرى مع زعيمه الأسطورة جمال عبد الناصر .. ومن بعد الرحيل تكلمت الأوراق .. وخرجت النشرات والتقارير الطبية من الأدراج المختومة بالشمع الأحمر .. وتكلم الأطباء المعالجون .. حتى الذين تابعوا لحظات الوداع الأخيرة .. ودار الحديث بين الحقيقة والأسطورة .. بين ما حدث فعلا وما وقع فى رأس بعض الذين يجيدون لعبة الخيال ..

فقد نشرت العديد من المذكرات للعديد من المسؤولين المصريين الذين كانوا فى الحكم أيام جمال عبد الناصر ، حيث شككوا كثيرا فى وفاة الزعيم .. وأشار البعض منهم بأصابع الإتهام إلى جنائية الوفاة وإهمال العلاج .. ومؤامرات أجهزة المخابرات العالمية للاغتيال .. مثل هذه القصص والروايات حتى ولو كانت صحيحة لا تعنينا فى موضوعنا هذا من قريب أو بعيد ..

المهم علينا من هذه اللحظة أن نسجل بالكلمات لحظات العد التنازلى لرحيل جمال عبد الناصر .. وتبدأ القصة من ذاكرة أم كلثوم حين قالت بعض الأوراق التى صدرت آنذاك عن كوكب الشرق أم كلثوم .. التى لم تكن مثل ملايين المصريين والعرب الذين

فوجئوا برحيل الزعيم .. ففى حقيقة الأمر كانت تعرف أكثر من أفراد الشعب بمرض الزعيم
ويقرب رحيله عن عالمنا ..

ففى ذات يوم ومع نهاية عام ١٩٦٩ قامت أم كلثوم بزيارة إحدى صديقاتها وأخذتا
تتبادلان الحديث حول السياسة ومرض الزعيم عبد الناصر .. ومن ثم سفره للإتحاد
السوفيتى للعلاج وطلب المساعدات العسكرية العاجلة .. لإستمرار حرب
الاستنزاف .. كما دار الحديث بين أم كلثوم وصديقتها حول إمكانية سفرها هى أيضا أى
أم كلثوم للعلاج فى الإتحاد السوفيتى ..

وبالفعل بدأت أم كلثوم تعد للرحيل إلى موسكو بعد موافقة السفارة السوفيتية
بالقاهرة .. وهناك كان فى استقبالها وكيل وزارة الثقافة السوفيتى باعتبارها تحمل جواز
سفر دبلوماسى مصرى .. وظلت أم كلثوم هناك فى الإتحاد السوفيتى حتى يوم ٢٨
سبتمبر عام ١٩٧٠ حيث أسرع للعودة إلى القاهرة بعد أن وصلها تلغراف عاجل بأن
الرئيس عبد الناصر ، قد أصيب بأزمة قلبية .. وعند هبوطها سلم الطائرة فى لندن بكت
أم كلثوم عند سماعها نبأ وفاة جمال عبد الناصر ..

* * *

تقول أوراق الملف الطبى الذى صدر بعد أعوام عديدة من رحيل الزعيم .. أن جمال
عبد الناصر قد عاش صراعا طويلا مع المرض .. وكان السكر .. هو المتهم الأول فى
التعجيل برحيله بعد ٨ سنوات من الاصابة به فجأة ..

لقد عرف جمال عبد الناصر .. المرض القاتل فى لحظة الصراع بينه وبين خروشوف
عام ١٩٥٨ .. وكان عبد الناصر فى زيارة ليوغسلافيا وخلال عودته من الزيارة اندلعت
ثورة العراق فى يوليو عام ١٩٥٨ فقطع الرحلة وتوجه إلى موسكو ومكث مع
خروشوف فى مناقشات استمرت ١٦ ساعة متواصلة كى يقنع زعيم الإتحاد السوفيتى
بمساعدة العراق (١) .

ولكن خروشوف رفض بإصرار رغم محاولة عبد الناصر إقناعه بأن الثورة العراقية

(١) جمال عبد الناصر ولغز الموت - فاروق فهمى ..

ضد الاستعمار والأحلاف الغربية .. وكانت مصر آنذاك في وحدة مع سوريا .. وكانت صدمة قاسية لعبد الناصر بعد أن شعر أنه لا يمثل شيئا أمام حليفه القوى الاتحاد السوفيتي الذي يرفض أن يعامله كزعيم للمنطقة العربية ..

ثم زاد مرض السكر على الزعيم عام ١٩٦٢ فور الانفصال مع سوريا ، ودخل الأطباء معه في صراع مرير من أجل إقناعه بالمرض الجديد .. وضرورة تنظيم الطعام وأسلوب العمل والراحة والاجازات ..

وما حدث في اليمن .. جعل نسبة السكر ترتفع بشكل مخيف .. هدد حياة عبد الناصر .. وكانت بداية طريق الإصابة في ساقه اليمنى بتصلب الشرايين وشعوره بالآلام القاسية .. حيث تحولت اليمن ومساندة ثورتها إلى مستنقع ، غرق فيه الزعيم وأفقدته القدرة على التفكير .. وحاول الأطباء إنقاذ حياته بعد أن تدهورت في أيام القتال الأولى .. ووصفوا له العلاج .. ولكنه رفض النصائح الطبية ، خشية أن يكون هؤلاء الأطباء من عملاء المخابرات الأمريكية أو السعودية !! ..

وجاءت الطامة الكبرى .. حيث حلت علينا وعليه هزيمة عام ١٩٦٧ .. والتي يعتبرها العديد من المؤرخين هي موعد موته الحقيقي حيث قتل عبد الناصر نفسيا ومعنويا وصحيا^(١) ..

لقد كانت قمة مأساته الشخصية طوال اليوم الأسود في استماعه إلى كل أخبار الهزيمة من مختلف إذاعات العالم .. ولم يجد أمامه سوى البكاء .. وفي هذه اللحظات ارتفع السكر في دم جمال عبد الناصر ، إرتفاعا مخيفا فزادت كمية الأنسولين الذي كان يتعاطاه وعلت صفرة الموت وجهه ، وبات يعاني من الام مبرحة بعد أن تحول السكر إلى أملاح سامة انتشرت داخل شرايين ساقه .. فقد كانت أى حركة يقوم بها الزعيم تسبب له الآلام الشديدة في جميع أجزاء - . مدة طوال ال ٢٤ ساعة .. وفي هذه الفترة أيضا اكتشف الأطباء أيضا إصابة عبد الناصر - . شلل في البنكرياس وفقد الدم نتيجة للأنسولين الذي بدأ يتعاطاه بكميات كبيرة ..

(١) المرجع السابق ..

وفى ١٣ يونيو عام ١٩٦٧ .. أجرى له الأطباء كشفا عاما .. حيث اكتشفوا إصابته بأول أزمة قلبية .. ولم يجرؤ أحد أن يخبر الزعيم بهذه الإصابة ..

ووضح على جمال عبد الناصر تأثير إصابة ساقه .. حيث لم يعد يستطيع في هذه الفترة السير إلا متكئا على أحد مهما كانت المسافة قصيرة .

وفى يوليو عام ١٩٦٨ كانت حرب الاستنزاف على أشدها .. وكان جمال عبد الناصر في زيارة للاتحاد السوفيتى من أجل الحصول على المزيد من الأسلحة الحديثة ..

. ويذكر الأستاذ محمد حسنين هيكل أنه وفى الطائرة التى كانت تقل السيد الرئيس إلى موسكو كان يجلس أمام عبد الناصر فلاحظ أن الرئيس عبد الناصر لا يستطيع الجلوس فى مقعده من شدة الألم .. وفرش له الأطباء المرافقون سريرا فى الجزء المخصص له فى مقدمة الطائرة .. ورغم الألم الشديد يقول هيكل أن عبد الناصر قد استدعاه بعد أن صحا من النوم ، وطلب رؤية ياسر عرفات الذى كان مرافقا لعبد الناصر فى رحلته إلى موسكو ..

وبناء على اقتراح من الأطباء المرافقين وافق جمال عبد الناصر ، على أن يعرض نفسه على أطباء من الاتحاد السوفيتى .. وبالفعل دخل مستشفى بريجة وأجرى له الأطباء السوفيت كشفا عاما ، فوجدوا أنه مصابا بتصلب فى شرايين الساق اليمنى من أثر مضاعفات السكر .. وقرروا ضرورة عودة الزعيم إلى الاتحاد السوفيتى مرة أخرى بعد أسبوعين لعلاج فى مصحة اسخالطوبو بالمياه المعدنية ..

وعاد عبد الناصر إلى القاهرة .. ثم سافر بعدها الى موسكو من جديد وفى الموعد الذى حدده الأطباء السوفيت وقضى هناك أسبوعين عاد بعدهما لقضاء إجازة نقاهة بالاسكندرية .. ولم تحف آلام ساق عبد الناصر .. وطلب منه الأطباء السوفيت أن يرحل إليهم من جديد فى جينيف عام ١٩٦٩ لمواصلة العلاج الذى كان أساسه حمامات من الإشعاع النووى .. وكان جمال عبد الناصر يأخذ حمامه العلاجى كل صباح فى السابعة والنصف .. ثم يعود للافطار فى الثامنة .. وكان بين المصحة والحمام حوالى ٤٠٠ متر ..

وفى ١١ سبتمبر عام ١٩٦٩ .. أصيب جمال عبد الناصر بأول أزمة قلبية حادة ..

شخصها الأطباء آنذاك بأنها ذبحة صدرية حادة ، ومن الممكن أن تؤدي للوفاة في أى لحظة ..

ويقال أن سبب هذه الأزمة الصحية الجديدة أن عبد الناصر قد علم في اليوم السابق للإصابة أن الاسرائيليين قد قاموا بعملية إنزال عسكري في الزعفرانة على خليج السويس .. وقد صورت إذاعات هذا الانزال بأنه غزو جديد لمصر ..

وعلى الفور قرر الأطباء أن يعرف عبد الناصر حالته كى يساعدهم في العلاج .. وانتهت مناقشة الأطباء مع عبد الناصر ، على أن يحصل الزعيم على أجازة إجبارية لمدة ٦ أسابيع قابلة للتجديد ..

وفي ٢٨ سبتمبر عام ١٩٦٩ .. كان جمال عبد الناصر يزور ليبيا في أعقاب مؤتمر القمة العربى فى الرباط .. وبعد أن نزل من الطائرة ركب سيارة مكشوفة ظلت تطوف بشوارع بنغازى لمدة ٤ ساعات .. عاد بعدها إلى القاهرة أكثر إجهادا .. بل وأصيب بنزلة برد حادة ، على اثر قيام إسرائيل بغارات فى عمق الأراضى المصرية ، وزاد عدد الضحايا من الأطفال والمدنيين .. وقرر عبد الناصر السفر إلى موسكو فى الأسبوع الأول من يوليو من عام ١٩٧٠ .. ورغم اعتراض الأطباء على هذه الزيارة حيث مايزال يعانى من الانفلونزا الحادة إلا أنه سافر إلى موسكو ، التى كانت درجة حرارتها آنذاك ٢٦ درجة تحت الصفر .. وكانت هذه هى اخر زيارة يقوم بها جمال عبد الناصر الى موسكو لإجراء آخر مباحثات سياسية له هناك قبل موته ، حيث عاد ، إلى القاهرة فى ٢٠ يوليو عام ١٩٧٠ لحضور المؤتمر القومى الأول بعد إعلانه قبول مبادرة روجرز لحل الصراع العربى الاسرائيلى ..

وبعد انتهاء المؤتمر ذهب إلى مرسى مطروح فى اجازة لمدة ٢٤ ساعة ، عاد بعدها إلى القاهرة بعد إندلاع أزمة المقاومة الفلسطينية والملك حسين ..

ويرى المراقبون أن رحلة مرسى مطروح هذه كانت بداية النهاية .. حيث قطع عبد الناصر هذه الأجازة القصيرة ، وعاد إلى القاهرة مسرعا كى يبدأ رحلة للإعداد لعقد

مؤتمر القمة العربى .. الذى كان آخر المؤتمرات التى حضرها .. هذا المؤتمر الذى دعا إليه لوقف مذبحة الفلسطينيين فى الأردن ..

وانعقد المؤتمر فى أحد فنادق القاهرة .. وكان عبد الناصر يبدأ يومه فى السادسة صباحا ، وينتهى فى العاشرة مساء دون نوم أو طعام .. ولما انتهى مؤتمر القمة العربى الأخير .. خرج الرئيس عبد الناصر للتوجه إلى مطار القاهرة لحضور مراسم الوداع الأخيرة مع أمير الكويت .. بعدما ودع من قبل العديد من الملوك والرؤساء العرب الذين حضروا هذا المؤتمر .. وكأنما كانوا يسارعون من أجل إلقاء النظرة الأخيرة على الزعيم جمال عبد الناصر ، الذى رحل بعد أقل من عدة ساعات من انتهاء آخر جلسات هذا المؤتمر ..

وفى وداع أمير الكويت ، أحس عبد الناصر فى الدقائق الأخيرة أنه متعب بأكثر مما يحتمل .. لكنه تماسك .. بجهد لا يصدق على حد تعبير الكاتب الصحفى محمد حسين هيكل ..

صعد أمير الكويت إلى طائرته ، والتفت الرئيس يطلب سيارته ، وكان ذلك على غير المعتاد .. فقد كانت عادته أن يذهب إلى سيارته ماشيا حيث تقف .. وجاءت السيارة ودخل إليها عبد الناصر الذى طلب على الفور طبيبه الخاص الدكتور الصاوى ..

وفى المنزل بمنشية البكرى اكتشف طبيب عبد الناصر .. جلطة جديدة فى الشريان الأمامى للقلب . وكان قد أصيب من قبل بجلطة فى الشريان الخلفى ، وفى غرفة نوم الزعيم .. كان المشهد الأخير .. حيث كان يستمع عبد الناصر إلى نشرة أخبار الساعة الخامسة من مساء يوم ٢٨ سبتمبر عام ١٩٧٠ ..

وفجأة أغمض عبد الناصر عيناه ثم وجدوه ينزل يده من فوق صدره حيث استقرت بجواره .. فقد مات الزعيم عن عمر يناهز الثانية والخمسين من عمره .. حيث توقف قلب جمال عبد الناصر فى السادسة والدقيقة ١٥ من مساء يوم الاثنين ٢٨ سبتمبر عام ١٩٧٠ ..

عندئذ انفجر البركان البشرى فى مصر ، وفى كافة أنحاء العالم العربى .. وخرجت الملايين متجهة إلى قصر القبة للمشاركة فى جنازة الزعيم ، ومن قبلها إلى منزل عبد

الناصر بمنشية البكرى ، ففى أقل من ساعة واحدة بلغ عدد الموجودين حول المنزل أكثر من مليون مواطن ..

وتوقفت الحياة فى مصر .. وأغلقت دور الملاهى والمحال العامة ودور السينما .. وشاركت أم كلثوم هؤلاء الملايين فى الوداع الأخير ..

وكان هذا الحدث بمثابة بداية العد التنازلى لحياةها الفنية .. وبالتالى رحيلها مثل ما رحل قبلها جمال عبد الناصر ..

الفصل السادس

ما بين صاحبة العصمة والسيدة الأولى

إذا كانت مصر كلها من أقصاها إلى أقصاها .. قد أفادت في يوم من الأيام غير المعروفة على صوت من يرددون في كل مكان .. وفي وسائل الاعلام المقروعة والمرئية والمسموعة اسم سيدة مصر الأولى .. السيدة جيهان صفوت حرم الرئيس محمد أنور السادات ..

فان الكثير ممن رددوا هذا اللقب الغريب ، لم يعرفوا أن أم كلثوم أيضا كانت هي الأخرى ضمن السيدات الأوائل في مصر قبل الثورة .. حيث منحها الملك فاروق وسام الكمال من الدرجة الأولى ، والذي بموجبه حصلت على لقب « صاحبة العصمة » ..

معنى ذلك أنه إذا كانت السيدة جيهان قد منحت هذا اللقب من قبل زوجها باعتباره الرجل أو الرئيس الأول .. فإن أم كلثوم أيضا قد منحت هذا اللقب من السيد الأول أو ملك البلاد آنذاك فاروق الأول ..

إن لقب « صاحبة العصمة » الذى اقترن باسم كوكب الشرق ، أم كلثوم منذ

منتصف الأربعينات جعلها في مقام أميرات القصر الملكي ، ولها نفس الحقوق والامتيازات ..

هذا اللقب لم تتمتع به سوى سيدة واحدة في مصر .. وفي مجال الفن بالذات .. أنها « صاحبة العصمة » السيدة أم كلثوم ابراهيم البلتاجي ، وحتى نكون أكثر دقة في هذا التعبير .. كانت أم كلثوم السيدة المصرية الوحيدة التي حملت هذا اللقب من خارج الأسرة المالكة ..

وبعد رحيل الزعيم جمال عبد الناصر .. وتولى نائبه محمد أنور السادات رئاسة الجمهورية .. خلع على زوجته لقب « السيدة الأولى » .. وهو لقب لم يكن معروفا داخل المجتمع المصري قديما أو حديثا .. وإنما هو لقب منقول حرفيا ووظيفيا ولغويا من المجتمع الأمريكي ..

وكما يقول الأستاذ أنيس منصور هو لقب لا تحمله في المجتمعات الأمريكية والاوربية إلا زوجات رؤساء الدول وزوجات رؤساء الوزارات ..

ولا شك أن منح جيهان السادات لقب « سيدة مصر الأولى » كان له تبعات وآثار عديدة داخل المجتمع المصري وخارجه .. كما كان له عدة وظائف .. كان على السيدة الأولى أن تقوم بها من واقع هذا المنصب الشرفي .. وقد تركزت هذه الوظائف ، وفقا لهذا اللقب في ميدان الخدمة الاجتماعية .. الذي حاولت أم كلثوم أن تدخله بعد ما قررت اعتزال الفن أو الإقلال منه بعد رحيل الزعيم جمال عبد الناصر ..

لقد كان هذا اللقب هو بداية صراع خفي بين كوكب الشرق أم كلثوم « صاحبة العصمة » وبين السيدة جيهان السادات « سيدة مصر الأولى » هذا الصراع لم يتوقف عند حد معين .. بل كان له تأثير السحر على رئيس الدولة نفسه .. حيث بات ينظر إلى أم كلثوم على انها من مؤيدي الناصرية .. وأنها كانت قرية من بعض مراكز القوى التي بدأ يتعامل معها لتصفيتها .. حيث تغلب على أعوان الزعيم السابق عبد الناصر فيما أسماه بثورة التصحيح ..

ويبدو أن الرئيس أنور السادات لم يحبذ أبدا أن يدخل ولو بطريق غير مباشر في

صراع ، من أجل القضاء على كوكب الشرق أم كلثوم باعتبارها كانت ممثلة المؤسسة الإعلامية الخطيرة أيام عبد الناصر ، وذلك لأنه كان يعلم تمام العلم .. أن أم كلثوم رغم كبر سنها آنذاك واقتربها الشديد من جمال عبد الناصر ، ودورها الهام في تثبيت قوعد الثورة .. إلا أنها كانت ولا تزال تتمتع برصيد جماهيرى كبير ، بصرف النظر عن بعدها أو قربها من الزعيم الراحل جمال عبد الناصر ..

أضف إلى ذلك أن أنور السادات نفسه حين تولى مسئولية الحكم بعد رحيل جمال عبد الناصر كان يردد أنه ضمن المسئولين عما وقع لمصر في عبد الناصر من أخطاء .. وأنه سوف يحاول علاج مثل هذه الأخطاء ..

كما أنه عرف تمام المعرفة أن أم كلثوم برصيدها الفنى العظيم داخليا وخارجيا ، لا يمكن أن تدخل معه فى صراع أيا كان نوعه .. لأنها لم تدخل نفسها فى أى صراع سياسى من قبل .. ولم تحاول التقرب من الزعماء .. بل كان أكثر الملوك والرؤساء هم الذين كانوا يسعون للقاءها ..

المهم .. أن الرئيس السادات بذكائه الشديد .. استطاع أن يكسر شوكة أم كلثوم الناصرية .. بشكل جديد وبأسلوب مبتكر .. وساعده فى ذلك زوجته صاحبة اللقب ، التى كانت تتردد فى كل جلساتها الخاصة .. أنه لا توجد فى مصر الآن سوى سيدة واحدة فقط .. هى سيدة مصر الأولى جيهان السادات ..

ورغم أنه سوف يمر علينا العديد من المواقف التى يحاول من خلالها الرئيس السادات أن يثبت وزوجته ، أنهما أبدا لم يقفا فى وجه أم كلثوم .. ولم يسعيا كما يتردد من أجل القضاء عليها .. والدليل أن الرئيس السادات نفسه ، فى بداية أيام حكمه سارع إلى تكريم كوكب الشرق أم كلثوم ومنحها لقب « فنانة الشعب » ضمن تكريمه للفنانين المصريين والعرب ..

أما بالنسبة لكوكب الشرق أم كلثوم .. فقد دخلت بموت جمال عبد الناصر فى منطقة اللاوعى واللاشعور .. وأصبحت هى الأخرى تنتظر الرحيل .. فقد أعيتها المفاجأة .. وأصابها رحيل الزعيم بالموت المبكر حيث هاجمتها الأمراض وباتت تنتظر الموت فى كل لحظة .. أضف إلى ذلك أن عمرها فى هذه الفترة كان قد قارب السادسة

والستين .. وحاولت أن تستريح من عناء السياحة في عالم الفن وخشى معجبوها حين قررت الاعتزال من سوء فهم القيادة السياسة من ابتعادها في هذا التوقيت بالذات ..

وكانت الأنباء الصحفية ، قد بدأت في تلك الفترة تفرض نفسها على الصحف والمجلات ، فيما يتعلق بقرار اعتزال أم كلثوم الفن .. ففى أوائل شهر نوفمبر من عام ١٩٧٠ .. أى بعد رحيل عبد الناصر بأقل من شهرين .. نشرت الصحف خبرا يقول : كان رد الفعل الأول للمفاجأة الحزينة ، أن قررت أم كلثوم أن تعتزل الغناء نهائيا .. ثم عادت فقررت أن تعتزل الغناء موسما ..

لقد كان رد فعل طبعى من خلال الدموع والتشنج المكتوم .. ولكن مع مرور الزمن اهتدت أم كلثوم التى ارتبطت بالثورة ارتباط أمل وحياة إلى أنها لكى تكرم روح عبد الناصر بطريقتها الخاصة .. ولكى تعرب عن إيمانها بالثورة .. فلا بد وأن تغنى ..

ويواصل الخبر كلماته بقوله : ستغنى أم كلثوم إذن ، ولكن فى يناير وليس فى ديسمبر .. انتهى مضمون الخبر ..

والسؤال .. هل كان الرئيس السادات .. بعيدا عن أم كلثوم وارتباطها بعيد الناصر ورغبها فى الاعتزال بعد الرحيل .. أشك فى الإجابة بالنفى .. لقد كان الرئيس السادات يحسب لأم كلثوم خطواتها .. وإن كان ذلك لم يبدو أبدا واضحا على السطح .. خوفا من غضب جماهير الفن وسمعة أم كلثوم ..

● صاحبة العصمة عام ١٩٤٠ ..

والسيدة الأولى عام ١٩٧٠ ..

الأيام تلف وتلدور .. وتخرج من بين أصابع الناس بلا إستئذان .. ولا يبق للإنسان إلا التاريخ .. يسجل ماله وما عليه .. ومن يحاول أن يهرب من التاريخ فمصييره هوة سحيقة من الأرض يدفن بداخلها وتلقى فوق رأسه القاذورات ..

وكثيرا ما نحتاج إلى التاريخ .. أنه المفكرة التى لا تنضب أبدا .. وكلما نسينا علينا بالذاكرة والمفكرة .. أنه التاريخ حتى ولو كان فيه شبه تزوير ..

والأيام تعود بنا إلى الوراء عشرات السنين .. كى نعرف قصة حصول أم كلثوم على لقب « صاحبة العصمة » مثلما ستفعل حين نطرق بأيدينا على بوابة الزمان ، ونركب آله كى نتوقف بنا فى عالم السبعينات .. مثلما وقفت بنا من قبل على أبواب أعوام الأربعينات ..

كان أسعد يوم فى حياة أم كلثوم يوم أنعم عليها الملك فاروق بنيشان الكمال .

فقد كان النادى الأهلى بالجزيرة يقيم حفلا فى حديقة النادى تغنى فيه أم كلثوم .. وفوجئ الحاضرين أثناء الحفلة بالملك فاروق يدخل النادى ، ويجلس على المائدة التى يجلس عليها أحمد حسنين باشا رئيس النادى آنذاك .. وكانت أم كلثوم تغنى أغنية « هلت ليالى القمر » .. ولما انتهت الأغنية .. نادى الملك فاروق على الكاتب الصحفى مصطفى أمين الذى كان من بين الحاضرين .. وطلب منه أن يصعد فوق المسرح ويعلن نبأ حصول أم كلثوم على وسام الكمال ..

لقد سعدت أم كلثوم بهذا الوسام .. فقد كانت أول مرة يحصل فيها فنان على رتبة أو نيشان ..

وبقدر سعادة كل أبناء الشعب بهذا الوسام .. فقد كانت تعاسة الأميرات وزوجات رؤساء الوزارات .. حيث أنعم الملك بنشيان الكمال على المطربة .. فقد كان لا ينعم بهذا الوسام سوى على الأميرات وزوجات رؤساء الوزارات ..

وقالت إحدى الأميرات أنها سوف ترد إلى الملك وسام الكمال .. وتبعها فى هذا القرار العديد من الأميرات وزوجات رؤساء الوزارات آنذاك .. ووصل إلى علم أم كلثوم هذه الاحتجاجات الملكية .. فتحول فرحها إلى شقاء وبكت لهذه الاهانات ولكن تأكد لديها اقتناع الناس بهذا الوسام ، وبلقب صاحبة العصمة .. حين زارتها السيدة صفية زغلول فى بيتها من أجل تهنئتها على هذا الوسام .. ومنذ هذه اللحظة ظلت أم كلثوم محتفظة بالوسام وحاملة للقب « صاحبة العصمة » ..

* * *

الآن .. أدرنا عجلة القيادة راجعين إلى حيث كنا وضبطنا الأزرار عند بداية

السبعينات .. وها نحن الآن في حصر الجمهورية الثالثة ، التي تولاها الرئيس محمد أنور السادات ، والتي اتسمت بالعديد من السمات التي سجلها للتاريخ بحروف من ذهب ..

لقد تولى الرئيس السادات مسئولية الحكم بعد رحيل جمال عبد الناصر .. وبعد إجراء الانتخابات العامة .. وحين اختير اختيارا شعبيا نظرا فيما حوله فوجد أمامه العديد من الصعاب .. كان أقصاها الاحساس المرير في داخل نفس كل مصري وعربي .. إحساس الهزيمة .. وكان عليه أن يحاول جاهدا بكل ما يملك من ذكاء وإمكانات ضرورة التغلب على هذه العقبة النفسية الخطيرة .. وقد كان حيث نجح نجاحا مبررا على هذا الطريق ، وحقق نصر أكتوبر المجيد ..

وهو في طريقه من أجل تحقيق استعادة كرامة الانسان المصرى كان عليه أن يدوس على رقاب هؤلاء الذين حاولوا الوقوف أمامه في الطريق ..

وأیضا نجح في ذلك نجاحا مبررا .. ولما خلى له الطريق ، واستطاع تحقيق الأمل وإعادة الكرامة للانسان المصرى اتجه إلى تحقيق المزيد من الاستقرار الاقتصادى .. ولم يغب عن ذهنه أبدا طوال هذه الفترة السؤال عن موقع أم كلثوم ودورها الذى بدى باهتا حتى بعد تحقيق انتصار أكتوبر ..

ومادامنا بصدد حديث السيدة الأولى .. فإننا قد بحثنا طويلا عن مصدر هذا اللقب .. ومتى بدأ .. ومن هو أول من كتبه أو ناداها باسم « سيدة مصر الأولى » .. ولم نعثر على تحديد هذه البداية .. المهم أننا عرفنا أن السيدة جيهان السادات بعد انتخابها عام ١٩٧٤ ، من قبل لجنة المرأة بمجلس الشعب أمأ لأبطال مصر .. أو ما اصطلح على تسميته آنذاك الأم الأولى في مصر .. وكان ذلك بمناسبة تكريم أمهات الشهداء في إحتفالات انتصارات أكتوبر ..

بعدها فوجيء الناس بمن يرددون لقب « السيدة جيهان السادات .. سيدة مصر الأولى » .. هذا اللقب لم يكن يراود أحلام السيدة جيهان حرم رئيس الجمهورية مع الأيام الأولى لتولى زوجها مسئولية الحكم .. وذلك لأنه في الفترة من أكتوبر عام ١٩٧٠ ومايو عام ١٩٧١ كانت شهور قلقة .. ولم تكن سلطات الرئيس السادات على

حد قول الدكتور أحمد شلبي سلطات كاملة .. فلما قضى على ذبول جمال عبد الناصر في ١٥ مايو عام ١٩٧١ اكتمل له السلطان ..

حينئذ خلع على زوجته لقب « سيدة مصر الأولى » .. هذا اللقب الجديد استعاره السادات من البيت الأبيض الأمريكي .. ولكن وقع تعبير السيدة الأولى في امريكا باللغة الانجليزية .. لم يكن كوقع تعبير سيدة مصر الأولى باللغة العربية .. أنه لقب يحمل معنى السيادة والترف (١) ..

ومن أجل تحقيق هذا اللقب قولاً وعملاً إنطلقت السيدة جيهان السادات في مجال العمل العام .. خاصة في المجال الإجتماعى .. ولم ترض أبداً أن تكون سيدة في الظل .. بل إنطلقت من مجال العمل الاجتماعى إلى مجال العمل السياسى ، حيث رشحت نفسها أكثر من مرة لرئاسة المجلس المحلى لمحافظة المنوفية ..

لقد أحس الرئيس السادات أنه بمنح زوجته هذا اللقب يجعلها في المقدمة دائماً في أى مكان تدخله .. ولم يغب عن ذهنه أبداً أن منحها مثل هذا اللقب ، سوف يقضى على « صاحبة العصمة » مديرة المؤسسة الإعلامية الناصرية كوكب الشرق أم كلثوم .. بعدما شاهدها أطلاقاً تتحرك ببطء في طريقها للنهاية .. فأراد بذلك أن يكتب لها شهادة وفاة مبكرة .. وإلا فكيف تجرؤ أن تذيع على الملأ ، أنها قد اعتزلت الغناء من أجل عيون الزعيم الراحل جمال عبد الناصر .. لقد حرص الرئيس السادات على عدم حضور حفلات أم كلثوم ، أو السؤال عنها أو إقامة علاقات أسرية معها مثلما كان يفعل من قبله الرئيس الراحل جمال عبد الناصر .. وبالطبع كان للسيدة جيهان السادات أكبر الأثر في تحديد علاقة السادات بأم كلثوم ..

وهناك واقعة يرزدها الكثير من المقربين للرئيس السادات في عالم الصخافة والفن .. ولكن أحداً من هؤلاء لم يستطع أن يسجلها بقلمه فظلت حتى الآن مجرد إشاعة أو واقعة لا تقوم على مستندات .. وعلى أية حال سوف نذكرها هنا كي نؤكد وجهة نظرنا في تدنى العلاقة بين السادات وأم كلثوم ..

وأيضاً جيهان السادات وأم كلثوم ، هذا العداء المستتر وضع وضوح الشمس في

(١) أنور السادات شخصيته وعصره - دراسة محايدة - د . أحمد شلبي ..

المعركة التى خاضتها أم كلثوم ومشروعها الخيرى .. ضد مشروع مدينة الوفاء والأمل ..

تقول الواقعة التى أكدها لنا أكثر من مصدر .. والتى كانت بمثابة الاعلان عن بداية الصراع بين جيهان السادات وأم كلثوم ..

أنه بعد تولى الرئيس السادات مسئولية الحكم وانتخابه رئيسا لمصر ، خلفا للزعيم الراحل جمال عبد الناصر .. توجهت الوفود من أجل تهنئة السيد الرئيس وطبعاً كان من بين هذه الوفود .. الفنانون والأدباء .. وعلى رأس هؤلاء الفنانين كوكب الشرق أم كلثوم .. التى خلعت الرداء الأسود بعد إنتهاء فترة الحداد على وفاة الزعيم جمال عبد الناصر ..

توجهت كوكب الشرق أم كلثوم إلى منزل الرئيس السادات بالجيزة .. وفى صالون الاستقبال .. حيث كانت موجودة السيدة جيهان السادات إنطلقت أم كلثوم بصوتها المرح المشوب بالحزن :

— مبروك يا أبو الأنوار ..

وكان لهذه الجملة وقع الصاعقة على وجه وجسد زوجة الرئيس السادات التى بادرت فى حينها .. وانطلقت من المكان الذى كانت تجلس فيه بالقرب من زوجها .. وتوجهت إلى أم كلثوم حيث كانت تجلس ..

— دا مش إسمه أبو الأنوار .. دا إسمه الرئيس محمد أنور السادات ..

تكهرب جو المقابلة وتجهم وجه الرئيس السادات .. على حين سكنت السيدة أم كلثوم ، وفضلت أن تنهى مقابلة التهئة على خير .. ويبدو أن السيدة أم كلثوم ، كانت حين نطقت بهذه الجملة كانت تخيل أمامها الضابط محمد أنور السادات عضو مجلس قيادة الثورة ، الذى كلفه الضابط جمال عبد الناصر بتوصيلها إلى المطار فى رحلتها العلاجية عام ١٩٥٣ إلى الولايات المتحدة الأمريكية .. ولم يكن فى ذهنها وهى بين يديه أنه أصبح رئيسا لمصر خلفا للرئيس الذى كانت تحبه .. الزعيم جمال عبد الناصر .. وأنها تتحدث مع السيد الرئيس وبجواره السيدة زوجته سيدة مصر الأولى ..

هذا الجفاء الذى تولد بين السيدتين عقب هذه المواجهة فجر في داخل جيها السادات
بركاناً عاصفاً بدى يتردد في كل لحظة بما في داخلها .. واتضح أكثر في واقعة
تأسيسها لمدينة الوفاء والأمل .. رداً على مشروع أم كلثوم للخير .. بل وسعى سيدة
مصر الأولى الدائب من أجل الاستيلاء على أراض ومخصصات مشروع أم كلثوم
الاجتماعى للخير .. وحتى لا يكون لها صوت أو صدى .. فلا بد وأن تموت صاحبة
العصمة .. وكوكب الشرق .. ومديرة مؤسسة الاعلام الناصرى السيدة أم كلثوم ..
مادامت هناك في مصر الآن سيدة واحدة فقط هى سيدة مصر الأولى ..

* * *

● الرصيد الفنى والاجتماعى لأم كلثوم

قبل سنوات الرحيل ..

علينا أن نتوقف لحظات قد تطول ، وقد تقصر من أجل أن نبحث عن أم كلثوم
الفنانة التى أطربت وأسعدت ملايين المصريين والعرب بل والأجانب أيضاً ، وسط هذه
العواصف السياسية التى بدأت تهب على حياتها ، منذ تولى الرئيس السادات حكم مصر
ورحيل راعيها الأول وزعيمها جمال عبد الناصر ..

هذا البحث سوف يضع أيدينا على الجهود التى باتت تبذلها أم كلثوم في الفترة التى
بدأت تواجه فيها منافسة شديدة من سيدة مصر الأولى جيها السادات .. هذه المنافسة
كان لها أسوأ الأثر في داخل نفس وجسد أم كلثوم حيث بدأت الأمراض تهاجمها من
جديد وبقسوة .. وحاولت الهروب من عالم الفن إلى المجال الاجتماعى .. فواجهت نفس
المصير .. أنه الفشل على أيدي سيدة مصر الأولى .. إذ لم تتمكن من إتمام مشروعها
الخيري الكبير « دار أم كلثوم الخيري » في حين نجحت وفي نفس التوقيت السيدة جيها
السادات في إقامة مشروعها الخيري مدينة الوفاء والأمل ..

وإذا ما عدنا إلى فتح ملف أغاني أم كلثوم في الفترة من نهاية عام ١٩٧٠ ، وحتى
رحيلها عام ١٩٧٥ ، نجد أن هذه الفترة امتازت بقلّة الإنتاج الفنى لأم كلثوم بشكل
لافت للأنظار ، ويستحق الدراسة المستفيضة ..

هذا الانتاج القليل فى رأينا مرجعه سببان : الأول هو الأزمات الصحية التى كانت تصيب أم كلثوم من آن لآخر .. وكانت تقاوم هذه الأزمات من أجل البقاء فقط .. والحفاظ على وجودها الاجتماعى ، بعدما اصطدمت بزوجة رئيس الجمهورية وناصبها العداء ..

والسبب الثانى .. هو لجوء أم كلثوم إلى ميدان آخر غير الفن تستطيع من خلاله تخليد ذكراها وتوحيج حياتها للناس الذين أحبوها على مدى نصف قرن من الزمان .. ونقصد به المجال الاجتماعى ..

لقد عاودت أم كلثوم نشاطها الفنى من جديد فى عام ١٩٧١ بغناء قصيدة الشاعر السعودى الأمير عبد الله الفيصل « من أجل عينيك » من تلحين رياض السنباطى .. وظلت لمدة عدة أشهر قبل العودة تنهى نفسها للوضع السياسى والاجتماعى الجديد .. بناء على نصائح المقربين منها ..

ثم غنت أم كلثوم أغنية « الحب كله » فى نفس العام من تأليف الشاعر أحمد شفيق كامل وتلحين بليغ حمدى .. وفى مارس من عام ١٩٧١ غنت أم كلثوم أغنية « حكم علينا الهوى » من تأليف الشاعر عبد الوهاب محمد وتلحين بليغ حمدى .. واختتمت عامها الفنى الأول بعد رحيل جمال عبد الناصر بأغنية « أغدا ألقاك » .. فى مايو عام ١٩٧١ من تأليف الشاعر الهادى آدم وتلحين محمد عبد الوهاب ..

وفى عام ١٩٧٢ غنت أم كلثوم أغنيتين فقط .. الأولى بعنوان « ليلة حب » من تأليف أحمد شفيق كامل .. ثم آخر أغنية فى حياتها « يامسهرنى » من تأليف أحمد راسى وتلحين سيد مكاوى .. والتى غنتها فى ليلة الخميس من شهر ابريل عام ١٩٧٢ .. بعدها دخلت أم كلثوم فى حالة مرضية دائمة .. وتوعدتها الأزمات الصحية حتى وافتها المنية ورحلت عن عالمنا بعد ثلاث سنوات ..

لقد اعتذرت أم كلثوم رسميا بناء على نصيحة الأطباء عن الغناء فى حفلاتها الشهرية بسبب مرضها وسفرها المستمر إلى الخارج للعلاج .. وهناك قضت عدة أيام فضلت بعدها أن تقضى رمضان فى القاهرة قبل مواصلة مسيرة العلاج .. وفى مصر عرفت نبأ العبور .. فازدادت آلامها لأنها لم تستطع أن تعبر عن فرحتها بهذا الحدث العظيم .. فى

هذه الفترة إشتدت عليها آلام الكلى ، حتى أن الأطباء نصحوها بالتوجه إلى الولايات المتحدة الأمريكية للعلاج .. وهناك ولسوء حالتها الصحية نصحبها الأطباء بضرورة العودة إلى القاهرة ، فهي في حالة لا تسمح لها بإجراء عملية جراحية ..

وفي مجال العمل الاجتماعى .. وبعد ما قررت أم كلثوم رغما عنها اغتزال الفن .. حاولت أن تستعيد وجودها في قلوب الناس فسعت إلى إنشاء دار خيرية تحمل اسمها .. ففى منتصف عام ١٩٧٣ ، وفي احتفال شعبى كبير تم وضع حجر الأساس لأول مشروع لجمعية التجمع الخيرية باسم مشروع دار أم كلثوم للخير .. والمشروع الذى كان من المقرر إقامته على شاطئ النيل ، يتكون من إقامة دار للخير وفندق عالمى وقاعات للتسجيل والغناء باسم سيدة الغناء العربى أم كلثوم .. كما إتفقت أم كلثوم في تلك الفترة الزمنية مع البنك الدولى المصرى على تمويل المشروعات الاستثنائية لدار أم كلثوم .. ولكن أين هذا المشروع ؟! .. وماهو مصيره الآن ؟! .. وماهى قصة الصراع بين مشروعى مدينة الوفاء والأمل ، التى كانت تشرف عليه سيدة مصر الأولى ودار أم كلثوم للخير ، الذى كانت تشرف عليه صاحبة العصمة أم كلثوم ؟! .. هذا هو ماسوف نعيش معه بعد لحظات ..

★ ★ ★

● على هامش علاقة أم كلثوم

بالرئيس السادات

ذكرنا من قبل أن علاقة أم كلثوم بالرئيس السادات قد بدأت منذ عام ١٩٥٣ .. حين كان السادات أحد الضباط الأحرار الذين ضمهم مجلس قيادة الثورة .. ونحن نذكر هذا التاريخ بالذات .. لأن الضابط أنور السادات قد كلفه قائد الثورة وزعيمها آنذاك جمال عبد الناصر بضرورة مصاحبة أم كلثوم إلى مطار القاهرة وتوديعها رسمياً .. ويكون السادات نفسه على رأس مودعها .. حين سافرت للعلاج ولأول مرة خارج مصر ..

أما بالنسبة للبحث عن موقع الرئيس السادات وعلاقته بأم كلثوم طوال فترة حكم

جمال عبد الناصر .. فتجد أنها كانت علاقة ودية يشوبها الحذر من منطلق أن أم كلثوم كانت زعيمة تجالس الزعيم جمال عبد الناصر وتقيم معه علاقات أسرية .. لا يستطيع أى ضابط أو زميل لعبد الناصر أن يكون فى مثل مكاتها ..

وعلى ذلك فنحن نرى أن السادات خلال هذه الفترة كان بالنسبة لأم كلثوم مجرد تابع للزعيم جمال عبد الناصر ، وأحد مسؤولى الدولة .. ومما يؤكد هذا الرأى لدينا تلك الجملة التى نطقت بها أم كلثوم حين نادى الرئيس السادات باسمه مجردا أمام زوجته .. بل أكثر من ذلك نادته باسم « الدلع » ..

الأمر الذى يوضح أن أم كلثوم ، كانت تنظر إلى الرئيس الجديد على أنه كان من أصدقاء الزعيم وأحد توابعه .. وهذا ما فهمته زوجته السيدة جيهان فى حينه .. وتعاملت مع أم كلثوم من خلال هذا المنظور .. وربما فهم ذلك أيضا الرئيس السادات .. ولكنه جمد موقفه ووجد فى زوجته البديل ، الذى سوف يقتص منها علانية وسرا .. دون أن يدخل فى صراع مباشر مع أم كلثوم ..

ورغم ذلك لم تفقد أم كلثوم الحيلة من أجل التعامل مع الوضع السياسى الجديد .. حيث حاولت التقرب من السادات الذى بدأ هو بنفسه المشوار .. إذ منحها فور توليته الرئاسة لقب « فتاة الشعب » وقد حاولت أم كلثوم من جانبها الاتصال بالسادات بشتى الطرق بعيدا عن زوجته أو بعلمها .. والدليل لدينا أن أم كلثوم نجحت فى وساطتها لدى الرئيس السادات من أجل الافراج عن الكاتب الكبير مصطفى أمين ..

فى أحد الأيام صحبت أم كلثوم بنات الكاتب الكبير مصطفى أمين .. رتبة وصفية إلى بيت الرئيس السادات ، وقابلت معها السيدة جيهان .. وفى هذه الزيارة تلقت وعدا من الرئيس السادات بأنه سيفرج عن الكاتب مصطفى أمين بعد الإنتهاء من معركة أكتوبر .. وأنه كان يعرف أنه مظلوم .. وبالفعل تم العبور بنجاح .. واتصروا فى حرب أكتوبر ، وأفرج السادات عن مصطفى أمين فى عام ١٩٧٤ ..

ورغم العداء السافر بين السيدتين « صاحبة العصمة » و « السيدة الأولى » .. والذى كان يتردد كثيرا فى المجالس الخاصة .. إلا أن هناك عدة لقاءات كانت تتم بالفعل بين أم

كلثوم وجهان السادات خاصة فى الانترة التى احتجت فيها أم كلثوم ، واشتدت عليها الأزمات الصحية .. وبعد أن أكدت انتصارها فى معركة « الوفاء والأمل » والقضاء على مشروع أم كلثوم الخيرى ..

لقد كانت السيدة جيهان السادات تحرص رغم العداء المستتر بينها ، وبين أم كلثوم على إظهار المودة والمشاركة ، حتى ولو بالسؤال عن أم كلثوم .. وذلك لاستكمال الديكور السياسى الذى كانت تلعب بداخله سيدة مصر الأولى .. ومن ذلك على سبيل المثال أنه فى بداية عام ١٩٧٥ زارت السيدة جيهان السادات أم كلثوم فى فيلتها بالزمالك ، وظلت هناك بجوارها إلى ما يقرب من ساعة .. قابلت خلالها أم كلثوم واطمأنت على صحتها ونقلت لها اهتمام الرئيس السادات بأنباء مرضها وحرصه على توفير كل وسائل العلاج ..

كما أن الرئيس السادات وضع تحت تصرفها كافة الخبرات الطبية المصرية حتى يتم لها الشفاء .. ليس هذا فقط ، بل حرصت السيدة جيهان على الاتصال الدائم بفيلا أم كلثوم خلال أزمتها الصحية والاطمئنان عليها بالتليفون .. وكانت هذه الزيارة هى الأولى لسيدة مصر لفئانة الشعب وصاحبة العصمة .. أما الزيارة الثانية فكانت حين رحلت أم كلثوم .. فى الشهر الثانى من عام ١٩٧٥ حيث زارت السيدة جيهان السادات بيت أم كلثوم وقدمت العزاء لأسرتها ولأفراد الأسرة .. وذكرت السيدة جيهان السادات خلال زيارة الوداع هذه أنه كانت هناك رابطة قوية بين أم كلثوم وبين الرئيس السادات ، وأن الرئيس حرص بنفسه على مشاهدة تشييع الجنازة فى التليفزيون .. كما أعربت عن أسفها لأن الرئيس السادات كان بوده أن يقدم العزاء بنفسه لأسرة أم كلثوم لولا مرضه المفاجئ على حد تعبير السيدة جيهان السادات ..

* * *

● جيهان السادات .. السيدة

الأولى .. فى كل المجالات ..

حين خلع الرئيس السادات على زوجته لقب السيدة الأولى ، والتى يرى الكاتب

الصحفى أنيس منصور أنه لقب منقول من المجتمع الأمريكى وأن مخترعه أحد الصحفيين الأمريكان .. كان لا يتصور أبدا أن تحب زوجته آفاق الدنيا داخليا وخارجيا حاملة هذا اللقب فوق أكتافها .. تلوح به شمالا ويمينا من أجل أن توسع قاعدة وجودها داخل وخارج المجتمع المصرى ..

ومن خلال هذا اللقب استطاعت السيدة جيهان السادات أن تثبت لأم كلثوم ولغيرها من نساء مصر ، أنها امرأة متفردة فى كل شئ وفى كل مجال .. فإذا كانت أم كلثوم هى كوكب الشرق .. وسيدة الغناء العربى .. وصاحبة العصمة .. فإن السيدة جيهان هى السيدة الأولى .. والحاصلة على الدكتوراه والرئيسة الفخرية للمئات من الجمعيات الخيرية فى مصر وفى خارجها ..

وقد حاولت السيدة جيهان فى فترة قصيرة من دخولها ميدان العمل الاجتماعى أن تثبت تفوقها بمجادة .. ويكفى من أجل التدليل على هذا التصور ذكر تواريخ فى حياة السيدة الأولى .. فى مجال النشاط الاجتماعى والسياسى الواسع .. ونحن هنا من أجل الأمانة .. اعتمدنا على ما نشرته الصحف فى الفترة من عام ١٩٧٣ وحتى عام ١٩٨١ ..

فى عام ١٩٧٣ دخلت ميدان العمل التطوعى لرعاية جرحى حرب أكتوبر .. فكانت تقوم بزيارات ميدانية عديدة لكافة المستشفيات المصرية ..

فى ١٩٧٤/٣/١٠ قررت لجنة المرأة بمجلس الشعب آنذاك منح جيهان السادات لقب أم الأبطال وقد اقيم حفل كبير بهذه المناسبة القومية ..

فى ١٩٧٤/٣/٢١ قررت لجنة المرأة بمجلس الشعب أيضا .. منح السيدة جيهان السادات لقب الأم الأولى لمصر ..

فى ١٩٧٤/١٢/١٢ وافقت السيدة الأولى على قبول الرئاسة الفخرية لجمعية هدى شعراوى ..

وفى نفس عام ١٩٧٤ تم انتخابها رئيسة شرف جمعية الهلال الأحمر المصرية ..

وفي عام ١٩٧٥ فازت بعضوية المؤتمر القومي على مستوى محافظة المنوفية بالتركية .. ولأول مرة ثم رئيسة للمجلس المحلي بالمحافظة ..

وفي ١٩٧٥/١٠/٢ تم اختيار السيدة جيهان السادات رئيسة فخريّة للجنة الدائمة لعيد العلم ..

في ١٩٧٥/١٢/١٧ وافقت على رئاسة أول جمعية مركزية تقام في مصر لرعاية طلاب الجامعات والمعاهد ..

وبداية من عام ١٩٧٦ .. حصلت السيدة جيهان السادات على العديد من الجوائز وشهادات التقدير والأوسمة داخليا وعالميا ، وفي نفس العام حصلت على الدكتوراه الفخرية من جامعة مانيتا في الفلبين .. ثم في عام ١٩٧٨ حصلت على جائزة خدمة الإنسانية من إحدى الجامعات الأمريكية كما قدمت لها عضوات الصداقة للسيدات الأمريكيات العضوية الشرفية ..

في ١٩٧٩/١١/٩ قرر مجلس نقابة المهن الاجتماعية منح السيدة جيهان السادات عضوية شرفية للنقابة تقديرا لجهودها الاجتماعية ..

في ١٩٨٠/٧/٤ وافقت على قبول الرئاسة الشرفية للنادي الأهلي ..

في ١٩٨١/٢/٢٨ تم اختيارها رئيسة فخريّة لمؤسسة القلب المصرية والتي تضم أعضاء من مجلس إدارة الجمعية المصرية لأمراض القلب ..

وفي ١٩٨١/٣/٣ قبلت الرئاسة الفخرية لجمعية القلب المصرية ..

وفي ١٩٨١/٤/٣ منحت وسام « كود اثينا » من الاتحاد الدولي للعلاقات العامة ..

وأخيرا في ١٩٨١/٤/١٦ رأت السيدة جيهان السادات حفل تسليم براءة تأسيس أحدث نادى نسائى دولى في مصر .. تحت إسم « زوتنا » .. ومعناها بالهندية أهل الثقة .. هذا النادى لرعاية المرأة في المراكز القيادية ..

وبعد هذا الاستعراض السريع لبعض أنشطة سيدة مصر الأولى في مختلف المجالات الاجتماعية .. نتساءل أين كل هذه المشروعات الآن ؟ .. وماهو مصيرها ؟ .. وليس لنا حق الوقوف للبحث عن الاجابة إلا فيما يتعلق بمشروع الوفاء والأمل باعتباره ذات علاقة وثيقة بمشروع أم كلثوم الخيري وأحد مجالات التنافس بين السيدة الأولى .. وصاحبة العصمة ..

★ ★ ★

● دار أم كلثوم للخير

ومصير مشروع الوفاء والأمل

بدأت أم كلثوم نشاطها الاجتماعي المكثف عام ١٩٦٧ بعد العدوان مباشرة مع ٢٠٠ سيدة من سيدات العمل الاجتماعي في مصر .. وتم الاتفاق في أول إجتماع على كيفية جمع التبرعات وتقديم الخدمات الاجتماعية والمالية للمجندين وأسرههم وأسرة الشهداء ..

وكان الاجتماع الثاني بجمعية النور والأمل .. وكانت رئيستها آنذاك السيدة استقلال راضى .. وفي هذا الاجتماع اختير اسم جمعية التجمع الوطنى لأعمال الخير .. وبدأت أم كلثوم في عمل ملابس لرجال القوات المسلحة ، وتوزيع الهدايا من أموالها الخاصة .. فكان الجنود يرسلون لها خطابات الشكر بدمائهم .. وبدأت بعد ذلك رحلتها الفنية داخلها وخارجها ..

وفي عام ١٩٧١ فكرت في انشاء الجمعية وفعلا تكونت بدون تسجيل من أم كلثوم وعزيزة حسين وزهرة عابدين وشهوان حجازى ونفيسة الامباني وبثينة الخولى وأخريات .. وكان من أهداف جمعية التجمع الوطنى توزيع الهدايا على الفقراء ومساعدة المعوقين بعمل أجهزة طبية .. وكان كل ذلك من أموال أم كلثوم الخاصة ..

وفي عام ١٩٧٣ تم عمل يانصيب خيري تكون حصيلته لإنشاء دار أم كلثوم لرعاية الفتاة اجتماعيا ومهنيا مع عمل مسرح وقاعة استماع موسيقى ..

وفي ٢٢ أبريل عام ١٩٧٤ أجرى السحب وتبين أن اليانصيب لم يحقق أية

أرباح .. ولم تبلغ قيمته سوى ٧٥ ألف جنيه قامت أم كلثوم بسدادها كما كسبت ٥٧ ألف أخرى تبرعت بها للجمعية .. وبعد إجراء السحب أصبحت الحصيلة ١١٢ ألف جنيه ، وتم وضع المبلغ في شهادات إستثمار تدر على الجمعية عائدا ثابتا للصرف منه على أنشطة الجمعية والتي منها : دار أم كلثوم لرعاية الفتاة بالزيتون ، ودار أم كلثوم لرعاية الطفل بعين شمس ، ودار أم كلثوم لرعاية المسنين ، ثم دار أم كلثوم لرعاية الطالبات بحلول ..

وفي منتصف عام ١٩٧٣ وقبل حرب أكتوبر اجتمع مؤسسو جمعية النجم الوطنى لأعمال الخير لوضع الترتيبات النهائية لتنفيذ المشروع الخيري الذى يحمل اسمها .. وفى هذا الاجتماع تقرر بصفة نهائية وضع حجر الأساس فى نهاية شهر يونيو من نفس العام وطرح أوراق اليانصيب من أول يوليو فى مصر والبلاد العربية .

فى هذا الوقت بالذات كانت عيون الرئيس السادات وزوجته السيدة جيهان صفوت مركزة على هذا النشاط الاجتماعى المكثف ، الذى بدأت تمارسه كوكب الشرق أم كلثوم .. وتصوره طريقا جديدا من جانب أم كلثوم لغزو قلوب المصريين بعد ما غزتهم من قبل بكلماتها وسهراتها الجميلة .. كما اعتقد السادات أن أم كلثوم تخطط عن طريق غزوها للنشاط الاجتماعى من أجل إستعادة مكانتها أيام الزعيم جمال عبد الناصر ..

وعلى الفور بدأت الحرب الخفية فى هذا المجال أيضا بعدما استسلمت أم كلثوم وابتعدت عن مجال الفن وتوظيفه فى خدمة الرئيس الجديد .. وكان ماحدث بين صاحبة العصمة وسيدة مصر الأولى ..

لقد اتجهت العيون وتركزت العقول من أجل القضاء على مشروع أم كلثوم للخير آنذاك .. وقد بدأت المعركة كما قال الكاتب الصحفى مصطفى أمين بإفشال أول يانصيب خصصته كوكب الشرق لتمويل هذه الدار الخيرية .. ثم توالى الضربات بعد ذلك .. حيث اتجه الرأى إلى انشاء مدينة الوفاء والأمل ، عوضا عن دار أم كلثوم للخير التى بدأت تحتضر على أثر الضربات المتتالية ..

وتعود قصة إنشاء مدينة الوفاء والأمل الى شهر أغسطس من عام ١٩٧٣ حين وضعت السيدة جيهان السادات رئيسة جمعية الوفاء والأمل حجر الأساس فى ٨

أغسطس من عام ١٩٧٣ لإقامة مدينة على مساحة ٢٧٠ فدانا بصحراء مدينة نصر
المهدف منها إنشاء مركز رعاية متكامل للمعوقين العسكريين والمدنيين ، تتوفر فيه
إمكانات العلاج والتأهيل ..

وخلال أربع سنوات من وضع حجر الأساس .. أى فى عام ١٩٧٧ .. تغيرت
صورة الصحراء هناك .. وتحول الحلم إلى حقيقة حيث أقيمت مدينة الوفاء والأمل
وشملت عدد ١٤ فيلا سكنية بات يعيش فيها العديد من المعوقين عسكريين ومدنيين ..
وفى هذه الفترة كان يجرى العمل على قدم وساق حتى تصبح عدد الفيلات ١٦٢
فيلا .. أما فى المرحلة الثانية وحسب تصورات رئيسة الجمعية السيدة جيهان السادات
وصلت عدد الوحدات السكنية بها مائتى وحدة تتسع لإقامة ألفى فرد والفلا تتكون
داخل المدينة من ٣ أقسام للنوم فى كل قسم ٣ أسرة .. وبكل قسم أحدث الوسائل
المناسبة لاستعمال المعوقين ..

وتتضمن مدينة الوفاء والأمل دارا للمسنين على أحدث طراز من طابقين فى كل منهم
١٢ حجرة .. كما تشمل المدينة على كافيتيريا رئيسية وقاعات للسينما والمسرح والموسيقى
والفنون التشكيلية ثم مركز خاص للتأهيل للمعوقين

وبمقارنة بسيطة وغير ظالمة ، نجد أن مكونات مشروع مدينة الوفاء والأمل هو تقريبا
مكونات مشروع دار أم كلثوم للخير .. ولكن نظرا لإشتداد الصراع بين السيدتين
كوكب الشرق والسيدة جيهان السادات .. فقد تم إيقاف مشروع أم كلثوم والاسراع
بتنفيذ مشروع السيدة جيهان السادات ، الذى لم يكن ينقصه سوى أن يحمل اسمها مثل
مشروع أم كلثوم ..

أما الملاحظة الثانية هى أن مشروع مدينة الوفاء والأمل تم التخطيط لتنفيذه فى نفس
التوقيت الذى اختارته أم كلثوم لتنفيذ مشروعها .. بل الأكثر من ذلك أنه حدث نوع من
السلطو ، على مخصصات مشروع أم كلثوم لصالح مشروع مدينة الوفاء والأمل ، ودليلنا
فى ذلك ما ذكرته الدكتورته نعمات أحمد فؤاد فى مقال نشر لها فى أواخر عام ١٩٨٢
تحت عنوان « عن جمعية الوفاء والأمل .. نسأل » تقول فى بعض فقراته :

من هذا المنطلق أرسلت الجمعية « تقصد جمعية الوفاء والأمل » .. الحاصلة على مائتى فدان فى مدينة نصر برسم جنيه واحد للفدان إلى محافظة القاهرة عام ١٩٨١ تطلب الأرض التى سبق لمجلس المحافظة أن وافق عليها لمشروع أم كلثوم ، والتى سبق أن أصدر المجلس التنفيذى لمحافظة القاهرة قرارا رقم ١٠٠ بتاريخ ١٩٧٣/٤/٢٣ لتخصيصها لدار أم كلثوم للخير ، فإذا بالمجلس التنفيذى نفسه يحنى رأسه طاعة وانصياعا وصدر قرار تحت رقم ٤٣ بتاريخ ١٩٨١/٥/١٤ بضم أرض مشروع أم كلثوم إلى الوفاء والأمل .. ثم يصدر المجلس الشعبى لمحافظة القاهرة القرار رقم ١٨٣ فى يونية عام ١٩٨١ بالموافقة مع زيادة فدانين بدلا من ستة لتكون ثمانية على طريقة القصة الشعبية التى جعلت الفلاحين يتضررون من جمل الحاكم الذى أكل كل شئء فلما ذهب جمعهم إليه وقد أجمعوا أمرهم على الاجتماع ، تناقض عددهم واحدا وراء الآخر فاذا الأخير وقد وجد نفسه وحده قال للطاغية : نريد للجمل ناقة تؤنسه .. لم يرفض مجلس المحافظة أن يناقض نفسه ، فى إباء بل أضاف فدانين آخرين ..

تطالب جمعية الوفاء والأمل الكائنة فى مدينة نصر على مساحة مائتى فدان ستة أفدنة فى جاردن سيتى وهى التى منحت أصهارها عشرين فدانا من أرض الجمعية لتعبئة شويس (١) ..

ونظرا لارتباط هذا المشروع القومى المتمثل فى مدينة الوفاء والأمل ، بشخصية المشرفين والقائمين عليه وعلى تنفيذه فإنه بمجرد أن رحل عصر السادات ، واختفت من الساحة الاجتماعية السيدة جيهان السادات بعد رحيل زوجها حتى دب الخلاف بين القائمين على هذا المشروع .. الأمر الذى جعل وزارة الشؤون الاجتماعية تتدخل فى عام ١٩٨٦ لحل مجلس إدارة المدينة بناء على تقارير من إحدى الجهات الرقابية .. وهو المجلس الذى كانت ترأسه السيدة جيهان السادات ..

وبالفعل تم تشكيل مجلس إدارة جديد برئاسة الدكتورة آمال عثمان وزيرة التأمينات والشئون الاجتماعية ، تكون مهمته إدارة شئون الجمعية طبقا لأحكام القانون وإزالة المخالفات الموجودة بها ..

(١) من مقال للدكتورة نعمات أحمد فؤاد فى جريدة الأحرار بتاريخ ١٩٨٢/١١/١ .

والسؤال الذى رأينا ان نختم به هذا الفصل : ماذا لو ساعدت سيدة مصر الأولى على تنفيذ مشروع أم كلثوم للخير جنبا إلى جنب مع مشروع مدينة الوفاء والأمل .. طبعا النتيجة كانت ستكون فى صالح المعوقين وكافة أعمال الخير .. ولكنه الصراع ومحاولات إثبات الذات .. وهذه هى النتيجة مشروع مايزال على الورق ومشروع آخر تحوم حوله شبه المخالفات .. الأمر الذى أدى إلى حل مجل إدارته برياسة سيدة مصر الأولى سابقا ونقل تبعته إلى وزارة الشؤون الإجتماعية ..

الفصل السابع

ويوم أن رحلت كوكب الشرق

إذا كان الزعيم جمال عبد الناصر قد مات نفسياً ومعنوياً في ٥ يونيو عام ١٩٦٧ .. ومات جسدياً في ٢٨ سبتمبر عام ١٩٧٠ .. فإن كوكب الشرق أم كلثوم .. قد ماتت نفسياً ومعنوياً وجسدياً يوم أن رحل جمال عبد الناصر .. وتأخر دفن جثمانها خمس سنوات .. إذ ظل هذا الجثمان يتحرك بيننا بلا روح ، أو حياة هذه الفترة الطويلة .. وفي يوم الاثنين الموافق الخامس من شهر فبراير عام ١٩٧٥ ، تم دفن جثمان أم كلثوم .. حيث أعلن رئيس الفريق الطبى المعالج لها بمستشفى المعادى نبأ الوفاة ..

وحين يتدخل الحساب فى تسجيل عمر أم كلثوم بيننا نجد أنها قد عاشت واحداً وسبعين عاماً حتى واراها التراب .. أما عمرها الفعلى الذى عاشته فهو ستة وستين عاماً .. لأنه بعد رحيل جمال عبد الناصر بدأت أم كلثوم تعد نفسها هى الأخرى من أجل مقابله هناك ..

وقد اتضح لنا ذلك جلياً فى الفصل السابق .. حيث قررت أم كلثوم سواء علنا أو سرا اعتزال الفن .. والعمل فى مجال الخدمة الاجتماعية .. وكان معها كل الحق .. فهى قد اعتبرت نفسها قد عبرت عن فترة زمنية معينة .. ولا يمكن أن تتراجع عنها .. وإلا فكيف تتنكر للزعيم الذى تعد أول من غنت له .. وعاشت بجواره طوال ثمانية عشر عاماً .. وعرفته عن قرب .. ودخلت بيته وصادقت زوجته .

والسؤال الذى يواجها الآن .. وعلينا التصدى لإجابته هو : وهل جاء خير وفاة أم كلثوم مفاجأة للناس .. مثلما فوجئوا نبأ وفاة الزعيم جمال عبد الناصر ؟

نقول أنه رغم أننا قد اتفقنا منذ بداية رحلتنا عبر هذا الكتاب أن هناك تزاوج وتشابه قريب جدا بين أم كلثوم كزعيمة شعبية .. وعبد الناصر الذى يحمل نفس الصفة .. إلا أن الناس فى مصر وفى العالم كله كانوا يتابعون رحلة مرض أم كلثوم لحظة بلحظة .. وكانوا على علم ويقين بأنها فى أيامها الأخيرة .. قد عانت الأمرين من تكاثر الأمراض وإصاباتها المتكررة خاصة الإصابة بالكلى .. مع أن العكس قد حدث بالنسبة للناس فيما يخص وفاة جمال عبد الناصر .. وطبعا الفروق هنا محفوظة ومعروفة .. رغم أن كلا منهما زعيم شعبى من الطراز الأول ..

وفى اعتقادنا أنه لولا المحيطين بالزعيم الراحل جمال عبد الناصر هؤلاء الذين كانوا يستمدون منه القوة ومن وجوده الشجاعة والذين كان لهم الدور الأول والأخير فى إخفاء أبناء مرض عبد الناصر عن الناس وأفراد الشعب ..

وهنا يكمن الفرق بين فنانة الشعب التى راح الناس كل صباح يمحثون بين الصحف عن آخر أخبار مرض الست .. مرض كوكب الشرق أم كلثوم .. وبين زعيم الشعب الذى فوجئ الناس برحيله برغم أنه قد مات ، وهو وسطهم قبل موت الجسد بثلاث سنوات حين أصابته لعنة الهزيمة ..

ونحن نقول أنه رغم أن العديد من المحيطين بأم كلثوم قد عرفوا بموتها النفسى والمعنوى بعد رحيل راعيها جمال عبد الناصر .. إلا أنهم لم يفقدوا الأمل أبدا فى رجوعها ولو فى صورة امرأة تمارس نشاط آخر غير الفن .. وكان عليها أن تستجيب ولكن الأيام والظروف والملابسات التى أحاطت بها فور رحيل جمال عبد الناصر ، كانت أقوى من إمكانياتها وأقوى من دعوات المقرين إليها .. لذا كانت أم كلثوم كثيرا ما تتحامل على نفسها وتحاول أن تعيد شبابها فى مجال الحياة الاجتماعية .. وكان ذلك إيذانا برحيلها المبكر حيث ولد هذا الكبت بداخلها طوفانا من الأمراض التى لم تستطع قدرتها الجسمانية أن تتحمله .. حينئذ رحلت دون أن تستأذنها وغابت تحت التراب ..

إن وفاة أم كلثوم فى عام ١٩٧٥ كانت له مقدمات .. بدأت منذ أوائل الخمسينات حين أصيبت لأول مرة بالغدة الدرقية ، وتم علاجها فى العديد من عواصم العالم مثل

نيويورك ولندن .. وكانت تعود بالارادة أحسن صحة مما كانت عليه ولكن وابتداء من عام ١٩٧٠ أخذت هذه الأمراض تشتد عليها بقسوة حتى باتت في آخر أيامها جثة هامدة بها ملامح الحياة .. ولكنها ميتة فعلا وقولا ..

* * *

● أم كلثوم .. في رحلة المرض الطويلة ..

وكان علينا من أجل أن نفتح ملف مرض أم كلثوم .. أن نفحص ونعود الى الوراء كثيرا .. حتى نعرف متى بدأت تدخل دوامة المرض .. وكيف تمكنت من العلاج ؟ .. ثم كيف أدى بها المرض إلى الموت في النهاية ؟ ..

عاشت أم كلثوم مدة طويلة تعاني من الآلام والأمراض قدرها بعض المؤرخين بحوالى ثلاثين عاما ..

لقد كانت البداية في عام ١٩٤٧ عندما اكتشف الأطباء مرضها بالغدة الدرقية .. يومها نصحتها الأطباء بضرورة الراحة .. ولكنها رفضت لأنها كانت تنسى الآلام عندما تواجه جمهورها الذى تغنى له ..

وفي عام ١٩٤٩ .. أصيبت أم كلثوم بعدة صدمات على أثر سماعها أنباء رحيل بعض أصدقائها ومنهم طبيبها الخاص الدكتور الزناتى .. وعلى أثر هذه الصدمات تجددت لديها الإصابة بالغدة الدرقية وتحت إلماح الأطباء ، سافرت أم كلثوم لأول مرة إلى فرنسا وانجلترا .. ثم إلى سويسرا لبدء رحلة العلاج .. وهناك قضت عدة أشهر تحت العلاج المكثف .. وبالفعل وبفضل جهود الأطباء المصريين والأجانب .. شفيت أم كلثوم من مرض الغدة الدرقية .. ولم يبق إلا علاج الأثر الذى أحدثه المرض فى عينيها .. وقد احتاج آنذاك لبعض الوقت ..

وعادت أم كلثوم بعد ثلاثة أشهر إلى الاسكندرية .. وانطلقت عشرات اللنشآت الى عرض البحر انتظارا لوصول الباهرة التى كانت تقل أم كلثوم ..

وبعد أربعة أعوام من الشفاء من الغدة الدرقية عاودتها الآلام من جديد ، وكان بعض

الأطباء الذين كانوا يعالجونها قد علموا بوجود عقار جديد لعلاجها .. وكان قد اكتشف هذا العقار في أمريكا .. وبالفعل تمت الاتصالات بين الحكومتين المصرية والأمريكية .. وتم إرسال العقار بالطائرة .. وأسفر عن تقدم ملموس في حالتها الصحية ..

وفي عام ١٩٥٣ سافرت أم كلثوم إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، لإجراء كشف عام في المستشفى البحري هناك .. وظلت أم كلثوم تتابع حالتها الصحية مع ملايين من معجبيها في كل المجالات .. وعاشت بين هؤلاء الناس بالحب .. ومرة أخرى تعود إلى القاهرة .. ولكن عند وصولها فوجئت بوفاة شقيقها فيعابدها الألم من جديد ..

وفي عام ١٩٦٠ سافرت مرة أخرى إلى أمريكا لإجراء كشف عام ثم عادت .. وظلت حالة أم كلثوم تتذبذب بين المرض والصحة .. حتى أصيبت في عام ١٩٦٧ بإحتقان في المرارة .. وعلى أثر ذلك بدأت رحلتها العلاجية من جديد فسافرت إلى لندن ثلاث مرات .. وبعد إجراء الفحص والتحليل اتضح أن المرارة سليمة ولكنها كانت تعاني من فقر الدم والضعف العام .. ثم عادت أم كلثوم إلى القاهرة ، وفي حقيقتها أحدث الأدوية ..

وفي عام ١٩٧٣ أصيبت أم كلثوم بأمراض الكلى .. الأمر الذي أدى بها إلى الإعتذار عن الغناء ، وسافرت إلى لندن من جديد للعلاج .. ولما ازدادت الآلام عليها نصحوها بالسفر إلى الولايات المتحدة الأمريكية من جديد .. ولكن نظرا لسوء حالتها قرر الأطباء الأمريكيون ضرورة عودتها فورا إلى القاهرة لأنها كانت في حالة لا تسمح لها بإجراء عملية جراحية ..

لقد كانت الأزمة الأخيرة أخطر الأزمات الصحية التي واجهت حياة أم كلثوم .. فقد كانت هذه الأزمة تتطور مع تقدم الأيام من سيء إلى أسوأ .. على حين اجتمع كل الأطباء المعالجون وقرروا ضرورة نقلها إلى مستشفى المعادي .. وقد رفضت أم كلثوم الذهاب إلى مستشفى المعادي .. وأمام إصرارها قرر الأطباء علاجها في منزلها مع استخدام الإمكانيات العلمية في مستشفى المعادي في مجال التحاليل والدواء ..

لقد بدأت أزمتها الصحية الأخيرة بانخفاض مفاجيء في عمل الكلى نتيجة لإصابتها بالأنيميا الحادة .. وكانت أم كلثوم قد مرت بهذه الحالة عام ١٩٧٤ عندما أصيبت

بالتهاب الكلى أدى إلى ضعف عام وأنيميا حادة عولجت منها في لندن وأتمت العلاج في مستشفى بوسطن بأمرىكا ..

وخلال متابعة أزمته الصحية الأخيرة صدر التقرير الأول عن صحتها في ٢٥ يناير عام ١٩٧٥ .. وفيه سجل الأطباء المعالجون أن أم كلثوم تستجيب للعلاج .. وتم نقل كميات من صفائح الدم مناسبة .. وكانت هذه أول مرة تجرى فيها عملية نقل صفائح دم في مصر .. وقد استغرقت عملية النقل ثلاث ساعات ..

وبعد يومين من نقل صفائح الدم اكتشف فريق الأطباء المعالج أنه يوجد تحسن مستمر ..

وبعد ثلاثة أيام من تحسن صحتها .. وارتفاع حالتها المعنوية .. استيقظت أم كلثوم على صداع شديد .. وعندما وصل الدكتور زكريا الباز رئيس فريق الأطباء المعالجين إلى منزلها وجدها في غيبوبة تامة .. وتقرر نقلها على الفور إلى مستشفى المعادى بسيارة اسعاف مجهزة بأحدث المعدات .. وفي المستشفى أدخلوها على الفور الى غرفة الإنعاش .. وكان تقرير الحالة الطبية هو حدوث نزيف في المخ ونوبة قلبية .. وظلت تحت العناية المركزة ليل نهار .. إلا أن حالتها لم تتحسن وعقدت اللجنة الطبية اجتماعا مطولا بالمستشفى لفحص حالة أم كلثوم والتشاور حول إمكانية زرع كلية لأم كلثوم .. ورأت اللجنة أن كوكب الشرق بحالتها الحرجة هذه لا يمكن أن تسمح بزرع كلية لها .. لأن المشكلة الرئيسية في حالة أم كلثوم خلال هذه اللحظات تكمن في المخ الذى توقف عن العمل رغم الجهود الطبية المتواصلة .. وأصبحت حالتها الصحية حرجة أو تنبئ بعواقب غير محسوبة ..

وفي صباح اليوم التالى لإصابتها بإنفجار في المخ .. أجريت لها التحاليل الطبية على وظائف الكلى وكيمياء الدم .. ودلت التحليلات على أن الكلى تعمل بمستواها الطبيعى .. ولكن ظلت الحالة الصحية مخيفة جدا ..

وقد ذكر الأطباء آنذاك أن حالة الغيبوبة الناتجة عن الحالة المخية لم يطرأ عليها أى تحسن .. وظلت أم كلثوم في حالة غيبوبة كاملة لليوم الثالث على التوالى وأكد الأطباء

المتابعون لحالتها داخل غرفة الإنعاش بمستشفى المعادى أن حالتها خطيرة جدا لأن النزيف الذى أصاب المخ أحدث تلقا دائما فى خلايا المخ غير قابل للشفاء ..

وأكد رسام المخ الكهربائى الركود الكامل فى خلايا المخ لغياب أى نشاط كهربائى فيه .. وظلت أم كلثوم ترقد فى غرفة الإنعاش وبداخلها أجهزة علمية هى آخر ما استحدثه الطب والعلم .. وكانت عبارة عن آلات المتابعة الآلية للتنفس ودقات القلب آليا .. كما كانت تضم هذه الآلات جهاز التنفس الآلى ويقوم بضخ الأوكسجين بمعدلات تناسب مع احتياج الجسم من هذا الغاز عندما تتوقف عملية التنفس ..

بالإضافة الى جهاز متابعة القلب ، وهو لرسم القلب متصلا بشاشة التليفزيون .. وجهاز آخر لرسم المخ .. وبرغم العلاج المستمر على أحدث الأسس وبكل الامكانيات الطبية فإن حالة كوكب الشرق لم تتحسن ، ولم يستجيب جسمها لأى علاج ..

وظلت أم كلثوم تصارع الموت عدة أيام حتى رحلت عن عالمنا فى الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم الاثنين الموافق ١٩٧٥/٢/٥ ..

* * *

● مليون مصرى .. فى البوداع الأخير :

كان أول خبر أذيع عن وفاة كوكب الشرق أم كلثوم من الاذاعة والتليفزيون فى نشرة الساعة الخامسة .. فقد انضمت موجات الاذاعة آنذاك .. وبعدها أذيع الخبر ثم تلاه إذاعة نعى الدكتور عبد العزيز حجازى رئيس الوزراء آنذاك .. ثم نعى وزير الاعلام ثم تلاوة القرآن الكريم .. ثم نعى وزارة الثقافة الذى تلاه المرحوم الأديب يوسف السباعى .. وتناقلت وكالات الأنباء الخبر .. وأذاعته بكل لغات العالم ..

وللمصادفة الغريبة ، أن إذاعة القاهرة قبل رحيل أم كلثوم بيومين اذاعت نبأ الوفاة .. ولكنها عادت وكذبت .. فقد كانت أم كلثوم تصارع المرض داخل غرفة الإنعاش بمستشفى المعادى ..

لقد ماتت أم كلثوم .. وانتهت حياتها .. ماتت وكما أذاع بيان الوفاة الدكتور

مصطفى المنيلوى آنذاك فى الساعة الرابعة والنصف من بعد ظهر يوم الاثنين بعد صراع مرير مع المرض استمر حوالى مائة ساعة .. لقد بدأت فى الساعات الأخيرة من يوم الوفاة قصة الصراع بين أم كلثوم والموت ..

.. ففى منتصف هذه الليلة بدأ الاضطراب فى قلب أم كلثوم واضحا .. وكانت قد مرت من قبل بأزميتين حادتين .. وصلت بها إلى جالة الوفاة .. حتى أن الأطباء قد استدعوا أهلها أكثر من مرة إلى حجرة الانعاش ..

وفى منتصف ليلة الأحد ازداد الاضطراب فى القلب وأسرع الأطباء إلى غرفة الانعاش .. ودفعوا بكميات كبيرة من الأكسجين .. وبعد نصف ساعة عاد القلب إلى عمله الطبيعى .. ولم تمض سوى مدة قصيرة وإذا بحالة الكلى تتدهور فجأة .. ثم توقفت عن العمل نهائيا .. وأدى ذلك إلى زيادة نسبة البولينا فى الدم زيادة خفيفة .. بينما كان ينبغي أن يكون النبض عاديا والضغط ٩٠/١٣٥ ..

عندئذ اجتمع الأطباء فى محاولة يائسة لإعادة تشغيل الكلى .. وظلت الكلى ترفض الاستجابة .. ونظرا لسوء حالتها وخطورتها اجتمع فريق الأطباء المكون من ١٥ طبيبا فى الساعة العاشرة والنصف .. وتبينوا أن حالة أم كلثوم تزداد سوءا ، وأنها تقاوم فى ساعتها الأخيرة .. وفى الساعة الثانية عشرة من ظهر يوم الاثنين يوم الرحيل .. اجتمع الأطباء مرة أخرى .. وفى هذه المرة كان واضحا على وجوههم سوء حالة أم كلثوم .. لقد كان قلب أم كلثوم فى طريقه إلى الموت الكامل حيث إتضح انه لن يتحمل الحياة أكثر من خمس ساعات ..

وبدأت الساعات تمضى ببطء .. والأمل معلقا فوق أبواب غرفة الانعاش وفجأة .. وفى الساعة الرابعة حدث اضطراب شديد فى غرفة الانعاش .. حين أكتشف الأطباء توقف قلب أم كلثوم .. وبعد لحظات خرج الطبيب المسئول عن غرفة الانعاش حيث أجهش بالبكاء معلنا خبر وفاة كوكب الشرق أم كلثوم ..

وانتشر نيا وفاتها فى كل أروقة المستشفى بسرعة البرق .. وانفجر الموجودين فى صراخ وبكاء حاد .. واستعانت إدارة المستشفى بقوات الأمن فى محاولة يائسة لمنع المرضى وإعادتهم إلى أماكنهم خوفا عليهم من الزحام ..

واتصل الدكتور الحفناوى زوج كوكب الشرق السيدة أم كلثوم بالمهندس سيد مرعى رئيس مجلس الشعب فى ذلك الوقت والدكتور كمال أبو المجد وزير الاعلام وأبلغهما نبأ وفاة أم كلثوم .. بينما كانت غرفة السويش بمستشفى المعادى التى لم تهدأ عن العمل يوم الوفاة ، ترد على استفسارات العالم أجمع وخصوصا من السعودية والكويت وسوريا ولبنان وجميع محافظات مصر .. كلها كانت تسأل عن صحة أم كلثوم حتى بعد أن ماتت ..

انقضت حوالى الساعة قبل أن يعلن للعالم رسميا نبأ وفاة أم كلثوم .. وبعد وفاة كوكب الشرق أطفئت أنوار الممر الذى توجد به غرفة الانعاش بمستشفى المعادى ، حيث ترقد أم كلثوم .. وفى حوالى السادسة من مساء الاثنين أسرع الأطباء للإشراف على خروج أم كلثوم من الحجرة التى ظلت بها خمسة أيام صامته فى غيبوبة كاملة .. وخرجت منها لأول مرة ، ولكن خروجها كان فوق نقالة .. ووقف لاستقبالها على باب غرفة الانعاش حكمدار المستشفى وحرس خاص من ضباط وصف ضباط .. وتحركت أم كلثوم على نقالة ووراءها الحكمدار والحراس والأطباء والممرضون يودعونها .. وساروا فى خطوات منتظمة على طول الممر الذى ظلت أضواءه مطفأة .. ثم أنزلت إلى الدور الأول حيث دخلت غرفة لتوضع فى ثلاجة .. وأغلقت الحجرة .. وجلس مقرئ مسجد الحسين على باب الغرفة ليتلو لها من آيات القرآن الكريم ..

وبعد أن خرجت أم كلثوم من الانعاش بدأت أسرتها تعد صيغة النعى الذى سوف ينشر فى الصحف بينما وقع على شهادة وفاتها الدكتور زكريا الباز ..

* * *

كانت مشاعر مليون مواطن مصرى فى لقائهم الأخير بكوكب الشرق .. أقوى من كل ترتيب سبق إعداده أو تنظيمه .. فما كادت الجنائزة تجتاز ميدان التحرير ، وتدخل شارع طلعت حرب متجهة حسب طريقها المرسوم إلى جامع جركس ، حتى ابتلعها بحر من البشر الذى تجاوز عدد أفرادهِ أكثر من مليون مواطن مصرى ، هؤلاء أنزلوا جثمان أم كلثوم من فوق أكتاف رجال شرطة المطافئ الذين كانوا يحملونه .. وتبادلوا هم الواحد بعد الآخر حمل الجثمان والسير به فى طريق آخر استمر ثلاث ساعات من ميدان طلعت حرب إلى شارع قصر النيل إلى العتبة ثم إلى مسجد الإمام الحسين ..

وداخل المسجد الذى غطاه ألوف المودعين ، استجابت الجماهير لنداء إمام المسجد بالوقوف خشوعا فى بيت الله .. وعلى الفور ران الصمت الرهيب على ألوف المصلين أمام الجثمان داخل المسجد .. ثم بعد الصلاة نقل جثمان أم كلثوم إلى عربة إسعاف كانت تقف أمام أحد أبواب المسجد .. ومن هناك إلى البساتين حيث المقبرة التى دفنت فيها كوكب الشرق أم كلثوم ..

ولقد بدأ موكب الوداع مع شروق الفجر .. حيث تم لف الجثمان فى ١١ ثوبا كان آخرها ثوب من الملس الأخضر الذى يرمز إلى الأرض .. بينما قامت شقيقة كوكب الشرق برش زجاجة ماء كان الأمير عبد الله الفيصل قد بعث بها من السعودية من بحر زمزم مع كمية من البخور ..

وقد وصل جثمان أم كلثوم إلى جامع عمر مكرم فى السادسة وعشر دقائق صباحا فى سيارة إسعاف ، كانت تسبقها على كورنيش النيل عربة مرور تعكس بإشارات الضوء الأحمر ، التى تنطلق منها فى هدوء الصباح لحنا حزينا .. وقد تم وضع الجثمان داخل النعش الذى لف بغطاء حرير من اللونين الأخضر واللبنى أمام محراب الجامع الذى أغلقت أبوابه ، ولم يسمح لأحد بدخوله حتى بدأت صلاة الجنازة فى الساعة العاشرة والنصف صباحا .. حيث اخلت ساحة المسجد مرة أخرى استعدادا لبدء الموكب الجماهيرى ..

لقد كانت الألوف قد أخذت مكانها على طول الطريق المقرر أن تقطعه الجنازة منذ الساعات الأولى من الصباح .. ومع اقتراب الساعة الحادية عشرة المحددة لبدء الجنازة ، كانت كل شوارع القاهرة قد تحولت إلى كتل بشرية ..

وفى السرداق الكبير الذى يتسع لألف شخص بدأ وصول كبار رجال الدولة والمعزين منذ الثامنة والنصف صباحا .. وعلى امتداد أكثر من ساعة بدأ الاعداد لتنظيم سير الجنازة على أساس أن يتقدمها العاملات بشركة اسطوانات صوت القاهرة يتبعهن فرقة موسيقى الأمن المركزى « ١٥٠ عازفا » ثم حملة باقات الزهور الذين بلغ عددهم ٥٢ حامل لباقات الزهور ، ثم جثمان الفنانة الراحلة يتبادل حمله شرطة المطافى ، ويتبع الجثمان كبار رجال الدولة ..

وفي الساعة الحادية عشرة أعطيت إشارة البدء لفرقة موسيقى الأمن المركزى ، فانساب لحنها الجنائزى .. وبدأ تحرك موكب الجنازة من جامع عمر مكرم إلى ميدان التحرير .. ولكن لحظات حين وصل الجثمان إلى ميدان التحرير الذى كان يحرا من البشر حتى بدى أن النظام الذى وضع لسير الجنازة أصبح مستحيلا .. فصدرت تعليمات الأمن إلى الصفوف الأولى من حملة الموسيقى وحملة الورود .. لكن ضغط الناس بلغ أقصاه حين وصل الجثمان إلى ميدان طلعت حرب .. وزاد هدير الجماهير مع التلويح بالناديل البيضاء .. ونداءات مجنونة « مع السلامة يا ست .. يا ثومة .. يا صوت الشعب .. يا صوت الخير .. مع السلامة يا عظمة مصر ..

وعند ميدان طلعت حرب ، وكان من المقرر أن يتجه موكب الجنازة يمينا إلى شارع صبرى أبو علم حيث جامع جرّس ، وصلت الجماهير إلى الجثمان ورفعته من فوق أكتاف رجال المطافى وأخذت تتبادل له واحدا تلو الآخر .. وانساب الموكب الحزين فى طريق آخر غير الذى كان مقررا له إلى شارع قصر النيل أولا ثم إلى ميدان الأوبرا .. فميدان العتبة .. فميدان الحسين .. ومن ميدان الحسين إلى مدافن الأسرة فى البساتين ..

* * *

● وفاة أم كلثوم فى اذاعات العالم :

بعد أن تناقلت وكالات الأنباء خبر وفاة أم كلثوم .. وبدأت الاذاعات العربية والأجنبية تذيع خبر الوفاة كل لحظة .. بدأ الأعداد فى اذاعات العالم لمتابعة آخر أخبار الجنازة .. فقد حرصت هذه الاذاعات على نقل إذاعة وصف تفصيلي ومطول لهذه الجنازة التاريخية .. التى يصفها بعض المؤرخين بأنها تقارب ما حدث فى جنازة الزعيم الراحل جمال عبد الناصر .. فقد قال راديو لندن :

— لقد رحلت أشهر فنانة فى القرن العشرين .. وقال راديو روما : أن الزمان قل أن يجود بمثل هذا الصوت الذى رحل عن عالمنا .. والذى ظل يغنى مستحوذا خلال نصف قرن على قلوب الملايين وسيظل يتردد بعد وفاتها على مر الزمن .. أما راديو بون فقال : إن الجماهير قامت بدفع الحواجز التى تتبع الشرطة. لنقل جثمان أشهر فنانات العالم العربى ..

وفي فرنسا نشرت صحيفة الفيجارو تحقيقا مصورا على صفحة كاملة عن أم كلثوم قالت فيه : إن صوت أم كلثوم كان يثير النشوة في نفوس مائة مليون عربى من عشاقها .. إن باريس لن تنسى بعد تلك الليلة التي سهرت فيها حتى الساعات الأولى من صباح اليوم التالى تستمع إلى صوت أم كلثوم في قاعة مسرح الأورليبييا وفي جو ملىء بعبط الشرق .. لقد استطاعت أم كلثوم يومها أن تهر بفنها وصوتها المشاهدين طوال خمس ساعات ..

من ناحية أخرى كان لوفاة أم كلثوم أكبر الأثر في نفوس الزعماء العرب ، الذين بادر أغلبهم عقب وفاتها ، اما بإرسال برقيات التعازى للرئيس السادات أو بإرسال الوفود للمشاركة في الجنازة .. فقد بغث الرئيس الحبيب بورقيبة بريقة تعزية للرئيس السادات في وفاة أم كلثوم وتبعه غيره من الرؤساء والملوك العرب ..

والسؤال الآن : أين دفنت أم كلثوم .. ونحن قد أوردنا هذا السؤال كى نجيب عليه .. لأن مكان دفن أم كلثوم لن يواجه أى جدل مثلما واجه مكان دفن الزعيم جمال عبد الناصر .. وهل هو ما يزال مدفونا في المكان الذى أعلن عنه ، وتم توصيل الجثمان إليه .. في كوبرى القبة .. أم أن الجثمان قد نقل من هناك ..

أما بالنسبة لكوكب الشرق الراحلة أم كلثوم .. فقد أعلنت الصحف أن جثمانها سوف يدفن في مقابر الأسرة بالبساتين .. ولتأكيد ذلك نقلت الصحف صورة للمدفن وقدمت وصفا دقيقا له .. ففى أعلى المدفن توجد لوحة كبيرة منقوش عليها آية قرآنية .. ثم لوحة أخرى تشير إلى أن هذا المكان هو مدفن أم كلثوم ..

والخوش الذى يقع فيه المدفن مواجه لمدفن الزعيم مصطفى النحاس في شارع قوَّاد سراج الدين المتفرع من شارع الكردى بمنطقة التونسى بحى الإمام الشافعى .

المقبرة بناء حجري مربع الشكل ارتفاعه أربعة أمتار وفوقه قبة ارتفاعها حوالى مترين .. وللمدفن باب خشبى ضخم خال من النقوش .. ومدخل المقبرة من خارج البناء وله نوافذ زجاجية عالية من زجاج بنى اللون ، ولكى ينير داخل البناء عندما تسقط عليه الشمس .. ويحيط بالمدفن سور الخوش وطوله ٥٠ مترا وعرضه ١٦ مترا

ومساحته ٨٠٠ متر .. ويضم استراحة من حجرتين ودورة مياه وله ثلاثة أبواب حديدية ..

وكانت أم كلثوم قد اشترت الحوش وقامت ببناء هذه المقبرة عام ١٩٤٨ لتدفن فيها والدتها .. ثم دفن فيها شقيقها خالد عام ١٩٥٣ ، وأخيرا ضم المدفن جثمان أم كلثوم إلى الأبد ..

مراجع الكتاب

(أ) الكتب :

- ١ - جمال عبد الناصر
 - ٢ - ثورة الضباط الأحرار في مصر
 - ٣ - أم كلثوم - باللغة الفرنسية
 - ٤ - أم كلثوم التي لا يعرفها أحد
 - ٥ - حروب مصر المعاصرة
 - ٦ - شخصيات لا تنسى
 - ٧ - الغناء
 - ٨ - كوكب الشرق أم كلثوم
 - ٩ - حصاد السنين
 - ١٠ - سنة أولى سجن
 - ١١ - عبد الناصر
 - ١٢ - جمال عبد الناصر ولغز الموت
 - ١٣ - أنور السادات شخصيته وعصره
- عبد المنعم شميس
كوفتونوفيتش
إيزاييل صياح
محمود عوض
اللواء عبد المنعم خليل
مصطفى أمين
كمال النجمي
خليل المصري ومحمود كامل
زكى نجيب محمود
مصطفى أمين
فتحى رضوان
فاروق فهمى
د . أحمد شلبى

(ب) الدوريات :

- ١ - صحف ومجلات أخبار اليوم
- ٢ - الأهرام
- ٣ - الجمهورية
- ٤ - الأحرار

(جـ) المقابلات شخصية :

**البوم خاص بكل القصائد
والاغاني ٠٠ لآم كلثوم
من عام ١٩٢٤ حتى ١٩٧٢**

ملف خاص .. لقصائد
وأغاني أم كلثوم
من عام ١٩٢٤ حتى عام ١٩٧٢

« أكثر من ٢٨٠ أغنية وقصيدة »

المؤلف	الملحن	القصيدة
** عام ١٩٢٤ :		
أحمد رامى	الشيخ أبو العلا	الصب تفضحه عيونه
أحمد رامى	د. أحمد صبرى النجريدى	خايف يكون حبك
أحمد رامى	محمد القصبجى	قال ايه حلف
** عام ١٩٢٦ :		
أحمد رامى	الشيخ أبو العلا	أقصر فؤادى
أنى فراس الحمدانى	عبد الحامول	أراك عصى الدمع
صفى الدين الحلبي	الشيخ أبو العلا	مثل الغزال
عبد الله الشبراوى	الشيخ أبو العلا	وحقك أنت المنى
اسماعيل صبرى	الشيخ أبو العلا	يا آسى الحى
أحمد رامى	محمد القصبجى	أحبك وأنت مش دارى
أحمد رامى	محمد القصبجى	البعد طال
بدون	د. أحمد صبرى النجريدى	الخلاعة والدلاعة
بدون	د. أحمد صبرى النجريدى	الفل والورد والياسمين
بدون	د. أحمد صبرى النجريدى	أنا على كيفك
أحمد رامى	محمد القصبجى	زارنى طيفك (مونولوج)

الملاحن	المؤلف	القصيدة
محمد القصبيجي	أحمد رامى	ان خالى فى هواها عجب
محمد القصبيجي	أحمد رامى	أخذت صوتك من روحى
محمد القصبيجي	أحمد رامى	يقظة القلب (قصيدة)
محمد القصبيجي	أحمد رامى	أيقظت فى عواطفى
محمد القصبيجي	حسين حلمى المنسترلى	تبيعينى ليه (طقطوقة)
محمد القصبيجي	أحمد رامى	تراعى وتبتسم (طقطوقة)
محمد القصبيجي	بيرم التونسى	سلام على الحاضرين
محمد القصبيجي	محمد الأسمر	زهر الربيع
محمد القصبيجي	أحمد رامى	صحيح خصامك
محمد القصبيجي	أحمد رامى	سكت والدمع اتكلم (مونولوج)
محمد القصبيجي	أحمد رامى	صدق وحبك (طقطوقة)
د. أحمد صبرى النجريدى	بدون	طلع الفجر ولاح (مونولوج)
محمد القصبيجي	أحمد رامى	قلبك غدر لى
محمد القصبيجي	أحمد رامى	ما تروق دمك (طقطوقة)
محمد القصبيجي	أحمد رامى	تشوف أمورى وتتحقق
محمد القصبيجي	أحمد رامى	ولحد أمتى (طقطوقة)
د. أحمد صبرى النجريدى	ابراهيم حسن	كم بعشنا مع النسيم سلاما
د. أحمد صبرى النجريدى	نصر الله ارحاجى	لى لذة فى ذلتى (قصيدة)
د. أحمد صبرى النجريدى	على الجارم	مالى فنتت بلحظك (قصيدة)
د. أحمد صبرى النجريدى	أحمد رامى	يا ستى ليه المكايده
د. أحمد صبرى النجريدى	أحمد رامى	ياللى انت جنبى مونولوج

** عام ١٩٢٧ :

دأحمد صبرى النجريدى	أحمد رامى	الحب كان من سنين (مونولوج)
محمد القصبيجي	أحمد رامى	ان يغب عن مصر سعد (قصيدة)

المؤلف	الملاحن	القصيدة
أحمد رامى	محمد القصبجى	حييت ولا بانش على (طقطوفة)
أحمد رامى	محمد القصبجى	خلى الدموع
** عام ١٩٢٨ :		
ابن النبيه المصرى	أبو العلا محمد	أفديه ان حفظ الهوى (قصيدة)
أحمد رامى	محمد القصبجى	الزهر فى الروض (أغنية)
ابن النبيه المصرى	أبو العلا محمد	أمانا أيها القمر المظل
أحمد رامى	محمد القصبجى	يا روحى
أحمد رامى	محمد القصبجى	ان كنت أسامح (مونولوج)
أحمد رامى	محمد القصبجى	الشك يحىي الغرام
أحمد رامى	محمد القصبجى	بعدت عنك بخاطرى (مونولوج)
أحمد رامى	أم كلثوم	على عيني الهجر
بدون	الشيخ أبو العلا محمد	قل للبخيلة (قصيدة)
أحمد رامى	محمد القصبجى	خيالك فى المنام (مونولوج)
** ١٩٣٠ - ١٩٣١ :		
أحمد رامى	محمد القصبجى	يصعب على (طقطوفة)
بكر بن النطاح	أبو العلا محمد	أكذب نفسى (قصيدة)
أحمد رامى	داود حسنى	البعد علمنى السهر (دور)
مصطفى بك نجيب	محمد القصبجى	الليل أهو طال (موال)
أحمد رامى	محمد القصبجى	أنت فاكرونى
أحمد رامى	داود حسنى	شرف حبيب القلب (دور)
بديع خيرى	زكريا أحمد	هو ده يخلصك من الله
أحمد رامى	زكريا أحمد	الى حبك يا هناء
حسين حلمى	زكريا أحمد	غصب عنى

المؤلف	المصيدة	الملاحن
أحمد رامى	انت فاكرنى (طقطوقة)	محمد القصبجى
أحمد رامى	جنة نعيمى	داود حسنى
حسن صبحى	جمالك ربنا يزيد	زكريا أحمد
كامل الخلقى	حسن الطبع الى فتى	داود حسنى
أحمد رامى	خاصمتنى	محمد القصبجى
حسين والى	روحى وروحك	داود حسنى
أحمد رامى	عينى فيها الدموع (مونولوج)	محمد القصبجى
أحمد رامى	قالوا لى أمتى قلبك ؟	زكريا أحمد
كامل الخلقى	قلبى عرف معنى الأشواق (دور)	داود حسنى
بلون	كل ما يزداد رضى قلبك (دور)	داود حسنى
كامل الخلقى	كنت خالى (دور)	داود حسنى
حسن صبحى	ليه عزيز دمعى	زكريا أحمد
أحمد رامى	مختار يا ناس (طقطوقة)	محمد القصبجى
أحمد رامى	يا عشرة الماضى (مونولوج)	محمد القصبجى
أحمد رامى	يا غائبا عن عينى (مونولوج)	محمد القصبجى
أحمد رامى	يا فايتنى وانا روحى معاك	محمد القصبجى
أحمد رامى	يا فؤادى ايه ينوبك	داود حسنى
يحيى محمد	يا قلبى كان مالك (دور)	زكريا أحمد
أحمد رامى	ياللى أنت جنيتى (مونولوج)	محمد القصبجى
حسين حلمى	تبيينى ليه (طقطوقة)	محمد القصبجى
أحمد رامى	ياللى جفاك المنام (مونولوج)	محمد القصبجى
أحمد رامى	ياللى شغلت البال (طقطوقة)	محمد القصبجى
أحمد رامى	ياما أمر الفراق (مونولوج)	زكريا أحمد
أحمد رامى	يوم الهنا (دور)	داود حسنى

المؤلف	الملاحن	القصيدة
--------	---------	---------

** من عام ١٩٣٤ - ١٩٣٦ :

ابتسام الزهر (دور)	عمر القاضي	زكريا أحمد
عيد الدهر (قصيدة)	أحمد شوق	رياض السنباطي
على بلد المحبوب (أغنية)	أحمد رامى	زكريا أحمد
يا بشير الأنس غنى	أحمد رامى	زكريا أحمد
امتى الهوى (دور)	يحيى عمر	زكريا أحمد
شجاني نوحى (مونولوج)	أحمد رامى	زكريا أحمد
مين اللي قال ان القمر (دور)	عبد الرحمن فياض	زكريا أحمد
انظري (مونولوج)	أحمد رامى	محمد القصبجى
أيها الرائح المجد (قصيدة)	الشريف الرضى	زكريا أحمد
فين العيون	أحمد رامى	محمد القصبجى
السوق	أحمد رامى	محمد القصبجى
مناجاة الطائر	أحمد رامى	محمد القصبجى
النافورة	أحمد رامى	محمد القصبجى
حيرانه ليه يا دموعى	أحمد رامى	محمد القصبجى
ياريتنى كنت النسيم	أحمد رامى	محمد القصبجى
ياللى رعيت العهود	أحمد رامى	محمد القصبجى
ياما فاديت	أحمد رامى	محمد القصبجى
الشرقة (أغنية)	أحمد رامى	زكريا أحمد
يا نسيم الفجر (مونولوج)	أحمد رامى	أم كلثوم
أنشودة الربيع	أحمد رامى	رياض السنباطي

** ١٩٣٧ - ١٩٤٠ :

ميلاد الملك (أغنية)	أحمد رامى	رياض السنباطي
-----------------------	-----------	---------------

المصنف	المؤلف	القصيدة
رياض السنباطي	أحمد رامى	اذكرينى (مونولوج)
محمد القصبي	أحمد رامى	يأس وأمل
رياض السنباطي	أحمد رامى	افرح يا قلبى
محمد القصبي	أحمد رامى	الزهر فى الروض
محمد القصبي	أحمد رامى	بغداد (أنشودة)
زكريا أحمد	يحيى محمد	ماكانش ظنى (دور)
زكريا أحمد	أحمد رامى	النوم يداعب (مونولوج)
رياض السنباطي	أحمد رامى	الورد فتح (أغنية)
زكريا أحمد	حسن صبحى	آه يا سلام
زكريا أحمد	أحمد رامى	القصر المهجور (قصيدة)
زكريا أحمد	أحمد رامى	بكره السفر
محمد القصبي	أحمد رامى	طاب النسيم العليل
زكريا أحمد	أحمد رامى	عادت ليالى الحنا (دور)
زكريا أحمد	أحمد رامى	فاكر لما كنت جنينى (مونولوج)
رياض السنباطي	أحمد رامى	قضيت حياى (أغنية)
رياض السنباطي	أحمد رامى	لما انت ناوية (طقطوقة)
محمد القصبي	أحمد رامى	منيت شبابى بالنعيم (أغنية)
محمد القصبي	أحمد رامى	نامى نامى يا ملاكى (أغنية)
محمد القصبي	أحمد رامى	يا بهجة العيد السعيد (أغنية)
رياض السنباطي	أحمد رامى	يا شباب النيل (نشيد)
محمد القصبي	أحمد رامى	يا قوادى غنى الحان الوفاء (أغنية)
محمد القصبي	أحمد رامى	ياللى جفيت ارحم حالى (طقطوقة)
محمد القصبي	أحمد رامى	ياللى صنعت الجميل (أغنية)
محمد القصبي	أحمد رامى	مادام تحب بتنكر ليه (طقطوقة)
رياض السنباطي	أحمد رامى	يا ليلة العيد أنستينا (أغنية)
محمد القصبي	أحمد رامى	حرمت أقول (طقطوقة)

المؤلف	الملاحن	القصيدة
أحمد رامى	محمد القصبجى	يا مجد ياما اشتيبتك
أحمد رامى	محمد القصبجى	يا نجم مالك حيران (مونولوج)
على شكرى	محمد القصبجى	ينوبك إيه (طقطوقة)
** ١٩٤١ - ١٩٤٥ :		
أحمد رامى	زكريا أحمد	القطن فتح (أغنية)
يبرم التونسى	زكريا أحمد	أنا فى انتظارك (أغنية)
أحمد رامى	زكريا أحمد	أنا كنت أحب الشكوى (أغنية)
يبرم التونسى	زكريا أحمد	أنا وأنت (أغنية)
يبرم التونسى	زكريا أحمد	أهل الهوى (أغنية)
يبرم التونسى	زكريا أحمد	آه من لفاك (أغنية)
أحمد رامى	محمد القصبجى	أوبريت عايدة (الفصل الأول)
أحمد رامى	رياض السنابلى	أوبريت عايدة (الفصل الثانى)
يبرم التونسى	زكريا أحمد	إيه أسمي الحب (أغنية)
يبرم التونسى	زكريا أحمد	برضاك يا خالقي (موال)
أحمد رامى	زكريا أحمد	حييت ولا بنش على (طقطوقة)
أحمد رامى	زكريا أحمد	فضل لى إيه (موال)
أحمد رامى	محمد القصبجى	رق الحبيب
محمد الأسمر	زكريا أحمد	زهر الربيع
أحمد رامى	زكريا أحمد	الورد فتح والياسمين
يبرم التونسى	زكريا أحمد	سلام الله
يبرم التونسى	زكريا أحمد	أكتب لى
يبرم التونسى	زكريا أحمد	عينى يا عيني
أحمد رامى	زكريا أحمد	يا فرحة الأحباب
يبرم التونسى	زكريا أحمد	حييت يسعد أوقاته

المؤلف	الملمح	القصيد
يبرم التونسي	زكريا أحمد	غنى لى شوى (طقطوقة)
يبرم التونسي	زكريا أحمد	الأوله فى الغرام (أغنية)
يبرم التونسي	زكريا أحمد	فى نور عيالك (أغنية)
يبرم التونسي	زكريا أحمد	قوللى ولا تخيش يا زين
العاصى عبد الوهاب	زكريا أحمد	قول لطيفك
أحمد رامى	محمد القصبجى	عطف حببى وهنائى
أحمد رامى	زكريا أحمد	فاكر لما كنت جنبى
أحمد رامى	زكريا أحمد	غنى الربيع
أحمد رامى	زكريا أحمد	فين يالالى الهنا (موال)
على أحمد باكثير	رياض السنباطى	قالوا أحب
يبرم التونسي	زكريا أحمد	كل الأحبة اثنين
أحمد رامى	رياض السنباطى	كيف مرت على هواك
أحمد رامى	محمد القصبجى	لاح نور الفجر
أحمد رامى	زكريا أحمد	يا فرحة الأحباب (أغنية)
أحمد رامى	محمد القصبجى	يا قلبى بكره السفر (مونولوج)

★ ١٩٤٦ - ١٩٥٠ :

أحمد رامى	رياض السنباطى	أصون كرامتى (قصيدة)
يبرم التونسي	زكريا أحمد	الأمل (أغنية)
أحمد رامى	زكريا أحمد	جمال الدنيا
يبرم التونسي	زكريا أحمد	حلم (أغنية)
يبرم التونسي	زكريا أحمد	نصرة قوية
يبرم التونسي	زكريا أحمد	لغة الزهور
يبرم التونسي	محمد القصبجى	ياللى اتحيرت الحنان
يبرم التونسي	محمد القصبجى	نورك يا بنت الكحل (أغنية)
يبرم التونسي	محمد القصبجى	يا صبايح الخير (أغنية)

المؤلف	الملاحن	القصيدة
حسن صبحي	زكريا أحمد	ليه عزيز دمعي تذله (طقطوقة)
أحمد رامى	رياض السنباطى	ح أقابله بكره
أحمد شوقي	رياض السنباطى	نهج البردة
أحمد شوقي	رياض السنباطى	سلوا قلبى
أحمد شوقي	رياض السنباطى	سلوا كؤوس الطلا
بيرم التونسي	رياض السنباطى	ظلموني الناس
أحمد رامى	رياض السنباطى	غلبت أصالح
أحمد رامى	رياض السنباطى	هلت لياالى القمر
أحمد شوقي	رياض السنباطى	السودان
أحمد شوقي	رياض السنباطى	ولد الهندي
أحمد رامى	رياض السنباطى	يا طول عذابى
أحمد رامى	رياض السنباطى	بين عهدين
أحمد شوقي	رياض السنباطى	النيل
أحمد رامى	رياض السنباطى	ياللى كان يشجيك أنينى
أحمد رامى	رياض السنباطى	رباعيات الخيام (قصيدة)
أحمد رامى	رياض السنباطى	سهران لوحدى

★ ★ ١٩٥١ - ١٩٥٦ :

« القصائد الوطنية التى غنتها بعد ثورة يوليو »

مصر تتحدث عن نفسها	حافظ إبراهيم	رياض السنباطى
يا ظالمنى (مونولوج)	أحمد رامى	رياض السنباطى
جددت حبك ليه (أغنية)	أحمد رامى	رياض السنباطى
صوت بلدنا	عبد الفتاح مصطفى	رياض السنباطى
صوت الوطن (نشيد)	أحمد رامى	محمد الموجى

المصنف	المؤلف	القصة
محمد الموجي	صلاح جاهين	مهلك يا مصري (أغنية)
رياض السنباطي	أحمد رامى	أغار من نسمة الجنوب
رياض السنباطي	أحمد رامى	أنشودة الجلاء
رياض السنباطي	أحمد رامى	بأنى وروحي
رياض السنباطي	عبد الفتاح مصطفى	يا سلام على الأمة أغنية
رياض السنباطي	طاهر أبو فاشا	عرفت الهوى
رياض السنباطي	طاهر أبو فاشا	لغيرك ما مددت يدا
رياض السنباطي	طاهر أبو فاشا	على عيني بكت عيني
كمال الطويل	صلاح جاهين	والله زمان يا سلاحي
رياض السنباطي	طاهر أبو فاشا	يا صحبة الروح
محمد الموجي	عبد الوهاب محمد	للصبر حدود
رياض السنباطي	أحمد رامى	قصة حبى (أغنية)
رياض السنباطي	عبد الوهاب محمد	اسأل روحك (أغنية)
رياض السنباطي	عماد حسن اسماعيل	الصباح الجديد (أغنية)
محمد الموجي	طاهر أبو فاشا	حانت الأقدار
رياض السنباطي	صلاح جاهين	الله معك (نشيد)
رياض السنباطي	يبرم التونسي	صوت السلام
رياض السنباطي	طاهر أبو فاشا	أوقدوا الشموس

** من ١٩٥٧ حتى ١٩٦٠ :

رياض السنباطي	عبد الوهاب محمد	ح سيبك للزمن
رياض السنباطي	محمد الماحي	الفجر الجديد
رياض السنباطي	عبد المنعم السباعي	أرواح لمين
رياض السنباطي	أحمد فتحى	قصة الأمس (قصيدة)
رياض السنباطي	يبرم التونسي	بطل السلام
بليغ حمدى	عبد الفتاح مصطفى	انا فدائيون (نشيد)

المؤلف	الملمحن	القصيدة
عبد الفتاح مصطفى	رياض السنباطي	بعد الصبر ماطال (أغنية)
محمود حسن إسماعيل	رياض السنباطي	بغداد (نشيد)
عبد الوهاب محمد	بليغ حمدي	حب إله (أغنية)
يبرم التونسي	رياض السنباطي	شمس الأصيل
أحمد رامي	رياض السنباطي	عودت عيني
أحمد رامي	رياض السنباطي	دليلي احتار
عبد الفتاح مصطفى	رياض السنباطي	منصورة يا ثورة الأحرار
طاهر أبو فاشا	رياض السنباطي	الجيش
أحمد رامي	رياض السنباطي	هجرتك
عزيز أباظة	رياض السنباطي	قصة السد
أحمد العدواني	رياض السنباطي	يادارنا يا دار « أغنية خاصة بالكويت »

** ١٩٦١ - ١٩٧٢ :

يبرم التونسي	رياض السنباطي	الحب كده (أغنية)
عبد الفتاح مصطفى	رياض السنباطي	نوار (أغنية وطنية)
أحمد رامي	رياض السنباطي	حيرت قلبي
الأمير عبد الله الفيصل	رياض السنباطي	ثورة الشك
عبد الفتاح مصطفى	رياض السنباطي	توبة (قصيدة)
أحمد العدواني	رياض السنباطي	أرض الجدد
عبد الفتاح مصطفى	رياض السنباطي	الزعيم والثورة
يبرم التونسي	رياض السنباطي	بالسلام والمحبة (أغنية وطنية)
عبد الفتاح مصطفى	رياض السنباطي	لسه فاكسر (أغنية)
		يا جمال يا مثال الوطنية
		(غنتها مرتين الأولى عام
		١٩٥٤ ثم المرة الثانية عام ١٩٦٣)

المصنف	المؤلف	القصيدة
رياض السنباطي	أحمد شوق	إلى عرفات الله
رياض السنباطي	عبد الوهاب محمد	تحويل النيل (أغنية)
رياض السنباطي	عبد الفتاح مصطفى	لا يا حبيبي
رياض السنباطي	عمود حسن إسماعيل	يا ربا الفصحاء
رياض السنباطي	عبد الفتاح مصطفى	يا حبنا الكبير
رياض السنباطي	د . إبراهيم ناجي	الأطلال (قصيدة)
رياض السنباطي	محمد إقبال	حديث الروح (قصيدة)
رياض السنباطي	عبد الفتاح مصطفى	طوف وشوف
بليغ حمدي	مأمون الشناوي	كل ليلة وكل يوم
رياض السنباطي	صالح جودت	حبيب الشعب
رياض السنباطي	عبد الوهاب محمد	قوم بإيمان (نشيد)
رياض السنباطي	د . إبراهيم ناجي	مصر (قصيدة)
رياض السنباطي	أحمد رامي	أقبل الليل (قصيدة)
رياض السنباطي	نزار قباني	رسالة (قصيدة)
بليغ حمدي	عبد الوهاب محمد	أنا وانت ظلمنا الحب
رياض السنباطي	الأمير عبد الله الفيصل	من أجل عينيك
محمد عبد الوهاب	أحمد شفيق كامل	أنت عمري (أغنية)
رياض السنباطي	يبرم التونسي	دعاني لبيت
رياض السنباطي	صالح جودت	الثلاثية المقدسة (قصيدة)
بليغ حمدي	مرسي جميل عزيز	سيرة الحب (أغنية)
بليغ حمدي	مأمون الشناوي	بعيد عنك (أغنية)
بليغ حمدي	مرسي جميل عزيز	فات الميعاد (أغنية)
بليغ حمدي	مرسي جميل عزيز	الف ليلة وليلة
بليغ حمدي	أحمد شفيق كامل	الحب كله (أغنية)
بليغ حمدي	عبد الوهاب محمد	حكم علينا الهوى
محمد عبد الوهاب	أحمد شفيق كامل	أمل حياتي (أغنية)

المؤلف	المُلحّن	القصيدَة
عبد الوهاب محمد	محمد عبد الوهاب	فكرونى (أغنية)
أحمد رامى	محمد عبد الوهاب	انت الحب
كامل الشناوى	محمد عبد الوهاب	على باب مصر
جورج جرداق	محمد عبد الوهاب	هذه ليلتى (قصيدة)
نزار قباني	محمد عبد الوهاب	طريق واحد
مأمون الشناوى	محمد عبد الوهاب	ودارت الأيام (أغنية)
المهادى آدم	محمد عبد الوهاب	أغدا ألقاك (قصيدة)
أحمد شفيق كامل	محمد عبد الوهاب	ليلة حب (أغنية)
أحمد رامى	سيد مكاوى	يا مسهرنى

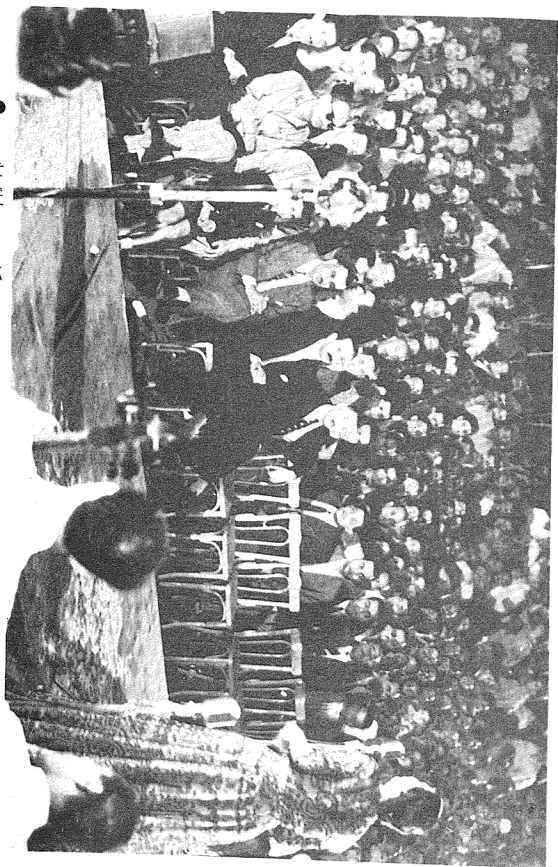
البوم صور يضم ام كلثوم وعبد الناصر



● كوكب الشرق ام كلثوم تتوسط رجال القوات المسلحة العائدون من حصار الفالوجا .. وبحوارها الضيق الأسود سيد طه .. وكان جمال عبد الناصر ضمن هذه المجموعة ولكنه لم يظهر في الصورة !! ●



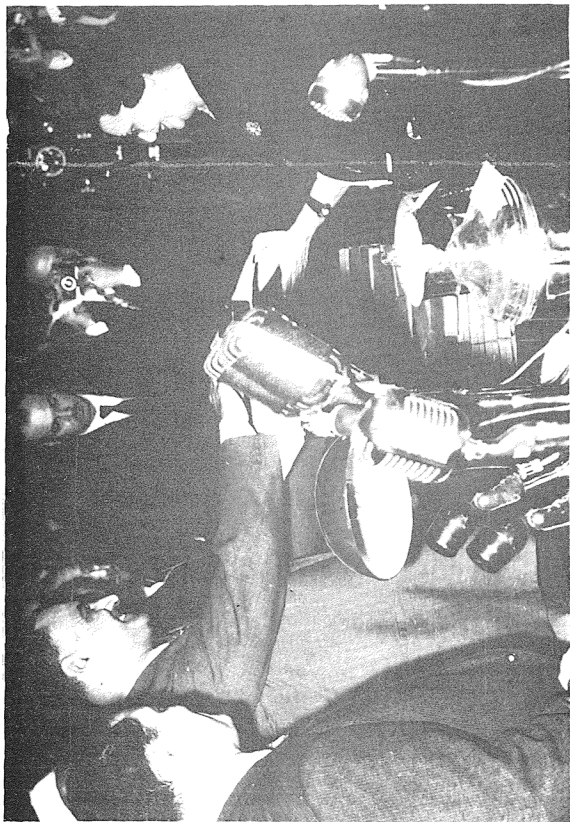
● كوكب الشرق أم كلثوم — مع الكاتب الصحفي مصطفى أمين — في لقاء مرح ●



● جمال عبد الناصر مع مجموعة من رجال الدولة .. في إحدى حفلات ام كلثوم .. ليلة الخميس ●



● جمال عبد الناصر — ولقاء خاص مع كوكب الشرق وفرقتها الموسيقية — بعد الانتهاء من إحدى البروفات ●



● الرئيس جمال عبد الناصر — يسلم أم كلثوم وسام الجمهورية من الطبقة الأولى عام ١٩٦٥ ●



● الزعيم جمال عبد الناصر يقلد ام كلثوم وشاح النيل عام ١٩٦٠
● ويجوارها الفنان محمد عبد الوهاب



● كوكب الشرق أم كلثوم .. تسلم على جمال عبد الناصر بعد
تسليمها الوشاح عام ١٩٦٠ ●



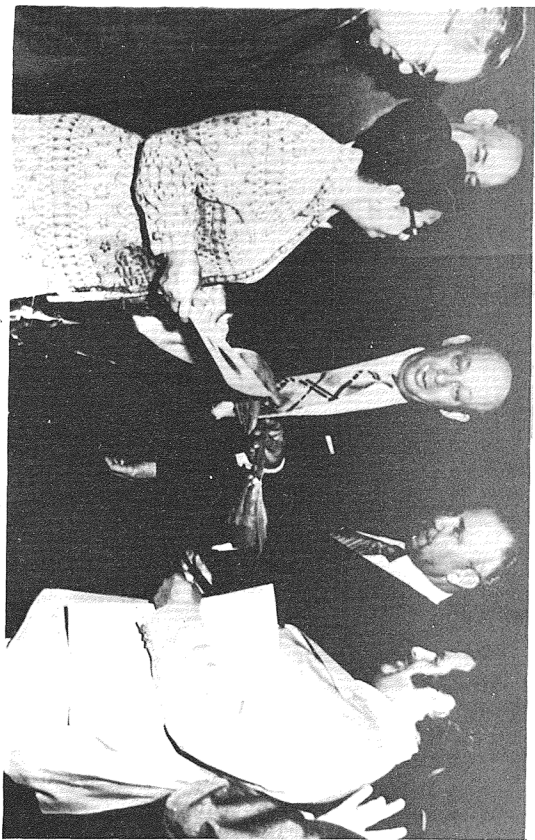
● كوكب الشرق أم كلثوم وبجوارها محمد عبد الوهاب وخلفهما

جمال عبد الناصر — بعد تسلمهما الوسام عام ١٩٦٥ ●



● الكاتب الصحفي محمد حسين هيكل يودع كوكب الشرق إم

كلثوم — بعد لقاء صحفي وفني ●



● كوكب الشرق أم كلثوم مع المهندس عثمان أحمد عثمان والرحوم
 حمدي عاشور محافظ القاهرة الأسبق ... وسوار حول مشروع الخير ●

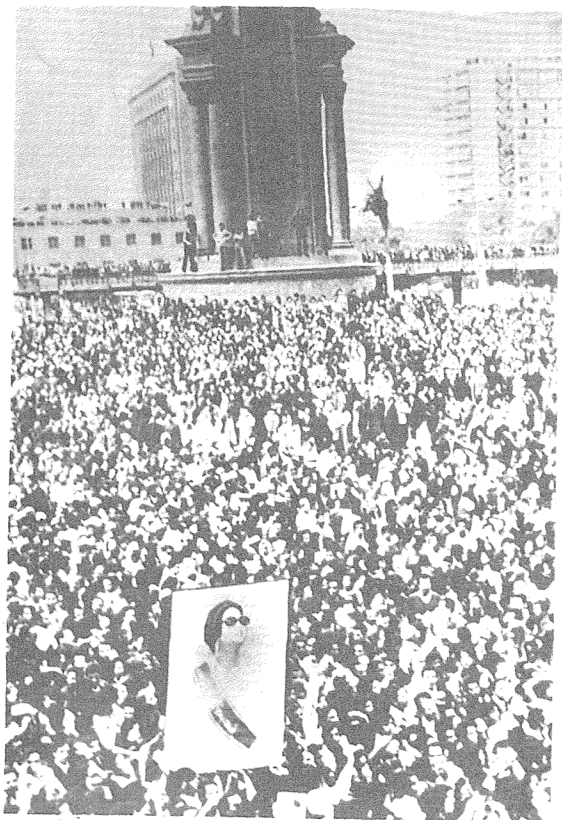


● السيدة جيهان السادات في زيارة خاصة لأم كلثوم ●



● جثان الرئيس جمال عبد الناصر ملفوفا بعلم مصر داخل قصر القبة

— وأعضاء الحكومة يترجمون عليه ●



● ملايين المصريين التفوا حول جنائز كوكب الشرق والصورة لآلاف
 من هذه الجموع الغفيرة في ميدان التحرير بالقرب من مسجد عمر
 مكرم ●



● السيدة حرم الرئيس جمال عبد الناصر ... تقدم عزاء إسرته في وفاة أم كلثوم ●



هذا الكتاب

كلمات يسطرها الكاتب الصحفي حنفي اخلاوى على جدران الزمن .. مستعيناً بمواد التاريخ الحيوية .. يغوص بقلمه في أعماق نفوس الزعماء ، يقترب كثيراً أو قليلاً من عالم هذه الزعامة في مجالها السياسي عند جمال عبد الناصر .. وفي مجالها الفني عند كوكب الشرق أم كلثوم .

وبحاول المؤلف من خلال كلماته فوق هذه الأوراق : أن يجيب عن أكثر من سؤال ، ويضع إجابات وافية للعديد من علامات الاستفهام التي دارت وتدور في أذهان الكثيرين منا .. نذكر منها على سبيل المثال :

- هل تعرف عبد الناصر على كوكب الشرق قبل ٢٣ يوليو ؟!
- لماذا سارعت أم كلثوم بتأييد الثورة .. وقطعت إجازتها السنوية — وتوجهت بسيارتها فوراً إلى مجلس قيادة الثورة ؟!
- هل غت أم كلثوم بأمر عسكري من عبد الناصر .. بعد حادث المشية ؟
- لماذا لجأ عبد الناصر وأسرته إلى فيلا أم كلثوم بالزمالك أثناء عدوان عام ١٩٥٦ ؟
- هل قررت أم كلثوم اعتزال الفن بعد موت عبد الناصر ؟!
- سر غموض العلاقة بين أم كلثوم والرئيس السادات وزوجته ؟!

